التقدمية الأصيلة

عثمان شبوب

كانت فرصة مناقشة المشروع التمهيدى للميثاق الوطنى مناسبة لحوار مثمر على المستوى الوطنى ساهمت فى اثراء المشروع ، ومحاولة تصحيح مساره •

وكان طبيعيا ان تحظى المسائل الايديولوجية بالعناية الكاملة من طرف الجميع بصفتها دليل العمل فى المستقبل •

وقد سمحت لى هذه المناقشات الغنية ، باستخلاص بعض الانطباعات عن منطلقاتها ••• ودور ذلك فى الطريقة التى جرى بها النقاش •

وأول انطباع يتبادر الى الذهن هو ان هناك اتجاهين يطغيان على سير كل المناقشات وهما : اتجاه ما يسمى بالرجعية ، واتجاه ما يسمى بالتقدمية •

ويحصر الاتجاه الاول فى الغالب ، فى المتحمسين للتراث العربى الاسلامى ، والاتجاه الثانى فى المتحمسين للفكر الاشتراكى عامة والماركسى منه بصفة خاصة •

ولكن من يتتبع سمات كلا الموقفين متابعة متأنية ، مستبصرة ، لا يجد أى اختلاف أو تناقض بينهما ••• فكلاهما ينطلقان من نظرة شكلية ، رجعية ، منغلقة ، ومغتربة كما يقال •

وبهذا لا يمكنهما ان يحققا النهضة الحضارية فى بلادنا ••• لانهما نبتتان غريبتان عن التربة الوطنية •

ولا أجد تعبيرا أصدق فى وصف كلا الاتجاهين مما ذكره « توينبى » فى كتابه : « الحضارة فى امتحان » ، « ان الطريقتين اللتين يمكن ان يستعملهما فى الدفاع عن نفسه مجتمع صدمته قوة أجنبية ، أى ضغط حضارة أجنبية أقوى منه ، تتلخصان فى طريقة الذى يحاول أن يجد ملاذا وملجأ فى الماضى كما تصنع الزرافة حين تدس رأسها فى التراب حتى لا ترى الصياد الملاحق لها ، وطريقة الذى يجرؤ ويقدم فيتقبل ويتلبس بالدخيل الهاجم عليه » •

ولعل الجامع لهذين الاتجاهين المتناقضين هو وحدة المنهج • واذا عدنا الى المناهج المتبعة فى دراسة التحول الاجتماعى وجدنا منهجين رئيسيين وهما : منهج الحركة والتغير ،

ومنهج الثبات والسكون ، ومنهج هذين الاتجاهين ـ مع الاسـف ـ هو المنهج الثانى · وويل لقوم ـ كما قال أحد الكتاب ـ يكونون اشباح أموات لماض ، أو قرود مسخ حديث.

* * *

فالاتجاه المحسوب على الاسلام ، أو التراث عامة ، رأيناه بهذه المناسبة ، ومناسبات أخرى ، وازاء أى موقف جديد ، يعود دائما بالذاكرة الى الوراء ، بدلا من ان يبعث بالخيال الى الامـــام ·

حقا ان أعظم ما تمتع به الانسان هو « الذاكرة » و « الخيال » · ولكن على أساس ان هذه الذاكرة تثير الخيال كما هو الواقع فى المجتمعات المتحضرة ، لا ان تقــيد من هذا الخيال كما هو الشأن فى المجتمعات المتخلفة · ولسنا ـ طبعا ـ نقصد بهذا اهدار التاريخ، والغاء الذاكرة التاريخية ، فالذاكرة هى الشرط الاساسى لقدرات الخيال · فبدون المعرفة التاريخية والتجارب المتراكمة لا يمكن للانسانية ان تتقدم · وانما ندعو الى أن نحصـر التاريخ والذاكرة فى هذه الحدود ، دون أن يتجاوزها الى خنق الخيال وايقاف التطور ·

ويمكن أن نطلق على هذه النظرة أيضا ، النظرة اللاتاريخية لانها لا تهتم بمـــرور التاريخ ، والزمن لديها ليس بذى قيمة ·

ولعل الانقطاع الذى حصل فى المسيرة الحضارية للشعوب العربية الاسلامية يعود ، فيما يعود اليه ، الى تخلى هذه الشعوب عن ذلك المنهج الديناميكى الخلاق الذى أخذت به فى فترات قوتها ··· منهج الحركة المستمر ، والتغير الدائم ·

ولسنا فى صدد عرض الحالة التى آلت اليها هذه الشعوب فى تلك العصور ، ولكننا فقط نلاحظ استمرار هذه الحالة الى يومنا الحاضر ·

ولنضرب لذلك بعض الامثلـة :

دأبت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية على تنظيم ملتقيات للفكر الاسلامى ، وكانت مواضيعها من الغنى ، والتنوع ، والشمول ، بحيث تعطى صورة عن الاســـلام كما هو فىجوهره عقيدة ، وفكرا ، وحضارة · وكان من النتائج الايجابية لهذه الملتقيات استقطاب الكثير من الشبان والمثقفين الذين كانوا « معقدين » من هذا الجانب ·

لكن البعض من قصيرى النظر اعتبروا هذه الملتقيات غير اسلامية ، وجدول أعمالها خارج موضوع الاسلام ، لانهم حصروا مفهوم الاســلام ـ جهـــلا ـ فى العبادات فقط ، وأهملوا الجانب الآخر منه وهو الجانب الاجتماعى ، أو الدنيوى بشكل عام ·

ويمثل موقفهم من الاشتراكية ـ كما ظهـر بمناسبة مناقشة مشروع الميثـــاق ـ امتدادا لهذه النظرة المحدودة حيث اعتبروا الاشتراكية كفرا ، ودعاتها اعداء للاسلام · كأن الاسلام يزكى الاستغلال ، ويبيح الاضطهاد الاجتماعى ، وهو الذى أتى لتحـرير الانسانية من العبودية الفردية والاجتماعية ·

ونحيل هؤلاء الى المحاضرة القيمة للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية المنشورة فى العدد الماضى من « الأصالة » بعنوان « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ليصححوا معلوماتهم ويعمقوها عن موقف الاسلام من العدالة الاجتماعية ·

وكما نلاحظ فان هذه « الجماعة » تعانى ما يسمى بـ « الاغتراب » على مستويات ثلاثة : على مستوى التراث نفسه بسبب الانقطاع الطويل عنه ، والاكتفاء بالجانب السكونى منه ، وعلى مستوى المجتمع الذى تعيش فيه ، لانقطاعها عن همومه وتطلعاته وعلى مستوى العصر ومشاكله ·

ان المجتمعات الاسلامية تواجه اليوم مشاكل عديدة فى حياتها اليومية ، وليست القضايا المتعلقة بجانب العبادات هى كل هذه المشاكل · فهناك مشاكل سياسية تتعلق بانظمة الحكم الملبية لمطالب الشعب ، ومشاكل التنمية الاقتصادية ، ومشاكل التنظيم الاجتماعى وغير ذلك من المشاكل التى عليها ان تتجاوزها لتلتحق بركب العصر ·

ولكن « الدعاة الاسلاميين » بسبب هذه النظرة الناقصة القاصرة لمفهوم الاسلام ، أهملوا هذه الجوانب الاساسية من حياة المجتمعات الاسلامية ، ومن الدين الاسلامى أيضا ، واكتفوا بترديد مقولات عامة ، مثل : الاسلام نظام كامل ، الاسلام دين ودولة ، الاسلام صالح لكل زمان ومكان ··· الخ ·

وهذا الاسلوب فى الدعوة لا يفيد اطلاقا ، بل قد يضر ، واضر فعلا ، ولعل هذه الصورة المشوهة عن الاسلام التى يحملها البعض تعود بعض مسؤوليتها الى هذا الاسلوب الاجوف ·

ينبغى تجاوز أسلوب العموميات ، والشعارات ، والضجيج الهستيرى ، والعمل على اعطاء مدلولات محددة لها ·

فعندما نقول بأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، فمعنى ذلك ان المبادىء التى نادى بها مثل : الحرية ، العدالة ، الشورى ، الاستقامة ، مبادىء خالدة ، تتماشى مع المنطق السليم الى آماد بعيدة فيما نتصور ، ولكن محتوى هذه المبادىء ، ليس خالدا ، ويجب أن يتغير وفق الحاجات المستجدة للشعوب الاسلامية ·

وعندما ننادى أيضا بمبدا الشورى ونقول ، يجب أن يطبق كما طبق فى تاريخ الاسلام نقول : لا ، لان الطريقة التى طبق بها ابتداء من عهد أبى بكر فات أوانها · لذلك يجب أن نعطى لهذا المبدأ محتوى جديدا يتفق وتعقد الحياة العصرية وتشعبها ·

وعندما نطالب بضرورة الاستفادة بما فى تراثنا من فكر علمى ، فليس معناه تطبيق نظريات علمائنا الاقدمين التى قد تكون غير مفيدة الآن · ولكن المهم فى هذا هو الاستفادة من المنهج الذى استرشدوا به فى بحوثهم ·

ولا بأس فى هذا ، بـل ومن الضرورى ، ان نستفيد من تجـارب غيرنا الناجحة . والمسلمون الاولون فى تصديهم لمشاكل تنظـيم الدولة الاسلامية واقامـة مؤسساتها استفادوا الى أبعد الحدود من شرائع الامم التى جاورتهم .

ان حركة التصنيع والعلوم والتكنولوجيا وكل القوى التى تعمل فى تكييف مصـير المجتمع الانسانى لم تعد محصورة فى رقعة ضيقة من الارض ، بل أصبح مفعولها ينتشر بسرعة مدهشة بفضل المواصلات الحديثة . ومعنى ذلك انه لا يمكن لاية ثقافة أو حضارة أن تنحصر رؤية وفعلا ، ولا تتسع الى آفاق العالمية الشاملة .

* * *

أما قضية المعاصرة ، أو التقدمية ، أو غير ذلك من التعابير المشابهة المثارة الآن بصفة خاصة ، فتستخدم عادة فى مجتمعنا استخداما شكليا لا يرتجى منها نفـع ، وهى فى النتيجة دعوة الى الاندماج فى الغير ، والاكتساء من لباسه ، والتنفس بانفاسه . وهذا تعطيل للكيان الذاتى وتجميد لحركة التاريخ واختيار للسهل الجاهز من الامور .

واذا طبقنا المقياس الاجتماعى فى التحليل ادرجنا هواة الشعارت التقدمية ضمـن هذه العناصر الرجعية المغتربة فى مجتمعنا ، لانه فى ظل هذا الاستلاب ، تفقد اللغة دقتها كرموز للواقع بكل عناصره واجزائه ، لتحل اللفظية محل الاشياء ، والشعارات محـل المحتوى الفكرى المبنى على واقع محدد .

ان المقابل الحقيقى للاغتراب هو امتلاك الذات أى شعور الفرد أو الجماعة بامتلاكهما لذاتهما . ويرى المفكر الفرنسى « غارودى » ان مقابل الاغتراب هو الابداع : « أى وعـى الفرد لذاته ، من حيث هو حرية ، مستقلة ، تقوى على الفعل ، وتقرير المصير فى اطـار تاريخـى خـاص » .

وهكذا فان الابداع الحقيقى يتم فقط، بدأ من امتلاك الذات.وكنا نتمنى من هذه الجماعة « التقدمية » التى ترفع لواء الماركسية ان تدرس الماركسية بعمق ، لتستفيد بعد ذلك من منهجها الجدلى ، وتدرس به تاريخ ، وحضارة ، وثقافة مجتمعها . ـ كما فعـل غيرهم ـ لتبدع على أساس ذلك . ولو فعلت ذلك لما وقعت فى هذا المنطق الشكلى (اما ، واما) ، ولا انتفى هذا التقابل ، وزالت هذه الثنائية . لان وضع التقابل بين التطور والتقليد ، الماضى والحاضر ، والاصالة والمعاصرة أى كشيئين متعارضين يتنافى مع المنهج الجـدلى ـ الذى من المفروض انهم يستخدمونه بحكم انتمائهم اليه ـ وبهذا يكـون من المنطقى أن تكون أوروبا الزراعية القديمة مثلا ، امتدادا متطورا لاوروبا الصناعية الحديثة .

اذن كل جديد ينبع من القديم ، والجديد يصبح قديما نتيجة تجاوز يقع من داخله ، وهكذا ، حسب الحركة الجـدلية .

والآية القرآنية ادق اذ تعبر عن هذا الجدل : « يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحـي ... » الآية .

ويعبر عنه ابن قتيبة قائلا : « كل أدب بالاضافة الى ما قبله جديد ، وبالاضافة الى ما بعده قديم » ٠

واما قولهم فى ميدان المعرفة بأن العلوم وحدها هى التى بامكانها معرفة الحقيقة وان لا وجود لغير المادة ـ فهذه نظرية مرفوضة حتى من الماركسية نفسها التى ترى فيها نزعة وضعية تجزيئية معادية لكل تصور عام ، متكامل ، للكون والانسان ، ومناهضة للفلسفة .

ونرى ان العقلانية أو التفكير العلمى لا يتنافى مع بعد آخر وهو ذلك الذى يربط ما بين الانسان والكون ٠

وتاريخ العلم حافل بمشاهير العلماء الذين لم يمنعهم تدينهم ، من أن يكونوا عباقرة كبار أثروا فى عصرهم وفى غير عصرهم ايما تأثير ٠

وانجلز نفسه يقول فى رسالة بعث بها الى أحد معاصريه يسمى « بلوخ » بتاريخ 1890/9/12 :

« لقد كنا ، ماركس ، وأنا ، مسؤولين جزئيا ، عن تركيز الشباب على الجانب الاقتصادى تركيزا أكثر مما يستحق ٠ لقد كان لابد لنا نحن من أن نركز على المبدا الاساسى فى مواجهة معارضينا الذين ينكرونه ، ولم يكن يتوافر لنا دائما الوقت ، والمكان ، والفرصة المناسبة لنسمح للعناصر الاخرى بالتدخل فى التأثير المتبادل بالقدر الذى تستحقه » ٠

وكما هو واضح من هذا النص ، فان التركيز على الجانب الاقتصادى أو المادى كعامل وحيد فى عملية التطور كان مبالغة مقصودة ، وأن التقدم ينبع من تأثير الافكار أيضا ٠ لهذا كانت العلاقة بين الفكر والواقع المادى ، علاقة تأثير متبادل ، أى علاقة جدلية ٠

* * *

يتبين لنا من هذا كله ان فشل الفريقين يكمن فى عيب المنهج الشكلى السكونى الذى استخدماه بوعى أو بدون وعى ٠ والذى أدى ـ كما رأينا ـ الى شل التفكير ، والخضوع للتقليد ٠

ولتحقيق الثورة على صعيد الفكر والثقافة ، نرى ضرورة ارتكازها على قيمنا الاساسية أولا ، وعلى ابداعنا القائم على أساس تلك القيم ، وعلى المركب المتناسق الناتج عن ذلك الجهد والابداع ثالثا ، تجمع بينها جميعا علاقة جدلية ٠

ان الاسلام بالمفهوم التقدمى الاصيل ـ لا كما يصوره الرجعيون المنغلقون ، ولا العملاء الحضاريون ـ كما يسميهم أحد الكتاب يمثل الاطار الاعم لتراثنا الفكرى والثقافى عامة ، كما يمثل المجال الطبيعى لعملية الابداع التى ندعو اليها ، دون ان يمنعنا ذلك من الاستفادة القصوى من كل التجارب الانسانية الناجحة ، فى أى ميدان ، ومن أية جهة كانت ٠

المجاعة بالجزائر

أواخر عقد الستينات من القرن 19 ومواقف وآراء الجزائريين من ادعاءات الفرنسيين حول أسبابها

يحيى بوعزيز

تعرضت الجزائر خلال عهد الامبراطورية الفرنسية الثانية الى احداث سياسية واقتصادية واجتماعية مؤلمة نظرا لسياسة القسوة التى اتبعها الفرنسيون تجاه الجزائريين ، ولتوالى النكبات والكوارث الطبيعية على البلاد ، مما حول الجزائريين الى طبقة محرومة وبائسة ، وجعلهم أحيانا يلتجئون الى العنف كوسيلة لمواجهة تلك السياسة .

أ ـ النكبات الطبيعية :

ان العمليات العسكرية التى شنها الجيش الفرنسى على بلاد القبائل عام 1857 نتج عنها فقدان السكان لاستقلالهم السياسى وتحطيم انتاجهم الفلاحى والزراعى ، وتخريب

(*) هذا المقال عبارة عن فقرة من الفصل الاول من الباب الاول من دراستنا الجامعية عن ثورة المقرانى والحداد عام 1871 .

صناعاتهم التقليدية والقضاء على أسواقهم التجارية وهلاك حيواناتهم · وبالاضافة الى ذلك فقد أدت الى فرض غرامات حرب وضرائب باهضة كانت فوق طاقة السكان (1)

وكان من المتوقع أن يكون عقد الستينات فترة نقاهة لهم بسبب السياسة الجديدة التى حاول نابليون أن يتبعها · ولكن سرعان ما فاجأتهم وتوالت عليهم النكبات والكوارث الطبيعية والاقتصادية أواخر الستينات كالجراد ، والجفاف ، والمجاعة ، والامراض ، والاوبئة ·

ففى عام 1864 بدأت افواج الجراد تغزو البلاد من كل صوب ، واتخذت شكلا خطيرا فى مطلع عام 1866 الذى دعى « بعام الجراد » وعبرت فى شهر أبريل جبال الاطلس من الجنوب الى حقول الشمال ومزارعه ، والتهمت كل ما وجدته من الخضرة والثمار ، ففقد الناس انتاجهم وتعرضوا لضائقة مادية شديدة وكان أكثر المتضررين هم الجزائريون أما الاوروبيون فكانت الازمة خفيفة عليهم لتوفر وسائل الوقاية لديهم والامكانيات المادية الاخرى ·

ولقد ادعى الاب بورزى بان « العرب لم يقاوموا الجراد ، وعندما سالناهم عن سبب ذلك قالوا بأن الله الذى بعثه هو الذى سيطرده » (2) وهى دعوة غريبة لا تستند على أساس مقبول ، لان بورزى يريد أن يتهم الجزائريين بالقدرية والتواكل ليبرر بعد ذلك وصفهم بالتخلف الفكرى والذهنى ، وهى تهمة لا تخلو من النزعة الاستعمارية · ثم ان الامر يتعلق بمصدر العيش ، ومن الصعب على شخص أو أسرة تعتمد فى حياتها على انتاج حقل او ضيعة أن تهملها وتتركها لرحمة الجراد ·

وقد بقى خطر الجراد يتجدد كل عام تقريبا ، ولذلك نجد الدكتور فيتال يشير اليه فى كثير من رسائله الى اسماعيل أوربان (3) · وفى عامى 1869 و 1870 عاود الجراد

(1) Robin : *L'Insurrection.* pp. 25 -27.

(2) L'Abbé Burzet : *Histoire des désastres de l'Algérie* 1866, 1867, 1868 (Alger 1868, pp. 12-30.

3) فقد قال فى رسالة 13 أبريل 1867 : « اننا فى غزوة كبيرة ، لكن ليس ضد سى الاعلى هذه المرة . وانما ضد الجراد » · وقال فى رسالة 13 جويلية : « ان الجراد يزحف باعداد كبيرة جنوب باتنة » · أنظر نوشى ص 217 ــ 218 و 286 ·

الهجوم على البلاد ، وخاصة منطقة حكم المقرانى بمجانة التى اتلف فيها محصولات الفلاحين ، فزاد من بؤسهم الاقتصادى والاجتماعى بالاضافة الى المجاعة والاوبئة . واضطر المقرانى بسبب ذلك الى أخذ قروض من البنوك والسماسرة اليهود بأرباح عالية ليساعد بها الفلاحين على توفير حبوب البذر (4) . وهذا الاقتراض هو الذى سيورثه مشاكل وصعوبات أواخر عام 1870 كما سيأتى .

وبينما الاهالى يعانون من اخطار الجراد ، حدثت زلازل فى البليدة وقرى متيجة فى مطلع عام 1867 ، (5) وانتشر مرض الكوليرا والتيفوس . فقد ظهر مرض الكوليرا عام 1866 بشكل محدود ، واشتد خطره عام 1867 وانتشر فى البلاد بواسطة بعض المسافرين الذين قدموا من الخارج عن طريق الموانى . (6) وعانى منه الجزائريون لانعدام وسائل الوقاية الصحية لديهم ، وسوء حالتهم الاقتصادية والمعاشية ، وعدم اهتمام السلطات الفرنسية بمقاومته الا فى اوساط الاوروبيين الذين كانت حالتهم الاقتصادية حسنة ، والوقاية الصحية متوفرة لديهم . (7)

ومع انتشار الكوليرا ، فشا ايضا مرض التيفوس ، فاخذ الجزائريون يموتون بالجملة فى القرى والطرقات العامة حتى أرغمت السلطات الفرنسية السكان على حفر خنادق عميقة لدفن الموتى . وذكر الاب بورزى بانه « يصعب تقدير عدد الموتى والضحايا ، ولكن مجموع الذين ماتوا خلال شهرين فقط ، مائتان وخمسون الف شخص » . (8)

وأشار الدكتور فيتال فى عدد من رسائله الى ما كان يعانيه الجزائريون من ذلك فقال فى رسالة 9 جويلية 1867 « انه لم تبق الا الاشياء المحزنة ماثلة أمام الاعين ، كالعطش

---

(4) Rinn : *Histoire*. pp. 50 - 51.

(5) Burzet : pp. 43 - 42.

6) نقل بورزى فى (ص 55 ــ 68) عن تقرير لاحد الرهبان بأن هذا المرض حدث نتيجة لانتشار رائحة الجراد عام 1866 التى نقلتها الرياح الى المناطق الآهلة . وهى دعوة غريبة لان رائحة الجراد لا تبقى عاما كاملا . أمارين فنذكر فى تاريخه (ص 50 ــ 51) أن المرض وصل الى الجزائر من تونس .

(7) Burzet : pp. 58 - 65.

8) نفس المصدر ص 55 ــ 68 .

والجوع ، والتعاسة ، والامراض ، والاهـــالى يموتون بالجملة فى السمندو ، والعلمة ، وعدة جهات أخـرى من جـراء الكوليرا ، والتيفوس المتفشيين بسبب المجاعـة ، (9) • وروى روبين «أن ضحايا الكوليرا فى منطقة دللس وحدها بلغوا عشرة آلاف شخص» (10).

والى جانب مرض الكوليرا والتيفوس ، كثر القحط والجفاف ، وقلت من ثم المحصولات الزراعية والغذائية • فمنذ عام 1865 والمطر يشح ولا ينزل الا بمقدار ، وفى أيـــام قليلة من الشتاء • ودام هذا القحط ثلاث سنوات وخاصة عام 1867 الذى قلت فيـــه حتى مياه الشرب والسقى ، وجفت الينابيع فى الصيف ، واشتد البـرد فى الشتاء • فيبست الحشائش وماتت المواشى خاصة فى الهضاب العليا • وتفشت من جـراء ذلك المجاعة فى البلاد حتى أصبح الناس يؤرخون بها ويقولون حدث ذلك « عام الشر » (11) وعم غلاء المواد الغذائية لدرجة اثارت دهشة الدكتور فيتال الذى حكى فى رسالة 25 جوان 1867 : « بان سعر القمح بلغ أكثر من مائة فرنك للصاع الواحد وسعر الشعير بلغ خمسة وأربعين فرنكا للصاع فى حين كان يباع عند الحرث بسعر ستـة وعشرين فرنكا للقنطار فى السوق » ، وقال : « بأن هذا لم يحدث أبدا من قبل ونتج عنه تصاعد المجاعة وموت الناس بالجملة » (12) •

ومند شهر نوفمبر أصبح الاهالى فى ضيق شديد • اذ استنفدوا ما عندهم من المواد الغذائية ، وباعوا ما بقى من حيواناتهم التى نجت من الموت بأبخس الاثمان وأخـــذ سكان الهضاب العليا يهاجرون افواجا وجماعات الى اقليم التل بحثا عن الطعام ، وأكل الكثير منهم جذور الحشائش وأوراق الاشجار ، والحيات ، والكلاب (13) • بل ان البعض

9) وذكر فى رسالة 16 جويلية « بان الكوليرا ظهرت فى جهـــات المسيلة ، وعنـابة ، وسكيكدة ، والعلمة » • كما ذكر فى رسالة 30 من نفس الشهر « بأن هناك أكثر من ألــف أهلى ماتوا من الكوليرا فى بسكرة مـــا بين 15 و 30 جويلية ، ومنها انتشرت الى الجنـوب وأصبحت ورقلة وسوف مهددة » أنظر نوشى : ص 213 ـ 215 •

(10) Robin : *L'Insurrection*. pp. 25 - 27.
(11) Rinn : *Histoire*. pp. 50 - 51.
(12) Hoschi : pp. 210 - 211.
(13) *La famine en Algérie*. pp. 22 - 24.

منهم نبشوا القبور وأكلوا جثث الموتى وادعى أحد الكتاب بأنهم أكلوا حتى الاحياء من البشر (14) ٠

وأقدم بعض الاهالى على ارتكاب جرائم القتل والسرقات ، حتى يلقى عليهم القبض فيضمنوا لقمة العيش اليومى داخل السجون والمعتقلات ٠ وعندما كثـر ازدحامهم فى الطرقات والساحات العامة بقرى ومدن الشمال ، بحثا عما يسد الرمق ، فى المـزابل وأكوام القمامة ، تصايح الاوروبيون وطلبوا من السلطات الحاكمة أن تطردهم بدعوى انهم كانوا يهددون الامن والصحة العامة (15) ٠

وقد أكد الحاكم العام ماكماهون عندئذ « بأن سكان التل الذين توجه اليهم هـؤلاء المنكوبون ، كانوا أيضا فى ضيق وكرب لقلة مردود انتاجهم الفلاحى » وأضاف قائلا : « انى طلبت من السلطات المدنية أن تقدم المساعدات لهم ، ولكن الاوروبيين خافـوا أن تصيبهم الامـراض ، وذلك اعطيت الاوامـر لضباط الجيش لانشاء محتشدات لهـم فى مليانة ، والاصنام ، وغليزان حشد فيها حوالى خمسمائة وأربعين ألف شخص » (16) ٠ والواقع أن هذه الاماكن كانت عبارة عن محتشدات عسكرية جمع فيها الاهالى لا من أجل اسعافهم ، وانما لتوفير الامـن للاوروبيين (17) ٠ وأورد كـل من بورزى ، وشـارل كوفى (18) أمثلة كثيرة لمظاهر المجاعة فى عدة أماكن من البلاد بأرقام وتواريخ محددة تثبت أن ضحاياها كانوا لا يقلون عن ثلاثمائة ألـف شخص بينما أوصلهم البعض الى ضعف هذا العدد (19) ٠

ففى عمالة قسنطينة مات مائة وستون ألف شخص (20) ٠ ونقل بورزى عن اسقف مدينة الجزائر أن عدد الموتى قد بلغ مائة ألف شخص فى عمالة الجزائر ، وانه خـلال

(14) Julien : pp. 439 - 440.

15) هكذا يذكر بورزى فى كتابه (ص 71 ــ 72) وما بعدها ، مضيفا « بـأن الجائعين تحولوا الى لصوص وقطاع طرق للنهب والسلب والسرقة » ٠

(16) Le maréchal Mac-Mahon : *Mémoire du maréchal Mac-Mahon duc de Magenta.* (Paris 1932) pp. 328 - 330.

(17) Mercier : *L'Algérie.* pp. 56 -58.

(18) Charles Cuvier : *Compte rendu des dons reçu des victimes de la famine en Algérie.* (Strasbourg 6/05/1868) pp. 1 - 2.

(19) Martin : pp. 138 - 184.

(20) *La famine :* pp. 22 - 24.

شهرين فقط مات تسعة عشر الفا (21) · وتجاوز عدد الموتى فى عمالة وهران مائـــة ألف شخص (22) ·

وحسبت رأى جول فافر فان عدد السكان الجزائريين نقص بمقدار الربع خلال عشر سنوات ، وذلك نتيجة للبطء المستمر فى عدد المواليد منذ الاحتلال من جهة ، ولنقص المحصولات الزراعية والفلاحية خلال سنوات الجفاف من جهة أخرى · وقدر نقصهم عام 1871 باربعمائة ألف شخص (23) ·

وبينما كان الاهالى يتناقصون على النحو الذى ذكرنا ، كان عدد الاوروبيين فى تـزايد مستمر ، فقد كانوا يعدون 220 ألف عام 1861 فارتفعوا الى 272 ألف عام 1872 ، وذلك راجع لعدم تأثرهم بالازمة لانهم كانوا يملكون الاراضى الجيدة والمسقية فى المناطق الساحلية كثيرة الامطار ، ولديهم مدخرات كافية من الحبوب الغذائية وقت الازمة (24) ·

ومن مظاهر هذه المجاعة أن الفلاحين الجزائرين عجزوا عن توفير حبوب البذر لفلاحة أراضيهم ، ولم تبــذل السلطات الرسمية على ما يظهر المجهودات اللازمة لمساعدتهم ، واكتفت بتوجيه نداء لرؤساء العائلات الجزائرية الغنية كى يقدموا تسبيقات لصغـــار الفلاحين ، ومنهم المقرانى (25) ·

وقد استغل اليهود المجاعة عامى 1868 و 1869 ، لتنمية ثرواتهم وأرباحهم عـــن طريق القروض التى كانوا يقدمونها للمنكوبين بفوائد وأرباح عالية تتراوح بين أربعين ومائة فى المائة لمدة شهرين أو ثلاثة فقط من العــام مما جعــل الكثيرين من الجزائريين يفقدون فى نهاية الامر املاكهم ويتحولون الى عمال بالخماسة · وقد أورد السيد بيدولت طرائف فى هذا الموضوع ، وزاد قائلا : « بان الجزائريين حتى عندما تخصب أراضيهم ، ويرتفع مردودها ، فان السماسرة اليهود ، والمعمرين ، يتدخلون لخفض اسعار حبوبهم بنسبة عشرين الى ثلاثين بالمائة » (26) ، حتى لا يكونوا مصدر منافسة لهم ، وهذا مـا

(21) Burzet : pp. 71 - 104.
(22) *L'Algérie au point de vue.* pp. 9 - 49 et suivante.
(23) Jules Favre : pp. 23 - 24 et 29 - 31.
(24) A. Nouschi, A. Prenant et Lacoste : *L'Algérie passé et présent.* (Paris 1960) pp. 372 - 375.
(25) Louis Vignon : *La France en Algérie.* (Paris 1893) pp. 357 - 359.
(26) Bidoult : pp. 67 - 68, 84 - 85 et 95 - 98

جعل الحاكم العام ماكماهون يؤكد « ان رؤساء الاهالى دفعوا كل ثرواتهم التى استردوها من صغار الفلاحين ، الى السماسرة اليهود أرباحا (فاحشة) عن القروض التى أخذوها منهم » (27) ٠

وقد تكون شهادة النواب الجزائريين أكثر وضوحا فى هذا الميدان ٠ فقد أجاب حسن بن بريهمات ، والمكى بن باديس ، وأحمد ولد القاضى ، لجنة التحقيق التى استفسرتهم عن أسباب مجاعة عام 1869 فقالوا : « ٠٠٠ نعم كان فى السالف كثير من الفلاحين يكون عندهم الفاضل فى الزرع عن قدر كفايتهم فيحفظونه فى المطامير ، ويجرونه وقت المسغبة ليدفعوا المضرة ٠ ولما حل بهم غلو السعر فى كراء الارض الدومينية (28) وغيرها من الزيادة فى المغرم وصارت الحاجة تدعوهم الى قرض الدراهم بالفائدة المضرة كستين فى المائة ونحو ذلك ممن انتصب لذلك ولم يرحم خلق الله ، كما تدعوهم الحاجة الى بيع الزرع والصوف قبل أوانها بأقل من تصف القيمة فصار الزرع الذى يحصلونه فى المصيف يخرج كله من ايديهم فى الشأن المذكور ولم يبق بايديهم فاضل يدخرونه (29) ٠

والحقيقة أن تجارة اليهود وسعيهم وراء الارباح الباهضة ليس بالشىء الجديد فى الجزائر ، فقد أوضح ذلك أحد الاوروبيين بوهران فى رسالة له الى نابليون يوم 15 ماى 1865 قائلا : « وأحيط جلالتكم علما بأن الشعب الاهلى لعمالة وهران يدفع لصالح (ربا) اليهود مبلغا يساوى أربعة اضعاف ما يدفعونه لفرنسا بعنوان (الضرائب) (30) ، ولعل هذا هو الذى حمل دوكوس على القول ، وهو يرد على الجنرال دوكرو ، « بأن السبب الحقيقى للثورة هو رغبة رؤساء الاهالى فى التخلص من ديونهم » (31) ٠

وقد زادت الازمة الاقتصادية حدة عندما رفض بنك الجزائر تقديم تسبيقات لجمع المحصولات كما كان معتادا ، واستعجل الدائنون بقسنطينة فى استعادة قروضهم ،

(27) Mac-Mahon : pp. 328 - 330.

28) أى الاراضى المملوكة للبلديات ٠

(29) A.N.P. Carton F 80 - 1704.
(30) Pique : pp. 282 - 283.
(31) E. Ducos : *L'Algérie*. Quelques mots de réponse à la brochure la vérité sur l'Algérie, par le général Ducret (Paris 1871) pp. 2 - 14.

وخاصة من المقراني ، ولكن المدينين كانوا عاجزين عن الدفع نتيجة الازمة التي أحدثت سخطا واسعا في كثير من الجهات وخاصة منطقة المقراني حيث أصبح الشك في المستقبل خلال صيف عام 1870 ، يمثل « حالة من اليأس تقريبا » كما عبر عنها جليان (32) ٠

وحسب رأي نوشي وزميليه فان السلطات المدنية حاولت أن تجعل هذه الازمة الاقتصادية سببا في الثورة التي لاحت بوادر الاستعداد لها في الاسواق العامة خلال الشهور الثلاثة الاولى لعام 1871 (33) ٠ في حين أدعى البعض بأنها حدثت بسبب كسل الجزائريين الفطري عن العمل ، ولذلك لا يمكن ولا ينبغي مساعدتهم (34) ٠ وأيده في ذلك السيد أوجان لونيل (35) ٠ وهذا يوضح مدى الاحتقار الذي يكنه هؤلاء الكتاب نحو الجزائريين ٠

ان هذه الازمة الاقتصادية شاركت في تحطيم ثروة المقراني وعرضته الى الافلاس ، وجعلته يفقد الامل في السلطة المدنية الجديدة ٠ ولئن لم تكن هي السبب المباشر في دفعه الى الثورة ، فانها حفزته على أن يفكر فيها ويستعد لها كآخر وسيلة للتخلص من مصاعبه الكثيرة اداريا ، وسياسيا ، وماديا ، لان هذه السلطة المدنية الجديدة رفضت أن تعامله كما كان على عهد الامبراطورية ، أو على الاقل ، لم يستطع هو أن ينسجم مع سياستها الجديدة ٠

المدخل الى الوثائق :

وثائقنا في هذه الدراسة تشتمل في أجوبة النواب الجزائريين الثلاثة : حسن ابن بريهمات عن مقاطعة الجزائر ، والمكي بن باديس عن مقاطعة قسنطينة ، وأحمد ولد القاضي عن مقاطعة وهران ، عن أسئلة لجنة التحقيق التي الفتها حكومة الامبراطور نابليون الثالث يوم 5 ماي 1869 برئاسة الماريشال راندون ، لبحث أوضاع الجزائر ، ومشاكلها الاقتصادية والاجتماعية ، والادارية ٠

فقد وجهت هذه اللجنة خمسة اسئلة مكتوبة الى أولئك النواب الجزائريين ، فاجابوا

(32) Julien : pp. 453 - 454.
(33) Nouschi, A. Prenant et Lacoste. pp. 375 - 376.
(34) *La famine :* pp. 22 - 24.
(35) Lunet : pp. 50, 84 - 85 et 95.

عنها كتابة فى خمس صفحات من القطع الكبير ، توسعوا فيها فى شرح كثير من اوضاع الجزائر الاقتصادية ، والاجتماعية ، والادارية ، وتتسم أجوبتهم بكثير من الجرأة ، والشجاعة ، والصراحة ، ويظهر أنهم سافروا الى باريس ليحرروا اسئلتهم هناك بعيدا عن ضغط المعمرين ، وذلك يتضح من آخر الاجوبة حيث قالوا : « بتاريخ الثانى والعشرين من دجنبر سنة 1869 بباريس » .

فقد رفضوا أن يكون سبب المجاعة هو جهل الجزائريين بأمور الفلاحة ، ونددوا ضمنيا بممارسة اليهود للربا الفاحش ضد الجزائريين . واستنكروا محاولة تقسيم أراضى الاعراش ، أو بيعها للاوروبيين ، لان ذلك يؤدى الى تشتيت الاسرة الجزائرية . ولم يحبذوا اختلاط الجزائريين بالاوروبيين لحيثيات مهذبة تدل على حذقهم وتحرزهم . ونددوا بنظام البلديات الذى لا يخدم الا مصالح الاوروبيين فى حين أن الجزائريين هم الذين يمونونه ماديا ، ووضحوا بجلاء كيف أن شيخ البلدية الاوروبى لا يهتم اطلاقا بمصالح الجزائريين ، وأن القضية التى يمكن انجازها فى ظرف ساعة ، بمكتب البلدية يبقى صاحبها الجزائرى يتردد عليه أياما وأسابيع ، وتبقى تلك القضية معلقة تلف وتدور .

ووضحوا كذلك أن التحقيق الذى اجرته لجنة الكونت لوهون عام 1868 ، عن الوضع الفلاحى بالجزائر ، لم يطلع عليه الا اقلية صغيرة من الجزائريين ، وان الاوروبيين تجاوزوا الحد فى آرائهم امام تلك اللجنة لدرجة انهم حاولوا ان ينالوا من كرامة الشريعة الاسلامية ، وحاولوا ان يعطوا تقييما لكيفية استخلاص الضرائب من الجزائريين ، ومدحوا فى الاخير نظام المكاتب العربية التى نعتوها « بالمحاكم العربية » ، وختموا اجوبتهم بمدح الامبراطور نابوليون الثالث .

ان اسئلة هذه اللجنة ، واجوبة هؤلاء النواب الجزائريين تنشر لأول مرة فى هذه الدراسة ، وسنترك المجال للقارىء ليطلع بنفسه على نصوصها ، ويشاهد اصولها الفوتوغرافية وفقا للامانة التاريخية ، وذلك فى الصفحات التالية :

الوثيقة الاولى :

نص اسئلة لجنة التحقيق الى النواب الجزائريين حول اسباب المجاعة وأشياء اخرى عام 1869

الحمد لله (36) ، هذه أسئلة برزت من جماعة الكمسيون المنتصب بباريس لتاسيس أحوال الاقليم الجزائرى الى الاشخاص القايمين هناك مقام عرب الاقليم المذكور .

السؤال الاول :

ان المجاعة الواقعة التى مات بسببها كثير من العرب أتظنون ان لو كانت الارض محروثة حراثة متقنة او كانت مطامير الزرع معدة لوقت الحاجة لكانت تلك المجاعة اضعف مما وقعت . ولا يمكن اتقان الحرث الا بمشاهدة من هو اهل لذلك وباتخاذ الآلات التى تصلح لذلك،ولا يحصل ذلك الا بمجاورة الاوروبيين،فكيف بكم تجنبتموهم.

السؤال الثانى :

الم يقع وقت اقتسام الارض للحرث عند شروع الناس فيه الظلم احيانا ، اما ان القايد والشيخ يختارون بعض الارض الجيدة لانفسهم او يخصصون بها اقاربهم ويحرمون منها بعض ضعفاء اهل محلتهم ولا يخفى عنكم ان هاذا الفعل ظلم والخلاص منه صعب فلو ان كل شخص يستقل بملكه لأمكنته المدافعة على حقوقه فلا يقع عليه ظلم وهناك فائدة عظيمة فى استقلال كل واحد بملكه لان بذلك تتقن حراثة الارض وتحيى ابوارها وغير خاف عنكم لانه يجد ويجتهد فى ترتيب احواله ويسعى فى كل ما يجلب الخير والغنى له ولعيلته وبسبب ذلك لا تخشى العيلة ضياعا ولا تشتيتا بل العيلة تنمو ويكثر خيرها وفى ذالك فائدة للعرب .

السؤال الثالث :

أتظنون ان العرب يختارون اداء مغرم معين محدود مبنى على حسب الرتبة الوسطة من مغارم السنين الماضية ويكون ذلك المغرم عاما لارض الحراثة وارض المرعى ويبطل مغرم ــ الحكر ــ والزكوة والعشر التى امرها صعب فى الضبط لها والقيام بخدمتها .

36) أرشيف باريس الوطنى ، صندوق : A.N.P. Carton F 80 - 1704

[illegible]

الحمد لله هاذه اسيلة برزت من جماعة الكمسيون المنتصب بباريز لتاسيس احوال الاقليم الجاري الى الاشخاص الفلاحين هنالك معلوم عن الاقليم المذكور

السوال الاول

ان الجماعة الواقعة التي مات بسببها كثير من العرب اتظنون ان لو كانت الارض محروثة حراثة متقنة او كانت مطامير الزرع معدة لوقت الحاجة لكانت تلك الجماعة اضعف مما وقعت . ولا يمكن اتقان الحرث الا بمشاهدة من هو اهل لذالك وباتخاذ الالات التي تصلح لذلك ولا يحصل ذالك الا بجوار الاروبيين فكيف بكم تفعلون

السوال الثاني

الم يقع وقت اقتسام الارض للحرث عند شروع الناس فيه الظلم احيانا اما ان القايد والشيخ يختارون بعض الارض الجيدة لانفسهم او يخصصون بها اقاربهم ويحرمون منها بعض ضعفاء اهل غلتهم ولا يخفى عنكم ان هذا الفعل ظلم والخلاص منه صعب فلو ان كل شخص يستغل ملكه لامكنته المدافعة على حقوقه ولكن فلا يقع عليه ظلم وهناك فايدة عظيمة في استغلال كل واحد بملكه لان بذالك تتقن حراثة الارض وتحيى ابوارها وغير خاف عنكم ان من يخدم لنفسه ولاولاده يجلب المنفعة اكثر من غيره لانه يجد ويجتهد في ترتيب احواله ويسعى في كل ما يجلب الخير والغنى له ولعيلته وبسبب ذالك لا تخشى العيلة ضياعا ولا تفترق بل العيلة تنمو ويكثر خيرها وفي ذالك فايدة للعرب

السوال الثالث

اتظنون ان العرب يختارون اداء مغرم معين محدود

F80 1704

الشكل رقم 1 ـ الصفحة الأولى من أسئلة لجنة التحقيق إلى النواب الجزائريين

مبني على حسب الرتبة الوسطة من مقادير السنين
الماضية ويكون ذلك المغرم عاما لارض الحراثة وارض
المرعى ويبطل كل مغرم الحكم والزكوة والعشر التي امرها
صعب في الضبط لها والقيام بجمع منها

السؤال الرابع

هل الامر السلطاني البارز في ترتيب الحكومة باراضي العرب
محبوب ام لا وهل فيه فائدة ومنفعة للعرب ام لا
وهل يوجد من يشتكي من تلك الحكومة الموجودة الان
وهل ان خدمة البيرو عرب سالكة طريق العدل والاجتهاد
في مصالح الوطن

السؤال الخامس

هل علم العرب بالبحث الواقع في شؤون الفلاحة وهل
عرفوا ما تكلم به الفلاحون الاروبيون في شان ذلك
وهل ارتضاهم ذلك الحال ام لا : هل العرب سكان الاعراش
لهم امان في ان دولة السلطان نابليون لها نية
طيبة معهم .

الشكل رقم 2 — الصفحة الثانية من اسئلة لجنة التحقيق الى النواب الجزائريين

السؤال الرابع :

هل الامر السلطانى البارز فى ترتيب الكمون (37) بأراضى العرب مفهوم ام لا ، وهل فيه فائدة ومنفعة للعرب ام لا ، وهل يوجد من يشتكى من تلك الحكومة الموجودة الآن ، وهل ان خدمة البيروعرب (38) سالكة طريق العدل والاجتهاد فى مصالح الوطن ٠

السؤال الخامس :

هل علم العرب بالبحث الواقع فى شؤون الفلاحة ، وهل عرفوا ما تكلم به الفلاحون الاوروبيون فى شان ذلك ، وهل ارتضاهم ذلك الحال ام لا ٠ هل العرب سكان الاعراش لهم امان فى ان دولة السلطان نابليون لها نية طيبة معهم ٠

الوثيقة الثانية :

نص اجوبة النواب الجزائريين عن اسئلة لجنة التحقيق

الحمد لله رب العالمين (39) الذى يقضى الحق وهو خير الفاصلين ، والصلاة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين ٠

الجواب عن السؤال الاول :

اما كون المجاعة تضعف بسبب اتقان حراثة الارض فلا نسلمه ٠ ونقول ان خدمة الارض المعتادة عند العرب هى التى تناسب غنيهم وفقيرهم ويسهل عليهم القيام بها ٠ وقد كانوا معها على احسن حال منذ قرون عديدة ، واما ادخار الزرع فى المطامير فليس فيه كبير فايدة للعامة لانه لا ينتج منه الا وجود الحبوب فى الوطن وانما تكون فائدة تلك المطامير خصوصية بأربابها ومع هذا فان الزرع الآن لا يضر وجوده لما ان التجار يجلبونه من سائر الاقطار ٠ نعم كان فى السالف كثير الفلاحين يكون عندهم الفاضل فى الزرع عن قدر كفايتهم فيحفظونه فى المطامير ويخرجونه وقت المسغبة ليدفعوا به المضرة ، ولما حل بهم غلو السعر فى كراء الاراضى الدومينية وغيرها مع الزيادة فى

37) الكومون معناها البلدية من الكلمة الفرنسية : la Commune

38) البيرو عرب معناه ٠ المكتب العربى من الكلمة الفرنسية ٠ le Bureau Arabe

39) نفس المصدر ٠

المغرم وصارت الحاجة تدعوهم الى قرض الدراهيم بالفائدة المضرة كستين فى المـــائة ونحو ذلك ممن انتصب لذلك ولم يرحم خلق الله ، كما تدعوهم ايضا الى بيع الـزرع الذى يحصلونه فى المصيف يخرج كله من ايديهم فى الشأن المذكور ولم يبق بايديهـم فاضل يدخرونه ، نعم ان وقع فى المستقبل التزام العامة كل سنة بجمع نصيب مـــن الزرع وادخاره للحاجة اليه ففى ذلك مصلحة عظيمة ، والحاصل ان المسغبة انما تحصل من عدم المطر ويبس الزرع والكلأ واصابته بالبرد والجراد ، ولا يخفى على احد ان الجوائح المذكورة تفسد زرع الحرث المتقن وغيره • وكما ان الجوائح المذكورة اوقعت المسغبـــة بمملكة الجزائر • كذلك اوقعتها بالمملكة المراكشية والتونسية غير انها كانت فى اراضى السواحل من الاقاليم الثلاثة اخف ضررا واقل موتا لما ان اراضى السواحل اصابها بعض المطر مع جودتها ووجود الماء المعدنى ببعضها وكونها مصب الاودية مع ان الجراد لم يصبها الا قليلا وكان ضرره بالاراضى الموالية للصحراء فما بعدها لانه يكون اشد ضررا فى ابتداء امره وما وصل الى سواحل مملكة الجزائر الا بعد ان كان العرب والعساكر قتلوا جلـه ، (حسن بن بريهمات ـ احمد ولد القاضى ـ المكى بن باديس) ، واما كون اتقان الحـــرث لا يعرف الا بمشاهدة صاحب المعرفة وباتخاذ الآلات المعدة له فلا نزاع فيه غير انـــه لا يعسر تحصيل ذالك لمن اراده من الفلاحين لان الشخص اذا حصل له داع لشىء موجود بوطنه ولو مع البعد فان داعيه يوصله الى غرضه،واما مجاورة الاروباويين فانها لا تناسب الآن العرب الذين هم جهلة بالاحوال التى تنبغى فى معاشرة الاروباويين وغلاظ الطبـع وعادتهم اهمال المواشى والمجاوزة عن بعضهم فى ذلك وفى الرعى فى اراضى بعضهم بعضا وغير ذلك من العوائد الجارية بالرفق والمعاملة فيما بينهم • فينبغى لهؤلاء ان تـــكون ارضهم متصلة ببعضها وغير مختلطة باراضى الاجانب وان يبقوا على حالهم الى ان تكبـر اولادهم المنتقلون الآن من المكاتب المدارس الابتدائية الى المدارس السلطانية بالمملكـــة الجزائرية ثم الى المدارس الحربية والصناعية بافرنسه فاذ ذاك يتم المراد ويسهـــــل الاختـلاط وتحسن المجـــاورة • اهـ •

الجـواب عن السؤال الثـانى :

اما قسم الارض المشاعة بين سكان العرش وقت الحراثة فغالب الظن انه لم يكـــن

لان المعروف فى الوطن ان لكل عيلــة نصيباً من الارض تتصرف فيه كما كان سلفها قبلها ، وأما تعدى القواد والمشايخ لمنفعة أنفسهم أو لمنفعة الغير فلا يكــون الا نادرا ، ومهمى انتهى الخبر الى الحاكم ازال المظلمة وعاقب فاعلها بما يناسبه · واما ما ذكـر فى السؤال من قوله فلو أن كل شخص يستقل بملكه لامكنته المدافعة على حقوقه ··· الخ فلا نزاع فيه غير أنه ان كان المراد بالشخص أصل العيلة أى الاب مع أولاده وأهلــه فلا ضرر فى ذلك ، واما افراد الولد عن أبيه أو الزوجة عن زوجها مثلا فان ذلك يؤدى الى الاضرار بالعيلة وتشتيتها ويؤدى أيضا الى فساد الاراضى وتقسيمها على المنوال الذى لا يمكن معه الانتفاع بها لان القطعة الصغيرة فى أراضى الاعراش لا ينتفع بها لكون عملهم فى الاراضى حرث الزرع أو المرعى ولا يمكنهم غير ذلك لعدم الماء ، وأما افراد ابن العم عن ابن عمه ونحو ذلك فلا بأس به حيث يأخذ حضه لينتفع به لنفسه أو يبيعه لاهــل محلته ، وأما بيعه لنصيبه من أجنبى فيخشى منه الضرر وتشتيت شمل تلك العيلــة والتحفظ على جمع شمل العيلة اولى من مصلحة الفرد · هذا فى أراضى الحــراثة واما أراضى المرعى والاحتطاب فاللائق بالعرب أن تكون أرض كل فرقة من العرش مجموعة لما ذكر من المرعى والاحتطاب ينتفعون فيها مع بعضهم بعضا عـلى سبيل الاشتراك لان اقتسامها وتصييرها قطعا قطعا صغيرة يؤدى الى الهرج بينهم وعدم الانتفاع على الــوجه اللائق ، ولان قسمة ارض المرعى-ربما توجب الاختلاط بارض الحراثة فهذا يحرث حصته وهذا يخليها للرعى وفيه ما لا يخفى من السبب فى الهرج ، ولا تستقيم معيشة أهــل البادية الا اذا كانت حراثتهم على جهة والمرعى على جهة أخرى ، اهـ

الجـواب على الســؤال الثالث :

أما كون العرب يرضون باتحاد المغرم وتبديله واجرائه على حسب مساحات الارض وجنسها بالمراعات للقدر الوسط مما كان يدفعونه من المغارم فى عشر سنــين مضت ، فالذى نظن أن ذلك لا يليق فى جانب العرب كلهم على الاطلاق ، وانما يناسب ذلك فى العمالات السفيلية (40) فقط لقلة الارض مع عمارتها ان كان ذلك برفق مع التــأمل فى الفرق بين حال العرب فى السبع سنين الاولى من العشرة وفى الثلاثة الاخيرة منها ،

40) يعنى : المدنية من الكلمة الفرنسية : Civil

وأما الاعراش المتصرف فيها الحكم العسكرى فلا يناسبهم ذلك لاتساع أرضهم وقلة المنتفع به مع ضعف الماء وفقره وحال أهل الاعراش اليوم من قلة مواشيهم بسبب المسغبة التى مرت عليهم ضعيف • فينبغى لهؤلاء ان يبقى مغرمهم على ما كان عليه اه •

الجـواب عن السـؤال الرابـع :

ان القانون السلطانى البارز فى ترتيب الكمون بأرض العرب فهمه الخواص من الناس فقط ، وأما فائدة العرب فى الكمون فهى شىء تافه • وذلك أن كثير المنافع التى يشتهر فيها المير (41) ، والديوان هى المنافع التى يحتاج اليها الاوروباويين ، وأما منافع المسلمين فلا يلتفتون اليها فى الغالب حتى ان المكاتب المفتوحة بالكمون لم تكن مؤسسة على الطريق اللائقة بابناء العرب • وكلمة المسلمين المشاركين لهم فى المشورة ان انفردت لا تجدى نفعا وبحسب ذلك فلا ينال المسلمون شيئا من منفعة الكمون الا بالتبعية للاوروباويين كالانتفاع بالطرق ونحو ذلك ولا يخفى أن جباية الكمون غالبها تقبض من المسلمين ، واما شكاية العرب من ذلك فموجودة • فالكمون الذى ليس لميره خليفة مسلم أضر بالعرب ذلك لانهم وقت الحاجة بالمير قد لا يجدونه • وان وجدوه فلا يجد من يترجم عليهم فتجدهم يترددون الى الفيلاج (42) مرارا فى الامر الذى من حقه أن يقضى فى ساعة فشق عليهم الحال وتعطلت بعض من منافعهم •

وكما يتاسفون أيضا فى كثير من النواحى من عدم اعتناء المير والديوان بالقيام بالمنافع اللازمة لهم فاللائق هو أن يجعل فى الكمونات جميعا شيخا مسلما مع الشيخ الفرنساوى يعلم أبناء العرب ما يلزمهم تعليمه ويكون له راتبا قدر الكفاية • ويجعل أيضا خليفة مسلما فى الكمونات التى ليس فيها خليفة ليكون واسلة بينهم وبين المير يرفعون اليه أمورهم ويبصر المير باحوال أهل الدائرة وعاداتهم •

وأما ترتيب الجماعات فى الدواوير على حسب ما قرر عليه من أنهم يدبرون فى مصالحهم اللازمة لهم ثم يعرضون نظرهم على حاكم عمالتهم وهو الذى يتصرف فيها على

41) أى شيخ البلدية من الكلمة الفرنسية : le Maire
42) أى القرية من الكلمة الفرنسية : le village

وفق ما تقتضيه القوانين المؤسسة فى شأن ما ذكر ففى ذلك مصلحة عظيمة لانه صار ما يجمع من الجبايات الخاصة يصرف فى مصالحها ٠

واما خدمة محاكم العرب (43) فانها قائمة بمنافع البلاد والعباد باذلة جهدها فى نشر العدل وقمع أهل الفساد ساعية فى انصاف المظلوم من ظالمه حافظة للطرق من اللصوص ومشتهرة فى زرع التمدن بين الناس مغرومة بتعليم ابناء العرب المعارف الفرنساوية وغير ذلك مما يطول تتبعه ٠ اه

الجواب على السؤال الخامس :

ان البحث الواقع في شؤون الفلاحة بمملكة الجزائر بواسطة السيد الكونط الهون (44) ٠ لم يعلم بحقيقته ولا بما قاله الاروباويون فى ذلك الا بعض الخواص من العرب ومن علم بذلك لم يرتض ما قاله الاروباويون كما انهم فى بعض العمالات جاوزوا الحد وخرجوا عن المقصود حتى أنهم تكلموا فيما يضر بالشريعة الاسلامية ٠ ومن غريب ما وقع بعمالة قسنطينة أن ما طلبه الاروباويون من السيد المذكور كرروا طلبته من جماعة الديوان الاعظم السنتو (45) المنعقد سنة 1868 ورغبوهم فى ان يجردوا ذلك المطلب من جانب الدولة ولم يقبل منهم مطلبهم الجماعة المذكورة ٠ وأما أمان العرب بالدولة السلطانية وأنها ما تؤمل الا الخير للعرب فذلك أمر محقق وأن العرب لا يخطر ببالهم أن الدولة الفرنساوية تنقض عهودها ومواثقها التى كانت التزمت بها للعرب فى اليوم الخامس من شهر جليت سنة 1830 ثلاثين وثمنمائة وألف وقد تاكد عندهم ذلك من يوم مخاطبة حضرة السلطان نابوليون لهم أطال الله حياته ووعده اياهم بأن يوفى لهم بما التزمت به لهم الدولة يوم وضع قدمها بتراب الجزائر من احترام دينهم وشريعتهم وعوائدهم وأنفسهم وأموالهم ٠ وبالغ حفظه الله فى اظهار محبتهم بأن جعلهم وابناء جنسه بمنزلة واحدة حيث قال أنا سلطان للعرب كما أنا سلطان للفرنساويين ٠ فمن يوم قدوم حضرته السعيدة لاقليم الجزائر ودورانه به ومشاهدة العرب للين جانبه

---

43) يعنون بها المكاتب العربية ٠

44) الكونت لوهون Le Comte Le Hon هو الذى ترأس لجنة تحقيق عام 1868 ٠

45) أى مجلس السيناتوس كونسولت : le Sénatus - Consult

معهم وكثرة حنانته عليهم ، واشغال باله بالتدبر فى مصالحهم ازداد فى قلوب العرب حبه وحب عيلته وصاروا داعين له ولزوجه الطاهرة الكريمة ونجله السعيد بتأييد الملك ودوامه بكل لسان وكل مكان وها نحن اليوم نجدد الدعاء ونردده ونتضرع الى اللـه فى قبوله لحضرتهم العلية وعيلته المفخمين المبجلين بقولنا اللهم أطـل عمر السلطان نابليون الثالث مع العافية الدائمة وأطل عمر زوجه الطيبة الطاهرة وأطل عمر نجلـه السعيد وعيلته الشريفة وخلد اللهم الملك فى عقبه وعقبهم ما دامت الدنيا • وكن اللهم معينا وظهيرا ووليا ونصيرا لهم ولمن أعانهم وأحبهم من الوزراء والامـراء والنـواب والمتصرفين آمين اللهم آمين • يا رب العالمين ، وكتب من يضع أسماءهم فيه مسلمون على من يقف عليه ورحمة الله وبركاته • حسين بن بريهمات لطف الله بهما فى الحـركات والسكنات • أحمد ولد قاضى لطف الله بهما آمين • المكى بن باديس • بتاريخ الثـانى والعشرين من دجنبر سنة 1869 بباريس •

الحمد لله [illegible] والصلاة والسلام على جميع [illegible]

الجواب عن السؤال الاول

املاكون الجماعة تضعف بسبب اثقال جرائد الارض بلا تسلمه ، ونقول ان حرمة الارض العتادية
عند العرب هي التي تناسب غنيمهم وبقرهم ويسهل عليهم القيام بها ، ومن كانوا معها على
احسن حال فخزفوه عزيزة ، واما ادخار الزرع في المطامير فليس فيه كبير فايدة للعامة
لانه لا يحتاج عند الا وجود الحبوب في الوطن وانما تكون فايدة تلك المطامير خصوصا بارباب
ومع هذا بان الزرع الان لا يعز وجوده لما ان التجار يجلبونه من ساير الاقطار
نعم كان في السالف كثير الفلاحين يكون عندهم الفاضل في الزرع عن قدر كفايتهم
فيحفظونه في المطامير ويبيعونه وقت المسغبة ليدفعوا به المؤنة ، ولما حل بهم
غلو البيع في كراء الارض الدومينية وغيرها مع الزيادة في المغرم وصارت الحاجة
تدعوهم الى قرض الدراهم بالفايدة المفرطة كستين في الماية ونحو ذلك ممن انتصب
لذلك ولم يرحم خلق الله ، كما تدعوهم ايضا الى بيع الزرع والصوف قبل اوانهما
باقل من نصف القيمة فصار الزرع الذي يحصلونه في الصيف يخرج كله من ايديهم
في الشان المذكور ولم يبق بايديهم ما يدخرونه ، نعم ان وقع في المستقبل
التزام العامة كل سنة بجمع نصيب من الزرع وادخاره للحاجة اليه ففي ذلك
مصلحة عظيمة ، والحاصل ان المسغبة انما تحصل من عدم المطر ويبس الزرع
والكلا واصابته بالبرد والجراد ، ولا يخفى على احد ان الجوايح المذكورة تصيب
زرع الحرث المتقن وغيره ، وكذا ان الجوايح المذكورة اوقعت المسغبة بمملكة
٧ الجزاير كذلك اوقعتها بالمملكة المراكشية والتونسية غير انها كانت في
مع ان الخ [illegible] وكان ضرره بالاراضي
البوادية التي هي ابعد مما يكون
بعض اراضي السواحل من الاقاليم الثلاثة اخف ضررا واقل موتا لما ان ارض السواحل
اشد ضررا في ابتداء امره وملوحا في سواحل مملكة
الجزاير لا بعدان لاان العرب والعساكر قتلوا اكثر اصابها بعض المطر مع جودتها ووجود الماء المعدني ببعضها وكونها مصب الاودية
[illegible]
وانما كون اتقان الحرث لا يعرف الا بمشاهدة صاحب المعرفة وباتخاذ الالات المعدة له

الشكل رقم 3 — الفحة الأولى من أجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق

ولا نزاع فيه غير انه لا يعسر تحصيل ذلك لدى ارباب من اهل [illegible]

دافع لشيء موجود فيه لكنه ولو مع البعد فان داعيه يوما ما الى تزايد [illegible]

فانها لا تناسب الآن العرب الذين هم جهلة بالاحوال الم تبعة في معاشرة [illegible]

وغلاظ الطبع وعادتهم اهمال المواشي والمجاوزة عن بعضهم في ذلك [illegible]

وغير ذلك من العوائد الجارية بالرفق والمعاملة فيما بينهم . فينبغي لهم ان يكون [illegible]

متصلة ببعضها وغير مختلطة بارض الاجانب وان يبقوا على حالهم الى ان ذكرناه [illegible]

الآن من المدارس الابتدائية الى المدارس السلطانية بالمملكة الجزائرية ثم الى [illegible]

الحربية والصناعية بلا نسبة فاذا ذلك يتم المراد ويسهل الاختلاط وتحسن المجاورة

الجـــــواب عن السؤال الثاني

اما قسم الارض المشاعة بين سكان العرش وقت الحاجة فغالب الظن انه لم يكن الآن العرب في

الوطن ان لكل قبيلة نصيبا من الارض تتصرف فيه كما كان سلفها قبلها . واما تعدد افراد

والمشايخ لمنفعة انفسهم او لمنفعة الغير فلا يكون الا نادرا . ومهما انتهى الخبر الى الحاكم

ازال المظلمة وعاقب فاعلها بما يناسبه . واما ما ذكر في السؤال من قوله فلو ان كل شخص

يستغل ملكه لامكنته المراجعة على حقوقه الخ فلا نزاع فيه غير انه ان المراد بالشخص اهل

العيلة أي الاب مع اولاده واهله فلا ضرر في ذلك . واما افراد الولد عن ابيه او الزوجة عن

زوجها مثلا فان ذلك يؤدي الى الاضرار بالعيلة وتشتيتها . ويؤدي ايضا الى افساد الارض

وتقسيمها على المنوال الذي لا يمكن معه الانتفاع بها لان القطعة الصغيرة في اراضي الاعراش

لا ينتفع بها لكون عملهم في الارض حرث الزرع او المرعى ولا يكتفون غير ذلك لعدم المال .

واما افراد ابن العم عن ابن عمه ونحو ذلك فلا بأس به حيث يأخذ حقه لينتفع به لنفسه

او يبيعه لاهل محلته . واما بيعه لنصيبه من اجنبي فيخشى منه الضرر وتشتيت شمل

تلك العيلة والتحفظ على جمع شمل العيلة اولى من مصلحة الفرد . هذا في ارض الحراثة

واما ارض المرعى والاحتطاب فلا يليق بالعرب ان تكون ارض كل فرقة من العرش مجموعة لا ذكر

الشكل رقم 4 — الصفحة ال... من أجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق.

من الرعي والاحتطاب يتسعون فيه مع بعضهم بعضا على سبيل الاشتراك لا الاختصاص
وتعيين ما يخصها فيه من مقدار صغيرة يؤدي الى الهرج بينهم وعدم الانتفاع على الوجه اللائق. وثانيا فقسمة
ارض الرعي ربما توجب الاختلال بارض الحراثة فهذا يحرث حصته وهذا يخليها للرعي وفيه ما لا
يخفى من السبب في الهرج. ولا تستقيم معيشة اهل البادية الا اذا كانت حراثتهم على جهة والرعي
على جهة اخرى م

الجواب عن السؤال الثالث

اما كون العرب يرضون باتخاذ العزم وتبديله واجرائه على حسب مساحات الارض وجنسها بالزراعات
للقدر الوسط فيما كان يدفعونه من المغارم في مدة سنين مضت. فانا نظن ان ذلك لا يليق في
جانب العرب كلهم على الاطلاق. وانما ينسب ذلك في العمالات السبيلية مثلا لقلة الارض
مع عمارتها ان كان ذلك يرضى مع انتظام العرف بين حال العرب في السبع سنين الاولى
من العشرة وفي الثلاثة الاخيرة منها. واما الاعراش المتصرف فيهم الحكم العسكري فلا يليق بهم
ذلك لاتساع ارضهم وقلة المنتفع به مع ضعف الماء وفقرهم. وحال اهل الاعراش اليوم
من قلة مواشيهم بسبب المسغبة التي مرت عليهم ضعيف. فينبغي لهؤلاء ان يبقى مغرمهم
على ما كان عليه م

الجواب عن السؤال الرابع

ان القانون السلطاني الوارد في ترتيب الكمون بارض العرب محترم احترام من احتاش منه. واما بركة
العرب في الكمون فهي شيء تافه. وذلك ان كثير المنافع التي يشتهر فيها الي والديوان هي
المنافع التي يحتاج اليها الاروباويين. واما منافع المسلمين فلا يلتفت اليها في الغالب حتى
ان المكاتب المفتوحة بالكمون لم تكن مؤسسة على الكيفية اللائقة بابناء العرب. وكلمة المسلمين
المشاركين لهم في المشورة ان انفردت لا تجد نفعا وبسبب ذلك فلا ينال المسلمون شيئا من منفعة
الكمون الا بالتبعية للاروباويين فلا انتفاع بالكون ونحو ذلك ولا يخفى ان جباية الكمون اغلبها
تقبض من المسلمين. واما شكاية العرب من ذلك فموجودة. فالكمون الذي ليس لهم خليفة
مسلم اقرب للعرب ذلك لانهم وقت الحاجة باليهم فلا يجدونه. وان وجدوه فلا يجدون من يترجم عليهم فيتجرم
يترددون الى الحكام مرارا لانه الزمن معه ان يقضي ساعة فيشق عليهم الحال وتعطلت بعض
منافعهم

الشكل رقم 5: الصفحة الثالثة من اجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق

وكما يتأسفون ايضا في كثير من النواحي من عدم امتثال البيرو الديوان بالعقبات والمنافع اللازمة لهم

خلال الايام هواه ويحل في الكمونات جميعا شيخا مسلما مع الشيخ البرنساوي يعلم ابناء العرب ما يلزم

تعليمه ويكون له راتبا من الكفاية . ويجعل ايضا في الكمونات التي ليس فيها خليفة مسلم خليفة مسلما يكون واسطة

بينهم وبين البيرو يرجعون اليه امورهم ويعرف البيرو باحوال اهل الدائرة وعاداتهم

واما ترتيب الجماعات في الدواوير على حسب ما قرر عليه من انهم يتدبرون في مصالحهم اللازمة

لهم ثم يعرضون نظرهم على حاكم عمالتهم وهو الذي يتولى جميعها على وفق ما تقتضيه القوانين

المؤسسة في شأن ما ذكر ففي ذلك مصلحة عظيمة لانه صار ما يجمع من الجبايات الخاصة بالجماعة

يصرف في مصالحهم . واما خدمة محاكم العرب بالقضاة الاهلية لمنافع البلاد

والعباد فإنه جعل ذلك نشر العدل وقمع اهل الفساد ساعية في انصاف المظلوم من ظالمه

مانعة للاخذ من الرشوة ومشتهرة في زرع التقوى بين الناس مخدومة بتعليم ابناء

العرب المعارف البرنساوية وغير ذلك مما يطول تتبعه

الجواب عن السؤال الخامس

ان البحث الواقع في شأن الفلاحة بمملكة الجزائر بواسطة السير الكونت الهون لم يعلم حقيقة

ولا ما قاله الاوروباويون في ذلك الا بعض النزاع من العرب . ومع ذلك لم يرتض ما قاله

الاوروباويون فانهم في بعض العبارات جاوزوا الحد وخرجوا عن المقصود حتى انهم تكلموا

فيما يتعلق بالشريعة الاسلامية وهو غريب ومرفوع بعادة فتستحق ان ما طلبه الاوروباويون من

النظر سنة ١٨٦٥

السير المذكور كرروا طلبه من جانب الديوان الاعلى السنة وغيرهم في ان يجردوا ذلك المطلب من

جانب الدولة ولم يقبل منهم مطلب الجماعة المذكورة . واما امان العرب بالدولة السلطانية

وانه ما تؤمل الا الخير للعرب فذلك امر حقق . وان العرب لا يخفى بيانهم ان الدولة

البرنساوية تتفق عهودها وما تعطيه التي كانت التزمت به للعرب في اليوم

الخامس من شهر جليت سنة ١٨٣٠ الف وثمانماية وثلاثين وقد تأكد عندهم ذلك

من يوم مجيء الحضرة السلطان نابليون اطال الله حياته ووعده اياهم بان يوفى

الشكل رقم 6 الصفحة الرابعة من أجوبة النواب الجزائريين إلى لجنة التحقيق

لهم ما التزمت به لهم الدولة يوم وضع قدمها بتراب الجزائر من احترام دينهم وشريعتهم

وعوايدهم وانفسهم واموالهم . وبلغ من فضله ادامه الله اظهار محبتهم بان جعلهم وجنوده جنسا

بمنزلة واحدة حيث قال انا سلطان للعرب كما انا سلطان للفرنساويين . فمن يوم قدوم

حضرته السعيدة لاقليم الجزاير ووروده به ومشاهدة العرب للين جانبه معهم وكثرة

حنانته عليهم . واشتغال باله بالنظر في مصالحهم ازداد في قلوب العرب حبه وحب عيلته الطاهرة الكريمة

وصاروا داعين له ولزوجته ونجله السعيد بطول بقاء الملك ودوامه بكل لسان

وكل مكان . وها نحن اليوم نجدد الدعاء ونزيده ونتضرع الى الله في قبوله لحضرتهم العلية

وعيلته المحمية المجليين بعونه الله الامبراطور الاعظم السلطان نابليون الثالث مع العافية

الدايمة والامبراطورة زوجته الطيبة الطاهرة والامير نجله السعيد . وعيلته الشريفة وخلد اللهم

الملك في عقبهم وعقبهم مادامت الدنيا . وكن اللهم معينا وظهيرا ووليا ونصيرا

لهم ولمن اعانهم واحبهم من الوزراء والامراء والنواب والمتوظفين . امين اللهم

امين يارب العالمين . وكتب من يقع اسماءهم فيه مسلمون على من يقف عليه

ورحمة الله وبركاته   حسن بن بريهمات لطف الله به امين الحركات والسكنات

احمد ولد قادي لطف الله به امين

ليلة الثاني والعشرين من دجنبر ١٨٦٩

بباريس

الشكل رقم 7– الصفحة الخامسة من أجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق

وثائق جديدة
عن ثورة الامير عبد المالك الجزائري بالمغرب

أبو القاسم سعد الله

اجريت فى صيف **1968** بدمشق مقابلة مع الامير حسن بن الامير عبد المالك الجزائرى وطلبت منه ان يحدثنى عن ثورة والـده فى المغرب (**1914ـ 1924**) ، وعن ذكرياته عنه . وكانت المقابلة فى منزل الامير حسن الواقـع باحد أحياء دمشق المشهورة بالمغاربة . وكانت القاعة التى جلسنا فيها محلاة بصور أبيه الامير عبد المالك وصور جده الامير عبد القـادر . فهناك صـورة للاول باللباس العسكرى العثمـانى ، واخرى يظهر فيهـا لابسا برنسا فى هيئة شبيهة بهيئة والده (الامير عبد القادر) . وثالثـة يظهر فيها ممتطئـا صهوة فرس تـذكر ايضا بالصورة المعروفـة للامير عبد القـادر يحيط بـه عدد من المغاربـة راجلين تماما كما تظهر صورة أبيـه وهو محـاط بأتباعـه الجـزائريين .

وقد تحدث الى الامير حسن بصراحة عن والده ، فكان يتكلم وانا أكتب طيلة بضع ساعات . وبعد ان انتهى من حديثه وجهت اليه بعض الاسئلة عن موضوعات رأيت انها ما زالت غامضة ، فاجابنى عنها ايضا بصراحـة . كان الامير يتمتع بذاكرة قوية . ويحتفظ بصور كثيرة عن تاريخ والده وجـده ، كما يحتفظ بوثائق هامة تفضل بتسليمها الى فى اصولها .

ويمكننا ان نعيد بناء احداث ثورة الامير عبد المالك بالمغرب بالاعتمـاد على هذه المعلومات الجديدة المتمثلة فى المحادثة التى أجريناها مع ابنه ، وفى الوثائق والصور التى تفضل بالكشف عنها ، وفى مقال هام ظهر فى جريدة (الاحـرار) البيروتية ، بالاضافة الى ما استقينـاه من معلومات حول هـذه الثـورة فى مناسبـات متعـددة منـذ صـدور كتابنـا « الحركـة الوطنيـة الجزائرية » (1) الذى خصصنا فيه فصلا عن ثورة الامير عبد المالك .

والوثائق المشار اليها هى ما يلى مرتبة حسب تواريخها :

الوثيقة رقم 1 : رسالة من الامير عبد المالـك الى أخيه الامير على بتاريـخ **16** نوفمبر **1914** ، بالعربية .

الوثيقة رقم 2 : رسالة من الامير عبد المالك الى ابن اختـه سيدى **مصطفى** بتاريخ **4** صفر **1334** هـ (**1915** م) ، بالعربية .

الوثيقة رقم 3 : رسالة من ممثلى الدولتيـن العثمانيـة والالمانيـة بمدريـد بتاريخ **25** مايو **1916** ، بالعربية .

الوثيقة رقم 4 : شعر للامير عبد المالك الى أسرة الامير عبد القادر بالشام بتاريخ **14** ربيع الثانى **1338** هـ (**1919** م) ، بالعربية .

---

(1) دار الآداب ، بيروت ، 1969 ، ص 257 ـ 265 ، لم أحاول في هذه الدراسة ان أوفق بين ما ذكرته في (الحركة الوطنية الجزائرية) وبين ماورد في الوثائق الحالية عن الامير عبد المالك .



الشكل رقم 7 . الامير حسن بن الامير عبد المالك (سنة 1928) .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .



الشكل رقم 6 . الامير حسن بن الامير عبد المالك (سنة 1913) .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .

الوثيقة رقم 5 : رسالة الى الامير عبد المالك من مجهول ، بتاريخ 26 سبتمبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 6 : رسالة من الامير عبد المالك الى الجنرال موريال ، بتاريخ 7 اكتوبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 7 : رسالة من خليل حقي قائم بأعمال الدولة العثمانية بمدريد الى الامير عبد المالك ، بتاريخ 10 ديسمبر 1920 ، بالفرنسية .

★ ★ ★

وقبل استعراضنا لهذه الوثائق نود أن نكشف عن بعض الجوانب الشخصية والعائلية للامير عبد المالك ، معتمدين فى ذلك بالدرجة الاولى على حديث ابنه الامير حسن . فعبد المالك هو الابن الثانى قبل الاخير من ابناء الامير عبد القادر ، اذ لا يصغره الا أخوه عبد الرزاق . وقد ولد الامير عبد المالك بدمشق سنة 1285 هـ (1868 م) . وهناك تعلم وتأثر بحركة الجامعة الاسلامية . وكان يحسن الى جانب العربية اللغتين التركية والفرنسية . وكان خطيبا وشاعرا أيضا . وكان قد سمع بثورة الشيخ بوعمامة فى الجنوب الجزائرى فاخذ بها . وقد غادر دمشق سنة 1903 ، ولا ندرى أين توجه بالضبط ، ولكننا نعلم انه عين سنة 1906 قائدا للشرطة الدولية فى طنجة . واجتمع سنة 1912 بأسرته فى طنجة . وكانت هذه الاسرة تتكون من زوجته وبنتين وابنيه الاميرين محى الدين وحسن (2) .

التحق الامير عبد المالك بالشيخ بوعمامة (3) وحارب معه الفرنسيين. وعندما القى بوعمامة السلاح سنة 1904 انضم الامير الى الثائر المغربى بوحمارة وحارب معه أيضا فترة . ولكنه اكتشف ان حركة هذين الثائرين كانت فردية فانضم الى السلطان مولاى عبد العزيز الذى عينه قائد جيوشه فى منطقة القصر الكبير . واثناء حروبه لصالح السلطان عبد العزيز ضد مولاى عبد الحفيظ ، الذى كان يسانده الفرنسيون ، القى عليه القبض فى فاس . ثم اطلق سراحه وعين نائبا لوزير الحربية المغربى ثم قائدا للشرطة الدولية فى طنجة .

وعندما بدأت الحرب العالمية الاولى كان الامير عبد المالك فى فيشى بفرنسا يتداوى من مرض الربو . كما زار اسبانيا فى نفس العام . وعندما تاكد موقف الامير عبد المالك المعادى للفرنسيين اتصل به سفير المانيا فى مدريد ، الكونت دى راتبور ، وطلب منه ارسال مندوب عنه الى مدريد للاتفاق على خطة مشتركة . فأرسل الامير عبد المالك ابنه محى الدين الى مدريد لذلك الغرض . وقد وقع الاتفاق على فتح جبهة ضد الفرنسيين فى المغرب . ومحتوى هذه الخطة ان المانيا والدولة العثمانية تتعهدان بالمساعدة ، اذا نجحت الخطة ، على اقامة مملكة واحدة تضم المغرب والجزائر .

وفى آخر سنة 1914 ترك الامير عبد المالك طنجة (4) ، بناء على الاتفاق ، وتوجه الى داخل المغرب لتنظيم قواته وفتح الجبهة المذكورة . وقد توجه أولا الى جبالة حيث القى عليه القبض وكاد يقع فى قبضة الفرنسيين

---

(2) انتحر الامير محي الدين بعد خلاف مع والده في بداية الحركة . اما حسن فهو الامير الذي أجرينا معه المقابلة .

(3) رغم تاكيد الامير حسن على علاقة والده بثورة بوعمامة فاننا ما نزال غير مطمئنين اليها .

(4) تدل الوثيقة الاولى على ان الامير قد بدأ حركته في أوائل سبتمبر 1914 .



الشكل رقم 8 . الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .

لولا تدخل قائد بني منصور العياشي الفلال (5) (؟) الذي حماه من الشيخ الريسوني (الذي كان ضده) واتباعه ، وسهل له الخروج من المنطقة الاسبانية .

وفي بني مستارة الف الامير عبد المالك أول قوة لمقاومة الفرنسيين في المغرب الخاضع للادارة الفرنسية . وكان جيشه يتالف عندئذ من فرق نظامية واخرى شعبيه . وكان يعمل في معسكره ضباط المان وأتراك . وكان رئيس البعثة الالمانية لديه هو السيد هيرمان . اما رئيس البعثة العثمانية لديه فان الامير حسن لم يتذكر اسمه . وكان في معسكر الامير عبد المالك أيضا بعض الهاربين من فرقة اللفيف الاجنبي الفرنسية .

كان الاتراك والالمان يعملون معه كمستشارين . وكان الالمان بالذات يقدمون مساعدة لاسرته التي كانت تعيش في مدينة تطوان . كما كانوا يقدمون اليه الاسلحه والعتاد ، ولكن بكمية غير كافية . وكانوا احيانا لا يوفون له بوعودهم . مثل ما حدث عندما دخل الامير عبد المالك مدينه فاس، فقد ظل هناك ينتظر المدد من القوات المركزيه لكي ينطلق الى جهات اخرى ولكن بدون جدوى .

وعند وقوع الهدنة بين القوات المركزية والحلفاء سنة 1918 بدأ الامير عبد المالك عهدا جديدا كان أقسى تجربه عليه من العهد الاول . فقد تخلى عنه جميع الاتراك والالمان وإنسحب من عنده 500 فارس من بني زناسن ، ودهبوا بأسلحتهم وأموالهم الى مليلية بالمنطقة الاسبانية . وهكذا بقي الامير عبد المالك وحده في الميدان فالتجأ الى قبيله غمارة . وقد التجأ أيضا الى زاوية سيدي علي بن داود حيث بقي مدة مع قوة صغيرة من اتباعه . وخلال ذلك كان يجري سلسلة من المفاوضات مع الفرنسيين لم تؤد الى نتيجة . غير ان الامور بدأت تاخذ شكلا جديدا سنة 1923 عندما اندلعت حرب الريف بقيادة الامير الخطابي . وكانت هذه الحرب في البداية ضد الاسبان . وقد أرسل الامير الخطابي أخاه الى فرنسا يطلب مساعدتها ، غير ان هذه اشترطت عليه، لكي تقدم له المساعدة ، أن يحارب الامير عبد المالك ويخرجه.

وبناء على ذلك جاء الامير الخطابي بقوة كبيرة وحاصر الامير عبد المالك وطلب منه التسليم . لكن الاخير فضل الحرب على التسليم . وجرت معركة بين الطرفين دامت خمسة عشر يوما انكسر اثرها الخطابي وعاد الى موطنه وبدأ يعد العدة لجولة ثانية أكبر من الاولى . غير ان الامير عبد المالك لم يكن يملك قوة كبيرة فالتجأ الى المنطقة الاسبانية وطلب مساعدة اسبانيا . وقد جرى اتفاق بين الطرفين تعهدت بمقتضاه اسبانيا بتقديم المساعدة المادية للامير عبد المالك ، على أن يكون من حق الامير تجنيد الجنود ليحرر بهم ما يشاء من البلاد ، فاذا احتل أي جزء منها فانه يصبح مستقلا ولا يدخله الاسبان .

وقد حضر الامير حسن المعركة الاخيرة التي قتل فيها والده . فقد خرجوا على الساعة الرابعة صباحا وبدأ القتال الذي دام حتى العاشرة حين انتهت المعركة . وعلى اثر ذلك مباشرة أصابت طلقات قلب الامير عبد المالك. وجرى ذلك في شهر أغسطس سنة 1924 . وقد ادعى الريفيون أن الاسبان هم الذين قتلوه بينما ادعى هؤلاء أن الريفيين هم الذين فعلوا به ذلك . وعلى

---

(5) لم استطع أن اقرأ خطي الذي كتبت به هذا الاسم اثناء مقابلتي مع الامير حسن ، ولذلك فانا غير متاكد من نطق الاسم .

كل حال فان الامير عبد المالك كان قد خرج للحرب تحدوه الرغبة فى تحرير المغرب من الاسبان وثوار الريف معا .

وتؤكد الوثائق الجديدة علاقة الامير عبد المالك بكل من أخيه الامير على وابن أخيه الامير خالد . فقد كان الاول هو المتحدث باسم حركته فى المشرق وموضع سره هناك ، كما تشهد بذلك الوثيقة رقم 1 . وفى سنة 1916 طلب الامير عبد المالك من الامير خالد ان يشرع فى تهيئة الجو فى الجزائر للقيام بحركة مساندة لحركته فى المغرب . وقد ارسل اليه من اجل ذلك الاموال والمناشير . ولكن ظروف الامير خالد لم تسمح له بهذه المهمه . وتؤكد جريدة (الاحرار) هذه العلاقة بين الاميرين (6) . ومهما يكن الامر فمما لا شك فيه هو أن الامير خالد قد استفاد من حركة عمه فى المغرب عندما بدأ هو حركته السياسيه فى الجزائر بعد الحرب العالمية الاولى .

حارب الامير عبد المالك فرنسا اقتداء بوالده الامير عبد القادر ، وكان هدفه تحرير الجزائر . ولكنه لم يبدأ من الجزائر لان جذور فرنسا فيها كانت قوية . وقد اختار بدلا منها المغرب كمنطلق لان مجال العمل فيه أوسع حيث توجد سلطتان من جهة وحيث المغرب كان حديث العهد بالاستعمار من جهة أخرى . وكان العدو الاول للامير عبد المالك هو المارشال ليوتى . وكانت للامير اهداف دينية ووطنية من تحرير المغرب والجزائر ، شبيهه بالاهداف التى حارب من اجلها الامير عبد القادر . ورغم ذلك فان الامير عبد المالك لم يدخل الجزائر قط ، لا قبل الحرب العالمية الاولى ولا بعدها . واقرب نقطة اقترب فيها من الجزائر هى مدينة وجدة .

★ ★ ★

تكشف الوثائق السبع التى بحوزتنا عن مدى ايمان الامير عبد المالك بالجامعة الاسلامية وبفكرة الجهاد وتعلقه الشديد بفعائل أجداده . كما تكشف عن ترفعه واعتزازه بنفسه، سواء فى حروبه او فى مفاوضاته مع الفرنسيين. ومن جهة اخرى تكشف عن علاقاته بأصدقائه (العثمانيين والالمان) وبأعدائه (الفرنسيين) .

فاذا نظرنا الى هذه الوثائق واحدة واحدة فان **الوثيقة الاولى** عبارة عن رسالة كان قد وجهها الامير عبد المالك الى أخيه وممثله الامير على فى اسطانبول . والظاهر أنها مترجمة لان جريدة (الاحرار) قد نشرتها ضمن مقال موقع بامضاء السيد فؤاد ميدانى وبجانبه عبارة « تعريب » (7) . بالاضافة الى ان الاسلوب لا يدل على انها قد نشرت بنصها العربى الاصلى . وعلى كل حال فالرسالة اخبارية وهى مؤرخة بـ 14 نوفمبر 1914 ، أى بعد بضعة شهور فقط من بداية الحرب العالمية . وقد عدد فيها انتصاراته على العدو فى المغرب . وأشار الى انه ارسل دعاته أيضا الى الجزائر وتونس . وهذا يؤيد صحة ما ذكره الامير حسن من ان والده قد كاتب ابن أخيه الامير خالد فى الجزائر ، والرسالة بالاضافة الى ذلك تكشف عن ثقته بنفسه وربطه الجهاد الذى يخوضه بحركة الجامعة الاسلامية . وفى الرسالة أيضا اشارة الى بدء ثورته حين ذكر أنه استولى على بطارية للعدو قبل شهرين من تاريخه .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة (8) مفصلة أرسلها الامير عبد المالك

---

(6) القصاصة التي عندنا من هذه الجريدة تحمل رقم 1930 ، لكن تاريخ الجريدة منزوع .

(7) جريدة (الاحرار) عدد 1930 . لكن التاريخ منزوع من القصاصة التي عندي . وفي المقال اخبار اخرى عن حوادث افريقية الشمالية خلال الحرب العالمية الاولى وموقف الدولة العثمانيــة منها .

(8) مقاس 27 × 21 ؛ 31 سطرا ، بالاضافة الى 15 سطرا مكتوبة على اطراف الرسالة .

سنة 1915 الى ابن اخته السيد مصطفى الذى لا نعرف عنه الآن اكثر من هذا . وهذه الرسالة المكتوبة بخط مغربى وموقعة من قبل الامير عبد المالك نفسه بخطه المشرقى ، تتلخص فى نقطتين : الاولى وصفه للمعارك التى خاضها هو واتباعه ضد الفرنسيين وحلفائهم اولاد بكار ، والثانية طلبه النقود من جهة مجهولة أشير اليها باسم « الطبيب » فقط ، ثم انذار هذه الجهة بأن الامور ستسوء اذا لم ترسل بالمال المطلوب عاجلا . وقد ذيل الامير عبد المالك هذه الرسالة بكلمة طلب فيها من ابن اخته ان يطلع ابنه الامير حسن على فحواها مع توجيهات خاصة به . ومن الاسف اننا لم نستطع ان نتعرف على شخصية ولا مهمة الرجلين المشار اليهما فى هذا الذيل وهما حميدة الوزانى والبشير بن السفاح (؟) ، كما لم نعرف هوية بوغابسن .

والوثيقة الثالثة وردت الى الامير عبد المالك من سفير دولة المانيا بمدريد ونائب الدولة العثمانية بمدريد أيضا ، وهى بتاريخ 25 مايو 1916 (9) . وهى مكتوبة بخط عربى مقبول وأسلوب رديىء . ولعل الذى كتبها أحد موظفى السفارتين المذكورتين . وفى أسفل الوثيقة ختم كل دولة بالشمع الاحمر ، ويظهر عليه النسر الالمانى تحت عبارة « سفير دولة الالمانية بمدريد » و « دولة الخلافة العلية » تحت عبارة « نائب دولة العثمانية بمدريد . » والوثيقة تؤكد صداقة الدولة العثمانية والالمانية للامير عبد المالك ، وتبعد الشائعات التى شاعت عندئذ من ان انسحاب الضباط العثمانيين من صفوفه تعنى التخلى عنه وعن المغرب . وتكشف هذه الوثيقة من جهة أخرى عن دور الخلافة العثمانية والمانيا فى تلك الاحداث .

كل الوثائق السابقة كانت خلال الحرب العالمية الاولى . وتاتى **الوثيقة الرابعة** سنة 1919 حين كتب الامير عبد المالك عشرة أبيات من الشعر بخط يده وبقلم الرصاص وموقعة بقلمه أيضا (10) . وقد وجهها الى آل الامير عبد القادر عامة . والظاهر أنه لام فيها بعض افراد هذه العائلة الذين ربطوا مصيرهم بفرنسا عدوته وعدوة والده ، ناسين أيادى السلطان عبد المجيد الذى كفل والده مما تسبب فى اطلاق سراحه من سجن الفرنسيين . وقد عاب عليهم الفرقة بعد الوحدة والهوان بعد العزة . ومما يلاحظ أن البيت الاخير مكسور . ولم يفصح الامير عبد المالك عن الدافع الذى دفعه الى قول هذا الشعر . غير أن ابنه الامير حسن ذكر لى اثناء المقابلة بان والده قد رد بهذا الشعر على آل الامير عبد القادر عندما طلبوا منه ان يقبل عرض فرنسا الذى يقضى بتخليه عن ثورته ضدها فى المغرب وتنصيبه ملكا على سورية بدل الامير فيصل . غير أننا لم نجد فى الوثائق ما يشير الى هذه القضية .

والوثيقة الخامسة عبارة عن رسالة غامضة وجهها مسؤول ، يبدو أنه فرنسى ، سنة 1920 الى الامير عبد المالك (11) . وهى مكتوبة بالفرنسية ولا تحمل توقيعا ولا جهة ارسال . وتتحدث عن خطة سفره من المكان الذى كان يوجد فيه ، وهو غير مذكور ، ولكن الظاهر أنه كان قريبا من فاس . وهى تدل على ان هناك مفاوضات كانت تجرى بينه وبين الفرنسيين . وكانت نقطة الخلاف فيها حول الطريق الذى يجتازه بعد انتهاء العمليات العسكرية ،

---

(9) مقاس 33 × 20،5 ؛ 21 سطرا ، وقد نقلتها كما هى دون أن انبه الى ما فيها من اخطاء لكثرتها .

(10) مقاس 27 × 20،5 ؛ 12 سطرا .

(11) مقاس 20 × 15،5 ؛ 14 سطرا للصفحة (من صفحتين) .

هل يتوجه رأسا الى تطوان لرؤية اهله قبل التوجه الى الرباط لزيارة الجنرال ليوتى أو يؤدى الزيارة الى ليوتى قبل التوجه الى عائلته ؟

وكان **الوثيقة السادسة** (12) التى وجهها الامير عبد المالك الى الجنرال موريال الفرنسى ، مدير الشؤون الاهلية ومصالح الاستخبارات بالمغرب ، تجيب على ما غمض فى الوثيقة الخامسة . فالرسالة الرسمية التى قيل له انها آتية اليه كانت تحمل شروط الفرنسيين لاستسلامه . وهى الرسالة التى حملها اليه احد الضباط السامين . وقد وجد الامير ان هذه الشروط مهينة لشرفه ومقيدة لحريته فرفضها . ولذلك قدم بدلها شروطه الخاصة الموضحة فى الوثيقة ، وهى من ثلاث نقاط ، مضيفا اليها شرطا رابعا ، وهو حصوله على رخصة لمغادرة التراب المغربى من المقيم العام (الجنرال ليوتى) نفسه . وفى هذه الوثيقة كشف الامير عن اهداف كفاحه خلال خمس سنوات . وقد سخر من التسامح والاريحية الفرنسية . ومن الملاحظ ان هذه الوثيقة المكتوبة بالفرنسية كأنها كانت مسودة لما فيها من شطب وتعديل . ثم ان تحديد مكان الجهة التى يطلبها بعد خروجه من المغرب غير واضحة . فقد وجدت كلمة اسطانبول مشطوبة ومكتوبا فوقها كلمة رومة . والملاحظ كذلك ان الوثيقة بدون توقيع . وهى بتاريخ سنة 1920

أما **الوثيقة السابعة** والاخيرة فهى من السيد خليل حقى القائم بأعمال سفارة الدولة العثمانية بمدريد الى الامير عبد المالك (13) . وهى ايضا بتاريخ 1920 . وقد أجاب بها الامير على رسالة كان هذا قد كتبها اليه بمناسبة تعيينه فى منصب القائم بالاعمال . وتكشف الوثيقة ان الامير قد التجأ الى سفارة الدولة العثمانية بعد فشل مفاوضاته مع الفرنسيين . لذلك بادر القائم بالاعمال العثمانى الى عرض خدماته عليه وفتح مراسلات الامير السابقة مع سلفه . وفى الوثيقة عبارات تطمينية كثيرة ودغدغات دينية واضحة ، ووعود ووصف لحالة الدولة العثمانية الدولية . وهذه الوثيقة مكتوبة أصلا بالفرنسية ، لكن تتخللها بعض العبارات العربية ذات المحتوى الدينى (كالجهاد) والآية الكريمة (ولا تقنطوا من رحمة الله) ، الخ. ولكى أميز بين المترجم والاصل العربى وضعت العبارات العربية أصلا داخل قوسين هكذا ( ) .

★ ★ ★

وتنقطع عنا أخبار الامير عبد المالك ابتداء من سنة 1921 . والمعروف انه ظل فى حالة حرب مع أعدائه حتى صيف سنة 1924 حين قتل كما أسلفنا . ولو عثرنا على وثائق عن هذه الفترة ايضا ، ولا سيما مراسلاته مع الاسبان ومع الامير عبد الكريم الخطابى ، لاتضحت لنا معالم الطريق الذى سلكه وجوانب شخصيته الخفية . ولكن التاريخ ما زال ، فى نظرنا ، يخبىء لهذه الشخصية اسرارا لن يبوح بها كلها دفعة واحدة . وحسبنا منه الآن هذه الوثائق التى نوردها بنصوصها ، موضوعة أو مترجمة ، مرتبينها تاريخيا . وعسى أن يجد فيها الباحثون بعض ضالتهم عن شخصية الامير عبد المالك وعن تاريخ المغرب الحديث .

ابو القاسم سعد الله
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

الجزائر فى 18 اكتوبر 1973

(12) مقاس 36 × 26 ؛ 28 سطرا للصفحة (وهي في صفحتين وربع)
(13) مقاس 34 × 21 ؛ 40 سطرا .

الوثيقة رقم 1 :

رسالة من الامير عبد المالك الى أخيه الامير علي

في الوقت (14) الذي كان يتخيل فيه أمام ناظري الحروب والفتوحات التي كان يشنها اجدادنا العظام ، كنت أحيي الليالي حتى الصباح مفكرا ، تلك التصورات والافكار التي كنت أعتبرها أنها فاتحة آمال ذلك اليوم المقدس الذي نقوم به الى الجهاد .

فالشكر لله ان ذلك النور قد بدأ ينشق عن فجر للامة الاسلامية واخذ في تنوير الظلمات التي كانت تكتنف الامة .

ان أول فوز أدركناه كان منذ شهرين عندما تمكنا من الاستيلاء على بطارية من العدو على اثر معركة شديدة دارت بيننا وبينه وكتب الله لنا الفوز عليه .

لقد كنت اشعر بعذاب شديد في ضميري عندما أرى العدو يطأ في قدميه الملوثة أراضي وطني المحبوب .

وعلى اثر قيام قبائلي ورجالي الفدائيين بأعلان الجهاد المقدس ضد العدو ، مستمدين القوة من العزة الالهيه وروحانيه سيدنا محمد (صلعم) ، هاجمنا بنفوس تستحقر الموت مراكز العدو وتمكنا من احتلال (كازبلانكا) ، ذلك المركز الحربي الخطير الذي يحرص عليه العدو شديد الحرص حيث استولينا فيه على عشرات الرشاشات المدفعيه ومئات البنادق والعتاد الحربية .

انني لا أترك العدو الذي يتراجع الى الوراء يرتاح دقيقة واحدة ، وعلى الاخص فان الفرنسيين الذين فقدوا معنوياتهم بعد هده المعركة باتو (كذا) يقومون بمقاومة تستحق الذكر .

وقد ارسلنا الرسل والمناشير الى الجزائر وجنوبي تونس لاخبار اهلها بالجهاد المقدس . وبات اليوم المنتظر قريبا جدا . وسنظل ثابتين على خطتنا الى آخر نقطة نريقها من دمائنا . ومن الله التوفيق .

وليعلم اعداء الاسلامية في العالم ان قلوب الملايين من المسلمين تخفق اليوم بكلمه الجهاد المقدس ، وان المظالم والاضطهادات التي ارتكبوها ضدنا في الامكان احتمالها قط .

ونحن نتمنى ان يحذو المسلمون في سائر العالم حذونا ، ويلبوا داعي الجهاد ليتسنى لهم الحصول على الفوز العظيم .

والمعارك الاخيرة التي نشبت بيننا وبين الافرنسيين اسقطنا منهم 700 قتيل وجريح . ان معنويات المجاهدين قوية جدا ، وعند سنوح الفرص سأنقل اليكم اخبارا جديدة . والله جل جلاله عون للمدافعين عن حقوقهم .

الامضاء : **الامير عبد المالك**

---

(14) تاريخ الرسالة 28 ذي الحجة سنة 1333 هـ : 16 تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1914 . عن جريدة (الاحرار) البيروتية 1930 السنة التاسعة . لكن التاريخ منزوع من القصاصة .

(15) يعني الامير عبد القادر . والوثيقة مليئة بالاخطاء التي ليست في حاجة الى تنبيه .

الوثيقة رقم 2 :

رسالة من الامير عبد المالك الى ابن اخته سيدى مصطفى

الحمد لله وحده.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

ابن اختنا الشريف الأجل النزيه الافضل سيدى مصطفى رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله . وبعد فلا زائد على ما قدمناه لكم سوى اننا بعد الاسترعاء (؟) التام على قبيلة اولاد بكار الداخلة تحت حكم الفرنسيس لم يرد الله بها خيرا فركبنا اليها صبيحة يوم الثلاثاء متم الشهر الفارط فى وسط محلتنا السعيدة . ولما اشرفنا على أول بلادهم تلقانا أولاد على بن منصور منهم متضرعين صاغرين وعرقبوا علينا فعفونا عنهم رعيا لضعفائهم وحريمهم وصبيانهم . ودخل بقية قبيلتهم طيش كبير . وقابلونا بالبارود فاطلقنا اليد للمحلة فيهم فلم يكن الا كلمح البصر أو هو أقرب حتى صارت بلادهم حصيدا كأن لم تغن بالأمس . واستولت جنود الله على سائر اموالهم وماشيتهم وسائر ما يملكون على اختلاف انواعه وحرقت دورهم على الوفاء والتمام . ورجعنا ولله الحمد سالمين ، والعناية الالهية تحفنا . ولم يصب منا ولا من خيلنا الا فرسين (كذا) أحدهما قتل والأخر جرح .

وفى مغرب الغد وردت علينا الانباء بنزول العدو بعين بوقلال بين أولاد بكار والبرانيص ومكناسة . فنهضنا فجر يوم الخميس معتصمين بحبل الله الذى لا ينفصم . وغيرنا الطريق الاول فتوجهنا على قبيلة مغراوة . ولما اشرفنا على وادى أولاد بكار ظهرت لنا المحلة المذكورة وعلى اطرافها جيش العدو يرعد ويبرق فتوكلنا على الله سبحانه واستنصرناه فنصرنا واستوهبنا منه المعونة فاعاننا . واشتبت القتال بيننا وبينه . وغدر أولاد على بن منصور المذكورين (كذا) فحمى الوطيس وشمر المجاهدون عن ساعد الجد والاجتهاد واحتلوا قصبة أولاد على بن منصور ، فجعلها العدو أمامه ودفع طالعا اليها فتقهقر المجاهدون عنها . ولما رأينا الامر كذلك وجهنا مودا كبيرا تحت رئاسة القائد عزوز المركاتى الغياثى لافتتاحها والاستيلاء عليها . ونزلنا بمن معنا من أنصار دين الله على رتبة مقابلة لها . وشمرنا بمن بقى معنا على ساعد الجد لنجد عن المود المذكور من يقابله حتى يصل الى جوار القصبة . فتمم الله العمل وانجحه . وفى ظرف عشرين دقيقة كان المود المذكور بوسط القصبة فاقتفينا اثره بمن معنا فوصلنا اليها وشب الحريق فيها . واحتوى المسلمون على جميع ما احتوت عليه بسائر أنواعه رغما عن حماية العدو لها بعدده وعدده .

ولما تم الاستيلاء عليها خرجنا منها وحمى الوطيس واشتبت القتال . وفى عشية النهار انكسر العدو الى خزاينه . ولم يصب من حزبنا الا رجل غياثى استشهد ، وقتل اربعة أفراس وجرح غياثى آخر . فتعين علينا المبيت بتلك النواحى فبتنا متفرقين شذر مذر بقبيلة مغراوة .

وفى فجر يوم الجمعة نهض العدو قبل اجتماع المحلة وطلع على وادى أولاد بكار وحرق بعض دور قبيلة مغراوة كان افرغها أهلها فى اليوم السابق فتسابقت اليه الرجال من الشعاب والآكام ، واشتبت القتال بيننا وبينه . وكان اليوم مهيبا والموت رهيبا . ووهب الله المسلمين الثبات وصبروا صبر

أولى العزم الكرام . وتلقو (كذا) قنابلـه وصواعقه بقلوب ملئهـا (كذا) الايمان بالملك العلام . وفى آخر النهار وهبوا نصرا باهرا . واشتد القتال فلم يكن من العدو الا أن فعل فعلته فى اليوم السابق من الانكسار الشنيع . فحينئذ قوى الايمان فى صدور المسلمين وصاروا يطاردونـه مطاردة الكـرة بين الصبيان ، الى ان اسدل الظـلام رداءه ووصل العدو الى مقـره فافتـرق الجمع على عشرة من القتلى ونيف سبقت لهم من الله العنايـة . وجرح رجـل واحد مغراوى . اما جهة الظلمة فتحقق لدينا يوم تاريخه موت القبطان كودير حاكم عسة باب المروج وسبعين عسكريا فرانسويا ، زيادة على قتلى المتنصرة من أولاد بكار ومكنـاسة . ونرى على الحضيض اربعين فـرسا . وقد خلفنـا باكام الموقعة عسسا . ورجعنا الى المحلة فى منتصف ليل يوم الجمعة . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

اما العدو فلم يبد حراكا يوم تاريخه من جهتنا ولاكن ظل يكابد الاهوال مع قبيلة غياثة التى انجدتنا من وادى بولجراف (؟) بين قصبة مسرة وتازة. ومن جهة اخرى على بنى بويعلى الذين انجدونا من ناحية سيدى احمد زروق .

وفى هذه الساعة التى هى العاشرة من الليل ، يوم السبت وردت علينا الانباء باستعداده للقتال معنا صبيحة الغـد . ونحن مصممون على الركـوب للقاته . والنصر من الله .

وعليه فلا بد اعلم الطبيب بذلك كله . وقل له اننا فى غاية العجب من عدم ارساله الدراهم لنا فى هذا الوقت الحـرج . وطالما كتبنا لكم فى شـأن ذلك وشرحنا لكم الحال على وجهـه . وملخصه ان هـذا الامر اوله الدراهـم وآخره الدراهم . ومع ذلك لم تعيرونا التفاتا . وقل له اياكـم ان تتركونـا غارقين فى هذا البحر الذى اركبتمونا اياه ، بل داوموا لنا مساعدتكـم حتى نبلغ الى شاطىء النجاة بحول الله . والمعتقد فيكم هو النظر لهذا الامر بعيـن العناية والاهتمام . فالعجل العجل ! الغوث الغوث ! فان فى تأخيركم ذلـك الغرض مضرة كبرى ومفسدة عظمى . وما على الرسول الا البلاغ . ومن انذر فقد اعذر . والله يوفق الجميع لما فيه رضاه . والسلام .

فى 4 صفر الخير عـام 1334 هـ

عبد المالك بن الامير عبد القادر

(النص أعـلاه مكتوب بخط مغربى ، لكن بتوقيع الامير عبـد المالك . وقد ذيله الامير بكلمة مع توقيعه . وهذه الكلمة بخطه خلافا للنص أعلاه . وهى هذه :)

اطلع ولدنا العزيز الامير حسن على هذا الكتـاب . وانى اهديه وكافـة الاهل سلامى واحترامى الابوى . وارجو الله ان يكونوا جميعهم بخير وعافية. ولا شك أنهم يطلبون لنا النصر من الله سبحانه فى كل وقت وعند كل صلاة. والرجاء فى الله جل جلاله ان نتلاقى ونحن وآياهم على الحالة التى نتمناهـا . والله يحفظكم جميعـا .

وليداوم ولدنا على دروسه ، ولا يبقى يرسل لنا شىء (كذا) على يـد السيد حميدة الوزانى ، بل اذا اراد ان يرسل شيئا يرسله بواسطة القـائد البشير بن السناح (؟) أو من جهة بوغابسن . والسلام على الجميع .

عبد المالـك

الوثيقـة رقـم 3 :

رسالـة من ممثل الدولتين الالمانيـة والعثمانية بمدريـد الى الامير عبـد المالــك

« الحمـد لله وحـده

دامت سعادة الارضى ، الشريف البركـة الاعز الاحضى ، المجـاهد فى سبيل الله سيدى عبد المالك بن الامير عبد المالك (15) محى الدين نصركم الله على عدوكم . وسلام عليكم لا يعد ولا يحصى .

وبعد قد وصل لعلمنا ان فى المغـرب صار الخبـر ان خروج الضبـاط العثمانيون من خدمتهم فى المغـرب قد سببه تبريد المعـاهدة والصحبة بيـن الدولتين العثمانية والالمانيـة . والآن نعلمكم ان كل ذلـك هو آكـاذب وان الدولتين المذكورتين يجتهدون الآن كما فعلـوا فى المـاضى جميع جهدهمـا لينصروا على أعداء الاسلام ، وكذلك أنهما شددوا معـاهدتهما وصحبتهمـا بعاهد جديد قد فرزوا فيه ما يكون فى المستقبل ، يعنى بعد كمال الحرب .

اما سبب خروج الضباط العثمانيون من المغرب هو امر نفسيا ولم هو شهادة ان خليفة المعظم يسمح فى اعانته لاستقلال المغرب . ولنظهر لسادتكم ان المخزن العثمانى لا زال على فكره فى استقلال المغرب . نعلمكم ان الوزير الحربى العثمانى سعادة وحضرة انفر باشا يرسل فى المواجبة الاولى ضباط عثمانيون جدود الذين بصحبة الضباط الالمانيون يعونون المسلمين ليحررهم من يد الفرنسيون دمرهم الله .

والآن جميع الاخبار الذين يصدرون فى صورة سمح المخزن العثمـانى فى اعانته للمغربيون اوجب الدولة الالمانية ان يتملك المغرب الاقصى يكونون اخبار غير حقيقيين . ولا يخفى على سيداتكـم ان كل ذلك يصدر من أعـداء المسلمين ليبردوا نفوس المغربيون الذين يجاهدون لاستقلال وطنهم ولشرف دينهـــم .

أما نحن فعندنا الامر من مخزننا ان نتوقفوا جميع الوقوف من المغـرب لان المغربيون ينضربون أيضا (كلمة غير مقروءة) أعـداء الاسلام وأعـداء الالمانيون . فالمطلوب من سيداتكم ان تعلموا المسلمين بكل ذلك . جزكم الله بخيره . ودمتم فى هناء وسرور وعلى المحبة . والسلام .

مدريد فى 25 مايو عام 1916 .

سفير دولة الالمانية بمدريد	**نائب دولة العثمانية بمدريد**
(ختم الدولة الالمانية بالشمع الاحمر)	(ختم دولة الخلافة العلية بالشمع الاحمر)

الوثيقـة رقـم 4 :

بالشـــــام
شعــر من الامير عبد المالـك الى أسرة الامير عبد القـادر

عهـدى بكـم آل الاميـر كواكبــا — نشرت أشعتهـا علـى الاكــــوان
علم وحكـم والشجاعـة والنـدى — رفعـت منازلكـم على كيــــوان
ومنـــاقب وشمائـل ومكــــارم — وهبت لكـم من غـابر الازمـــان
والكـل يرجوكـم لدفـع ملمـــة — هدمت عمـاد الديـن والاوطـــان
فصرفتـم تلـك المكارم كلهـــا — فى غيـر ما نفـع ولا احســـان

(15) يعني الامير عبد القادر . والوثيقة مليئة باخطاء لا تحتاج الى تنبيه .


الحمد لله وحده

دامت سعادة الأمير الشريف البركة [illegible] الأمجد السيد عبد المالك
بن الأمير عبد المالك محيي الدين نصركم الله على عدوكم وطال [illegible]
قد وصل لعلمنا أنه في المغرب صار الخبر أنه خروج الضباط العثمانيين من [illegible]
المغرب قد سببه تبديد المعاهدة والصحبة بين الدولتين العثمانية والألمانية [illegible]
أنه كلام ذلك هو الكذب وأن الدولتين المذكورتين [illegible] الآن كما [illegible]
جميع جهدهما لينتصروا على أعداء الإسلام وكذلك [illegible] معاهدتهما وصحبتهما
بعاهد جديد قد عزموا فيه ما يكون في المستقبل [illegible]
أما أسباب خروج الضباط العثمانيين من المغرب [illegible]
[illegible] لإعانته للاستقلال المغرب [illegible]
العثمانية لا زال [illegible] باستقلال المغرب [illegible]
سعادة وحضرة أنور باشا يرسل في المواجهة الأولى ضباط عثمانيون [illegible]
بصحبة الضباط الألمانيين [illegible]
وكان جميع الأخبار الذين [illegible] الحرب العثمانية [illegible]
أو من الدولة الألمانية [illegible] المغرب الأقصى [illegible] أخبار غير [illegible]
ولا يخفى على سيادتكم أنه كلام ذلك [illegible] أعداء المسلمين [illegible]
الذين [illegible] للاستقلال [illegible]
[illegible]

الشكل رقم 9 : رسالة من ممثلي الدولتين الالمانية والعثمانية بمدريد الى الأمير عبد المالك .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .

ضحيتم أقماركم وشموسكم — أسد الحروب وقاهرى الاقران
في نفع من أضحى لكم في فعله — أعدى عدو من بني الانسان
ونسيتم عبد المجيد وفضله — وضمانه ذاك الاسير العاني
لولاه لم يطلق سراح سبيله — وبقي لديهم في نوى وهوان
الفرقة هدمت شوامخ مجدكم — هذا لعمرى غاية الخسران

عن قبيلة غمارة .

لست من أهل هذا الشأن ولكنها نفثة مصدور . والسلام عليكم .

14 ربيع ثاني 1338

عبد المالك

الوثيقة رقم 5 :

الى الامير عبد المالك من مجهول

اننى مكلف أن احيطكم علما بأن مطالبك مقبولة ما عدا تعديلا واحدا يبدو ضروريا يتعلق بنقطة خاصة ، وهى خطة سفرك .

ان الشخصية السامية التى تعرفونها والتى جاءت حديثا تلح على أنكم تمرون بفاس والرباط حتى يمكنكم تقديم تحياتكم الى المخزن بدون تأخير . ثم ان كل التسهيلات ستكون متوفرة لديكم لزيارة أسرتكم فى تطوان .

وان الموظف الذى طلبتم حضوره كواسطة هو فى الطريق . ويجب عليه ان يمر بالرباط لاخذ تعليمات من المخزن . وخلال أيام سيكون في فاس . وبمجرد وصوله الى هنا سيحمل اليكم الرسالة الحقيقية والرسمية التى تطلبونها .

ابعث اليكم مبعوثنا العادى لكى يطلعكم على الحوادث . وسيخبركم بأن تنتظروا بعض الايام الاخرى . وأتمنى ان يحل المشكل قريبا برضى الجميع .

16 سبتمبر ، 1920 — **(بدون امضاء ولا جهة ارسال)**

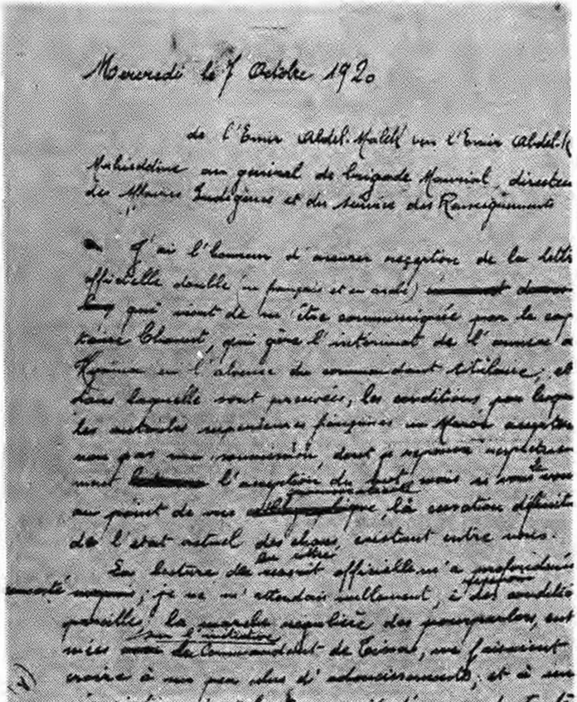
الوثيقة رقم 6 :

من الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر محى الدين
الى الجنرال موريال مدير الشؤون الاهلية ومصالح الاستخبارات

الاربعاء 7 اكتوبر 1920

اتصلت بالرسالة الرسمية باللغتين العربية والفرنسية التى سلمها الى الضابط كانوت الذى يتولى بالنيابة ملحقه الحياينية فى غياب الضابط المسؤول ، وهى الرسالة التى تحتوى على توضيحات عن الشروط التى بمقتضاها ستقبل السلطات العليا الفرنسية فى المغرب ليس استسلامى ، وهى الكلمة التى ارفض قبولها بكل تقدير ، ولكن اذا شئتم من الناحية اللغوية ، التوقف النهائى للوضع الحالى الموجود بيننا .

ان قراءة هذه الرسالة الرسمية قد أقلقتنى لاننى لم اكن اتوقع أبدا أن تصلنى مثل هذه الشروط . فالمفاوضات العادية التى بادر بها الضابط دى تيسة جعلتنى أتوقع مزيدا من اللطف ، كما جعلتنى اعتقد فى مفاوضات ذات لهجة مجردة من كل دافع تحكمى، زيادة على ان الفشل الذى يكاد يكون


Mercredi le 7 Octobre 1920

de l'Emir Abdel-Malek ben l'Emir Abdelk[ader]
Mahieddine au général de brigade Maurial, directeur
des Affaires Indigènes et du Service des Renseignements

J'ai l'honneur d'accuser réception de la lettre
officielle double (en français et en arabe) [illegible]
[illegible] qui vient de m'être communiquée par le capi-
taine Clément, qui gère l'intérim de l'annexe de
[illegible] en l'absence du commandant [illegible], et
dans laquelle sont précisées, les conditions par lesq[uelles]
les autorités supérieures françaises au Maroc accepte[nt]
non pas ma soumission, dont je repousse [illegible]
ment [illegible] l'acception du mot, mais ce à quoi [illegible]
au point de vue [illegible] la cessation définitive
de l'état actuel des choses existant entre nous.

La lecture de [illegible] officielle m'a [illegible]
[illegible]; je ne m'attendais nullement, à des conditio[ns]
pareilles! la [illegible] régulière des pourparlers, ent[amés]
mis [illegible] le Commandant de [illegible], me faisaient
croire à un peu plus d'adoucissements, et à une
négociation dont le ton serait dépourvu de toute
allure autoritaire; au [illegible] l'[illegible] des effor[ts]
[illegible] pourtant louables, entrepris par le command[ant]
[illegible]

الشكل رقم 10 . الصفحة الاولى من رسالة الامير عبد المالك الى الجنرال موريال ، مدير الشؤون الأهلية ومصالح الاستخبارات .

من الوثائق الشخصية للامير حسن .

خياليا للجهود التى بذلها الضابط المسؤول فى الدائرة وخلفه المؤقت الضابط كانوت قد سبب لى أسفا مريرا .

ان الشرط الذى بمقتضاه سأجبر على تحديد اقامتى فى مدينة تقع فى المنطقة الفرنسية ستحدد لى فيما بعد ، والذى بمقتضاه ايضا سوف لا يسمح لى بتغيير الاقامة بدون اذن خاص ، يمس بشدة من حريتى . فانا لا أرضى ان اعيش حياة أسير ولو معنويا .

وبالاضافة الى ذلك ، فان عزمى على مغادرة التراب المغربى آمر لا رجوع فيه .

اما عن دخولى من نقطة ما فى المنطقة الفرنسية فانه آمر يستحيل تحقيقه ماديا ، كما ان حياتى ستكون مهددة بأخطار جسيمة . لذلك فانه من الحكمة والحذر تفاديه .

واما عن تلميحكم الى موضوع هذه الشروط التى هى فى نظركم سهلة المنال ، ما دمتم قد ذكرتم لى بأنها لا تمنح لى الا بدافع التسامح المتناهى ، فاننى اعتقد كما يعتقد الجميع ، أن التسامح والاريحية هما بصفة استثنائية من شيم الجنس الفرنسى . وقد اثبتهما التاريخ مرارا .

لكن الذى مس كرامتى بشدة والذى ارفضه ترفعا واشمئزازا هو كلمة « تمرد » التى لعلكم قصدتم بها وصف الدور النبيل والفروسى الذى لعبته ببطولة خلال الخمس (سنوات) الماضية من آجل قضية عزيزة على نفس متحمسة ومصممة ومتلهفة للحرية والعظمة . واذا كان الحظ قد خاننى بعقوق فاننى لا آسف ولن آسف أبدا على ما فات . ولو كنتم مكانى حضرة الجنرال لن تتصرفوا بغير ما تصرفت . (؟)

لذلك ارجوكم ، حضرة الجنرال ، ان تسجلوا حالا الشروط التى سبق أن قدمت لكم والتى سأعددها لكم مضيفا اليها شرطا سيكون مقبولا بدون صعوبات جديدة ، وهو الحصول على رخصة من السيد المقيم العام بمغادرة التراب المغربى والاقامة فى اسطانبول (رومة ؟) ، وهذه الشروط هى :

1) العفو التام عنى بغض الطرف عن الماضى .

2) اعادة املاكى التى صودرت فى طنجة ، كما سبق لى ان ذكرت لكم .

3) سفرى الى الرباط لا بد أن يكون عن طريق تطوان ، اى لرؤية عائلتى هناك قبل القيام بزيارتكم .

ارجو منكم ان تحيلوا من جديد ما ذكرته لكم الى السيد الجنرال ليوتى لموافقته وأن تخبرونى فى أقرب وقت ممكن بقراره الاخير بواسطة قائد دائرة الحياينية .

وتفضلوا ، حضرة الجنرال ، بقبول تقديرى .

(بدون توقيع)

الوثيقة رقم 7 :

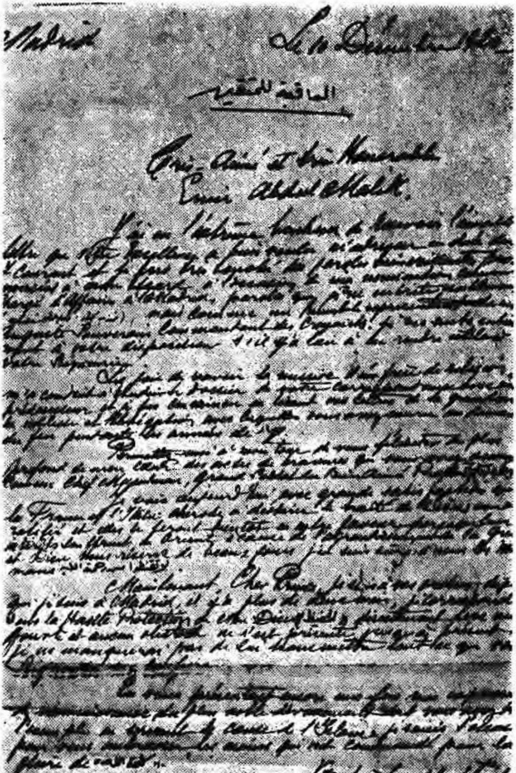
رسالة من القائم بالاعمال العثمانى فى مدريد الى الامير عبد المالك

مدريد ، 10 ديسمبر 1920

(العاقبة للمتقين)

عزيزى المحترم ، الامير عبد المالك :

لقد غمرتنى السعادة بتلقى الرسالة اللطيفة التى تفضل جنابكم



Madrid

Très-Aimé et très Honorable
Emir Abdel Malek.

الشكل رقم 11 . رسالة القائم بالأعمال العثماني في مدريد الى الامير عبد المالك .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .

بتوجيهها الى بتاريخ السابع الجارى . وقد تأثرت كثيرا بالعبارات الرقيقة التى عبرتم بها نحوى بمناسبة تسميتى قائما بالاعمال بمدريد ، وهى العبارات التى لست أهلا لها مطلقا (أنا ـ عبارة غير مقروءة ـ) . ولكن باعتبارى ممثلا متواضعا لصاحب السيادة أمير المؤمنين فانى أضع نفسى فى خدمتكم اذا كنت فعلا أفيد جنابكم .

ان الفرحة التى غمرتنى نتيجة تلقى رسالة أخ فى الدين قد دفعتنى الى دراسة ملف مراسلاتكم مع سلفى . وقد اقتنعت عند قراءة رسائلكم ، بالعظمة والنبل والتجرد ، هذه الصفات التى جابهتم بها لهيب المعركة خلال سنوات (الجهاد) .

واسمحوا لى ان اهنئكم بدورى من اعماق قلبى على المواقف الشجاعة التى وقفتموها كقائد مسلم وجندى عظيم من جنود الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

واليوم اسجل بارتياح ان فرنسا واطاليا تسعيان الى ابطال « معاهدة سيفر » التى كانتا قد وافقتا عليها وستفعلان ذلك قريبا لصالحنا لان مصالحهما قد تضررت فى الشرق نتيجة توسع اليونان . واننى واثق من ان الله سيرزقنا أياما طيبة نحن المسلمين (ولا تقنطوا من رحمة الله) .

أما الآن ، يا حضرة الامير ، فاننى فى خدمتكم . فمنذ حلولى بمدريد ، أى منذ اكثر من شهرين ، وأنا اتراسل مباشرة ، برعاية الله (الحفيظ) مع حكومتى ، والى الآن لم تواجهنا عقبات . وسوف لا أتردد فى ابلاغها كل ما يرغب فيه جنابكم منى .

وانى اذ اقدم لكم مرة اخرى أقصى عبارات الاعتراف باخلاصكم النبيل الذى برهنتم عليه بخدمة الاسلام ، اغتنم الفرصة لأقبل الايدى التى قادت الى اعلاء (كلمة الله) .

أخوكم المخلص المتواضع
خليل حقى

دور الآداب والفنون عموما والشعر والموسيقى خصوصا

في تعزيز أخلاق أمة أو انحلالها، وفي شحذ عزائمها أو قتل روحها

د. عمر فروخ
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباى



ان هذا الموضوع الرابع من موضوعات الملتقى التاسع مهم جدا ، وخصوصا في الزمن الذى نحن فيه ، لا لان الامة الاسلامية لم تمر بمثله من قبل ، بل لان عناصر الدفاع الذاتى التى كانت موجودة من قبل للحفاظ على الامة يغيب اليوم أكثرها • ولقد تنبه كثيرون لهذا الامر فكتب فيه الكاتبون كثيرا • غير أن الذين كتبوا فى هذا الموضوع قد أوغلوا كثيرا فى التاريخ حتى رد بعضهم بدء التاخر الذى نشهده اليوم الى صدر الاسلام الاول ومقتل عمر بن الخطاب • أما أنا فاحب ان اجمع كلامى من العصر الذى نحن فيه لارى ـ من خلال ذلك ـ صورة المستقبل المطل علينا •

كتب هذا الموضوع فى أثناء الفتنة الاخيرة فى لبنان من 13 الى 19 ـ 4 ـ 1975 •
وهناك عدد من الحواشى وشىء من النماذج لم أعثر عليها فى مكتبتى الخاصة •
ـ وهذه الدراسة ألحقها الكاتب بالدراسة التى القاها فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان ، وهى تلقى مزيدا من الاضواء على هذا الموضوع ـ

وأحب أن أحيل هذا العنوان للموضوع ثم أعيد تركيبه كما يلي :

يكون تطور الامة ورقيها بتعزيز الجانب الخلقي فيها وبشحذ عزيمتها للنهوض أو للاستمرار في الرقي ـ ويكون تأخرها ثم انحلالها بقتل روحها ، أي بسلبها مقومات الحياة ٠ ـ والاسباب الفاعلة في تقدم الامم وتأخرها كثيرة جدا ، منها حال الآداب والفنون عندها ٠ ويحسن التاكيد هنا على الشعر في نطاق الآداب ، وعلى الموسيقى في نطاق الفنون ٠

* * *

ولكن يحسن قبل البدء بتحليل الموضوع المطروح أن أشير الى عدد من العوامل التي ليست أقل أثرا ولا خطرا ، فيما نشكو منه ، من أثر الآداب والفنون ، وان كنت أنا هنا سأقيد نفسي بالعوامل المطلوبة في الموضوع المطروح ٠ فمن هذه العوامل كلها مسرودة على غير نسق :

الصحافة الجديدة ـ النظريات الادبية المستحدثة ، والشعر الجديد ، والقصص ـ النظريات التربوية والكتب المدرسية وكتب المطالعة للاطفال خاصة ، والمناهج المدرسية في جميع المراحل ـ الادب المكشوف ـ الفنون غير الفصحى في الرسم والموسيقى والغناء والشعر ـ التمثيليات الخفيفة في الاذاعات خاصة ـ الازياء ـ المسكرات وحياة الليل ـ الاحزاب ذات الاتجاهات المتضاربة وما تدعو اليه تلك الاحزاب من مظاهر الحرية والاباحة والشخصية الفردية ـ وسائل الاعلام الخاصة والعامة كالسينما والمناشير والكتابات على الجدران ـ اتلاف العنصر الروحي ـ الترف الظاهر باقامة المدنية المستهلكة لاسباب المعاش مكان الحضارة المنتجة لاسباب المعاش ـ اندفاع الكثرة من الامة الى حب القيام بالخدمة براتب مضمون بدلا من العمل الصناعي المنتج مع شيء من المغامرة ـ الرغبة في العلم النظري بدل العلم العملي ـ اثقال جهاز الدولة بالموظفين مع وجود جماعات منهم في غير المحل اللائق أو النافع ٠

* * *

لا شك في أن الآداب عامة والشعر خاصة ثم الفنون عموما والغناء على الاخص أشد أثرا في مجموع الناس من سائر وجوه الآداب وسائر وجوه الفنون ٠ والشعر أشد تأثيرا في النفس من النثر ، والغناء أشد فعلا في النفوس من الشعر نفسه ٠ ذلك لان

المستمعين الى الغناء والمتاثرين به هم فى العادة أكثر عددا من الذين يقرأون الشعر ويفهمونه • ثم ان الذين يقرأون الشعر يقرأون فى معظم الاحيان ما يختارون ثم يقرأون القدر الذى يريدونه • أما الموسيقى والغناء فان الامر فيهما مختلف جدا • ان الاذاعات المسموعة والمرئيّة تفرض على الناس ما تشاء هى ، ولان الكثرة من الناس تعتقد أن الغناء والموسيقى للترفيه لا للتثقيف • ولقد اتفق لى مرارا كثيرة أن كنت فى مجتمع عام أو مجتمع خاص أو فى سيارة عامة ، وكان البث من الاذاعة المسموعة مستمرا • فاذا اتفق أن انتقل البث الى حديث أو أخبار أو تعليق على الاخبار رأيت أيدى الناس تسرع الى مفتاح الاذاعة لتبحث عن محطة تبث غناء أو موسيقى •

أما أثر الشعر بين فروع الادب فقريب من أثر الغناء والموسيقى بين فروع الفنون • ان الشعر أقصر وحدات من النثر فهو مِنْ أجل ذلك أقرب الى العلوق بالذهن ثم هو ، بما فيه من الموسيقى فى الوزن والقافية ، أقرب الى العاطفة الثائرة منه الى العقل الهادئ وأحفل بالصور الخيالية التى تجمل فى مخيلة جمهور الناس • وأكثر موضوعات الشعر ـ بخلاف موضوعات النثر عامة ـ وجدانية عاطفية خفيفة تفعل فى أنفس القراء العاديين فعلا شديدا ، وخصوصا اذا علمنا أن جمهور الناس يفهم من الشعر والنثر ومن الغناء والموسيقى ما يتهيأ له فهمه ، أى ما يقدر هو على فهمه أو ما يريد هو فهمه ، أكثر مما يدركِ من المعانى الحقيقية فى الشعر والنثر ومن الاهتزاز الصحيح فى الغناء والموسيقى • وسأضرب هنا عددا من الامثلة تجمع بين الشعر والغناء وتبين أن معظم الناس لا يفرق بين المعنى والمعنى ، ولكنه يؤخذ باللفظ الذى يظن أنه يفهم معناه وبالنغم الذى يظن أنه يدرك سلوكه فى النفس • حتى لو أن سائلا سأل سامعا عن كلمات تغنى لما استطاع ذلك السامع فى أحوال كثيرة أن يعرفها أو أن يدرك معانيها اذا هو فهمها أو ظن أنه فهمها • من ذلك مثلا أن محمد عبد الوهاب يغنى فى شعر شوقى :

وتأودت أعطاف بانك فى يدى   واحمر من خفريهما خداك !

فيقول : •••   واحمر من خضريهما خداك •

من غير أن يفطن كثيرون الى أن كلمة « خضريهما » غير مؤتلفة وجاراتها • ومع ذلك فان هؤلاء السامعين يظهر الطرب عليهم لبيت لم يبق له معنى •

وكذلك يغنى محمد عبد الوهاب فى شعر مهيار الديلمى :

أعجبت بى بين نادى قومها   أم سعد فمضت تسأل بى !

فيقول : أعجبت بى   ذات حسن ... !

والرجل العادى لا يفطن للمعنى المراد ، اذا كان الذى غناه لم يفطن له او لم يشأ ان يفطن له او فطن له ثم بدله بعد ما عرفه !

ان هذا التبديل هنا قد أفقد أبيات مهيار الديلمى معناها المقصود . كان مهيار فارسى النسب مسلم الايمان ، فقال ان ام سعد ، و «أم سعد» كناية عن العرب ، أعجبها أدبه (سلوكه فى الحياة وخلقه) مع انه فارسى . ولذلك قال مهيار عن أم سعد العربية :

سرها ما علمت من خلقى   فأرادت علمها ما حسبى

ويقصد مهيار بالحسب هنا : العمل الحميد الذى هو من توابع الاصل الشريف ، فأجابها :

لا تخالى نسبا يخفضنى   أنا من يرضيك عند النسب

وبعد ان يذكر مهيار فضائل قومه الفرس يختم مقطوعته الجميلة بقوله :

وجمعت المجد من أطرافه :   سؤدد الفرس ودين العرب !

فانظر الآن قوله « ذات حسن » فى البيت الاول مكان « أم سعد » ، كيف أفسد معنى الابيات كلها وكيف أتلف اللفتة البارعة عند الشاعر :

وجمعت المجد من أطرافه :   سؤدد الفرس ودين العرب !

فاذا كان هذا الذى مر بنا يحدث فى غناء الموسيقار محمد عبد الوهاب فى شعر شوقى امير الشعراء فى العصر الحديث وفى شعر مهيار أحد أمراء الشعر الوجدانى فى الادب العربى ، فما بالك بالذى يحدث فى غناء القاصرين فى المعرفة الفنية فى الغناء او الشعر او فى الغناء والشعر معا ؟

ولما غنت اسمهان الابيات :

ليت للبراق عينا فيرى   ما أقاسى من عذاب وعنا !

غنت فى بيت تال :

.... عذبونى ، ضربوا   جسمى الناحل منى بالعصا !

مكان قول الشـــاعر :

• • • • • ضـــــربـــوا   موضع العفـــة منى بالعصـــا

لقد افسد الغناء بيت الشاعر وأتلف فيه الكناية «ضربوا موضع العفة» ، وهى عقدة الابيات كلها ومدار القصة التى اوجبت نظم هذه الابيات •

هذه الشواهد لم يؤت بها هنا لانتقاد المغنين ــ فان المثل القائل : ليس على المطرب أن يعرب ، مثل مشهور ــ ولكن جيء بها هنا لتدل على أن السامعين للغناء فى العادة ، ومن جمهور الناس ، لا يلقون بالا الى معانى الشعر المغنى بقدر ما يندفعون مع عواطفهـــم وخيالهم بما يخيل اليهم من مرامى الغناء فى أنفسهم هم • ولكى ندرك أثر المعنى المتخيل فى اللفظ العادى واللحن المالوف أقول ان فريد الاطرش يردد فى احدى أغنياته : بحبك، بحبك (أحبك، أحبك) نحو عشرين مرة ثم جماعات من الناس يموجون مع ترداده هذا موجا عنيفا •

كل هذا يدل على أثر الغناء خاصة فى مجموع الناس من الناحية العاطفية • وهـــذا بطبيعة الحال يؤدى الى أثر بالغ فى الخلق الشخصى ثم فى السلوك الاجتماعى الـــذى يتصل صلة وثيقة بحال الامة وفى سيرها فى الحياة صعدا أو فى انحدارها الى التخلف •

* * *

والكلام فى أثر الغناء خاصة ــ فى نشأة الفرد وفى حال الجماعات ــ قديم جدا • قال اخوان الصفا (رسائل اخوان الصفا 134/1) :

« ••• ان لصناعة الموسيقى تأثيرات فى نفوس السامعين مختلفة ••• فمن أجـــل (ذلك) يستعملها كل الامم من بنى آدم ، وكثير من الحيوانات أيضا • ومن الدليل على أن لها تأثيرات فى النفوس استعمال الناس لها تارة عند الفرح والسرور فى الاعراس والولائم والدعوات ، وتارة عند الحزن والغم والمصائب وفى المآتم ، وتارة فى بيـــوت العبادات وفى الاعياد ، وتارة فى الاسواق والمنازل ، وفى الاسفار وفى الحضر ، وعنــد الراحة والتعب ، وفى مجالس الملوك ومنازل السوقة • ويستعملها الرجال والنساء ، والصبيان والمشايخ ، والعلماء والجهال ، والصناع والتجار وجميع طبقات الناس » •

فالغناء والعزف ، اذن ، فنان من الفنون القديمة نشآ مع النشأة الطبيعية للانسان ، فعرفهما الانسان وعرف تأثيرهما ثم استخدمهما فى أفراحه وأحزانه وفى مواسمه وأعياده وفى عباداته • وأهل البلاد الحارة أميل الى الاستغراق فى هذين الفنين من أهل البلاد الباردة • والاطفال يهدأون عند سماع الموسيقى وينامون اذا طال التهليل على آذانهم •

فاذا كان أثر الغناء قويا فى النفوس الى هذا الحد ، فمن الواجب على العقلاء فى الاسرة وفى الدولة وفى المجتمع أن يجعلوا من الغناء أداة لتهذيب نفوس الافراد وللحفاظ على المسلك القويم فى الجماعة • ذلك من الناحية الطبيعية الفلسفية • أما من الناحية الدينية الاجتماعية فلم يكن الموضوع أقل قيمة ولا كان المصلحون أقل اهتماما به • فلقد ثار الجدال بين الفقهاء من المسلمين فى الغناء : أحلال هو أم حرام ؟ أو مكروه هو أو مندوب (اليه) ؟ والجدال فى هذا الموضوع طويل متشعب لا أرى أن أذهب بالسامعين والقراء فى مطاويه ، ولكنى أرى أن أورد قول الامام الغزالى ، فقد قال فى ذلك قولا مصيبا عاقلا ، هو :

« ويشترط فى اباحة السماع (الغناء) أن يكون السامع قد جاوز غرة الشباب أو تهذب تهذيبا نزعت به الشهوة من قلبه » •

ومن آثار الغناء أنه يصبح فى الافراد والجماعات عادة ثم ادمانا • يقول اخوان الصفا فى ذلك (رسائل اخوان الصفا 3 : 147 ـ 148) :

« ••• انك اذا تأملت وجدت لكل أمة من الناس ألحانا ونغمات وأصواتا يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم • وذلك لاختلاف لغاتهم وتباين أمزجتهم وطباعهم وما جرت به العادات والاخلاق • وهكذا يجرى فى أصحاب لغة واحدة : أقوام يستلذون ألحانا ونغمات وأصواتا لا يستلذها غيرهم من (أبناء) لغتهم • وهكذا ربما تجد انسانا واحدا يستلذ وقتا لحنا ما ويعافه وقتا آخر » •

ثم ان الغناء والعزف قد أصبحا عادتين جاريتين فى الافراد والجماعات ، فانهما بهذا يكونان وسيلتين صالحتين فى التنشئة والتهذيب لا تجوز الغفلة عنهما ولا أن يعهد بهما الى أيد غريبة أو الى أيد قريبة كالغريبة •

* * *

ذلك كان أثر الغناء من الفنون الجميلة فى التربية • وأما الشعر مـن الآداب فليس مكانه أقل أثرا ولا أدنى منزلة • واحب أن أرجع فى هذا الوجه من الموضوع المطـروح الى اخوان الصفا أيضا • قال اخوان الصفا فى أثر الاحتـكاك الشخصى والقـــدوة فى التنشئة ، وخصوصا فيما يتعلق بالصغار (رسائل اخوان الصفا 1 : 236) :

« ان العادات الجارية بالمداومة فيها تقوى (بها) الاخلاق المشاكلة لها ••• والمثال فى ذلك أن كثيرا من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب الســـلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم • وهكذا أيضا كثير من الصبيان اذا نشأوا مــع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربوا معهم وتطبعوا بأخلاقهم صـاروا مثلهم ، ان لم يكن فى الخلق كله ففى بعضه • وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الاخلاق والسجايا التى يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر اما بأخلاق الآباء والامهات أو الاخوة والاخوات ، والاتراب والاصدقاء والمعلمين والاستاذين المخالطين لهم فى تصاريف أحوالهم • وعـلى هذا القياس حكم الآراء والمذاهب والديانات جميعا » •

واذا نحن انتقلنا من هذا الاثر فى التنشئة بالاحتكاك والقدوة عامة الى أثر الشعر خاصة وجدنا قولا للفيلسوف ابن سينا كأنه متمم لقول اخوان الصفا فى هذا النطاق • قال ابن سينا فى رسالة موجزة له عنوانها « كتاب السياسة » (مقالات فلسفية قديمة ، ص 13) :

« فاذا اشتدت مفاصل الصبى واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعى سمعه أخذ فى تعلم القرآن وصور له حروف الهجاء ولقن معالم الدين • وينبغى أن يروى الصبى الرجز ثم القصيد ، فان رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن لان بيوته أقصر ووزنـــه أخف • **ويبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الادب ومدح العلم وذم الجهل وعيب السخف ، وبما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف وغير ذلك من مكارم الاخلاق » .**

ثم يقول ابن سينا فى « كتاب السياسة » (ص 14) :

« فاذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقته • فان أراد الكتابة أضاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه ذلك ، وطورح الحساب ودخل به الى

الديوان وعنى بخطه ··· وليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ··· ولو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطب دون المشاكلة والملاءمة ، لما كان أحـد غفلا من الادب وعاريا من صناعة ، واذن لأجمع الناس كلهم عـلى اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات » ·

* * *

وللعقلاء فى كل أمة وزمان ، حتى فى زماننا هذا ، حرص على ألا تتلوث أخـــلاق الفرد وأخلاق الجماعة منهم بشىء يضر بها ، وخصوصا حينما يكون الافراد وتكـــون الجماعات أحيانا فى طور التنشئة · فلقد اتفق فى النتاج الفنى ، فى الشعر وفى الرسم والنحت خاصة أن وضعت نماذج تدعو الحاجة اليها أو لا تدعو الحاجة اليها ، من تلـك النماذج التى لم تالفها البيئة الاجتماعية السليمة ولم يالفها العقل السليم أيضا · فقد تدعو الحاجة فى كتب الطب مثلا الى الكلام على الحياة الجنسية وعلى أسبابها ونتائجهـــا وتكون الرسوم الموضحة ضرورية فى ذلك · ولكن هذه الضرورة تظل مقصورة على كتب الطب وعلى الذين يحتاجون اليها فى كتب الطب · وليس ثمت حاجة الى أن توضع هذه الكتب أو أن توضع تلك النماذج منها بين أيدى الصغار الذين لا يدركون الغاية مـــن الحاجة اليها فى كتب الطب ·

وقد يخطر لرسام أو نحات أن يخرج بالالوان على الورق نموذجا للجسم البشرى ، من ذكر أو أنثى ، أو أن يفعل ذلك بالخطوط فى حجر أو حديد ، كل ذلك حتى يثـــق بأن معرفته بالتشريح صحيحة أو حتى يدل على العنصر الفنى فى هذا التناسق الموجـــود فى الجنس البشرى · وحينما يقف الدارس العاقل أمام هذه النماذج الفنية فان عقله يتبين الخطوط فى استقامتها وتعرجها والاقسام بمقاديرها ونسبها ، وقل أن يفكر فى ما وراء ذلك ، لان الاشياء التى أمامه ليست سوى ورق لا يحس وألوان لا تتحرك · أما أن ناتى الى هذه النماذج فنضعها فى الكتب النافقة والمجلات والصحف أو ان نرسمها على طوابع البريد ونبيعها للاطفال وأشباه الاطفال باسعار بخسة فامر لا يجوز بوجه · ومن أغرب ما اتفق أن دولا عربية مسلمة يصدر باسمها طوابع لنساء عاريات من النماذج الفنيـــة

المشهورة وغير المشهورة ثم تباع بعشرات الالوف لاطفالنا ولاطفال غيرنا باسمنا وهـذا أمر وراء العذر) .

وفى عدد من الاحيان يخطر لاديب ناثر أو شاعر أن يحبر شيئا من النتاج الوجدانى فى العاطفة الانسانية ـ خيرا أو شرا ، وقصدا أو عفوا ـ ويتفق أن يجتمع له من هـذا النتاج قدر معلوم ، ويكون فيه براعة فنية أو صورة لجانب من عصر يستفيد منها الدارس العاقل فى فهم العصر الذى عاش فيه ذلك الاديب • ومع أننا نعبس فى وجه هذا النتاج فاننا أيضا نحفظه ولكن نحجزه عن الذين لا يدركون المقصد منه •

لابى نواس ثلاثة عشر بابا من الشعر آخرها مجون فى لفظ صريح جدا • من أجل ذلك طبع الباب الثالث عشر من شعر أبى نواس مستقلا فى كتيب جعل عنوانه « الفكاهة والائتناس فى مجون أبى نواس » (بومباي 1316 هـ) ، منذ ثمانين سنة فقط • وليس العرب المسلمون الشرقيون وحدهم فى هذا الحرص على حجب ما لا يجوز لكل الناس أن يطلعوا عليه ، بل يشركنا العقلاء من كل أمة فى ذلك •

فى عام 1936 كنت فى باريس فى رحلة طويلة قضيت أكثرها فى الجامعة والمكتبات وخطر لى يوما أن أرى نظائر أبى نواس فى المجون عند الغربيين لان « الدراسة القصيرة » التى كنت قد خصصت بها أبا نواس ، فى عام 1933 ، قد نفدت وكنت عازما على طبعة ثانية • واتفق فى ذلك الحين أنى كنت فى مكتبة جنفياف فطلبت ديوان فيرلان وديوان بـيرون • سألنى المشرف على اعارة الكتب عن غايتى من الديوانين فأخبرته • ثم انـه أراد الاستيثاق فأريته بطاقتى من جامعة برلين • فأتى الى بالديوانين ، ولكن رغـب الى أن أجلس فى جناح معزول من قاعة المطالعة لان هذين الديوانين لا يعاران لمن يريد مطالعتهما فى خارج المكتبة • وكان الجناح الذى جلست فيه معزولا لانى أنا الذى أريد الكتابين لغرض علمى ، ولا حاجة الى أن أجلس بهما بين المطالعين الآخرين •

هذا فى باريس ، فى البلد الذى يقال فيه عادة ما يقال وما لا يقال • ولكن الانصاف أن نقول نحن : انك اذا كنت فى أى مكان أردت ، فانك تستطيع أن تجد الشىء الـذى تبحث عنه • فالذى يبحث عن الخير والخلق فى باريس يجدهما ، ومن بحث عن غـير ذينك فى غير باريس وجده أيضا • ان الحجارة والاشجار ومياه البحر والغيوم والجدران

والنوافذ والمقاعد لا تعرف شرا ولا خيرا لانها لا تحس عملا ولا خيالا ، ولكن الناس هم الذين يستخدمون هذه كلها فى الخير أو فى الشر • ان السكين فى يد الشرير أداة للشر ، ولكن هذه السكين نفسها فى يد الطبيب أداة خير قد ترد شيئا من الحياة الى من يقطع الطبيب جسمه بها •

هذه العناية التى أولاها المربون فى الشرق والغرب قديما وحديثا لاولادهم عناية صحيحة محمودة لانها تجمع الامة على الخلق الكريم والسلوك السليم • والخلق فى الامة هو القانون الاختيارى الذى يأخذ الافراد به أنفسهم على السلوك الشخصى والسلوك الاجتماعى • والجماعة تظل متماسكة ما دامت على مسلك واحد فى الحياة • فاذا تشعبت بها المسالك تفرقت قواها فضعفت ثم هرمت وذابت فى الاقوياء أو فقدت العيش الكريم• قال الله تعالى فى سورة الانعام (6 : 153) :

« وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله • ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » •

* * *

وقد تأمن الجماعة المتفرقة الهوى الناشزة عن الخلق اذا كانت فى عالم لا منافس لها فيه • أما اذا كان لها منافس خارجى أو اذا كانت موزعة الجهود ، فان الامر يصبح مختلفا جدا • وبلادنا الاسلامية لا يمكن أن تكون فى مأمن من المنافسة لانها على طريق التجارة والحرب وعلى مقدار عظيم من الثروة • من أجل ذلك كان النزاع بينها وبين خصومها مستمرا منذ الزمن الاقدم قبل ظهور الاسلام وبعد ظهور الاسلام • وحاول الغرب أن يضعف البلاد الاسلامية بوسائل كثيرة ـ ولن أتناول الكلام على العصر القديم والعصر الوسيط لاننى شرطت على نفسى أن يكون كلامى قاصرا على العصر الحديث • وأخيرا وقع الغرب على وسيلتين جديدتين فاستخدمهما بنجاح كبير مع الاسف •

أما الوسيلة الاولى فكانت القومية العربية جاء بها الينا فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر • ولم تكن القومية العربية شرا لو أن الغرب أراد جمعنا بها ، فكل أمر يجمع الامة على رأى واحد خير • غير أن القومية العربية التى جاءتنا ظلت نظرية يجادل كل قطر عن رأيه فيها • وبعد أن كان العرب يأملون ان يكونوا أمة واحدة أصبحوا

عشرين شعبا · ولكن هذا أيضا ليس من شرطى أن أتكلم فيه · ولكنى لما عددت وسيلتين وجب أن أعرف الوسيلتين ·

وأما الوسيلة الثانية فكانت « التجديد » الاخذ بجديد وهجر قديم · ووجد الغرب نفرا من العرب فى كل قطر يدعون الى قومية غير عربية : فرعونية وفينيقية وأشورية · وقام هؤلاء يدعون الى هجر كل قديم مهما يكن والاخذ بالجديد · ومعنى هجر القديم الاستغناء عن كل ما هو شرقى باعتبار أن الشرق قديم ، والاخذ بكل ما هو غربى باعتبار أن الغرب جديد · أى أنه جاء جديدا الى الشرق · وهنا تحضرنى قصة صغيرة تمثل هذا الموقف من القديم والجديد · دخلت مخزنا كبيرا لبيع المأكولات فى برلين وسالت اذا كان بامكانى الحصول على بيض طازج جديد · فقال لى المسؤول : نعم · ثم دلنى على صندوق فيه بيض · فنظرت فى الصندوق فاذا فيه ختم على كل بيضة : بلغاريا· فقلت للمسؤول : هذا غير طازج ، وهذا الختم عليه : بلغاريا ! فقال لى : كيف لا يكون طازجا جديدا وقد وصل الينا اليوم ؟

ومع هذه الوسيلة جاءت النظريات الجديدة فى الادب القديم والادب الحديث · ولا شك فى أن الغربيين قد اختاروا نفرا لا يقرأون فى مصادر الادب العربى ، والا فكيف يغيب عن هؤلاء قول ابن قتيبة : كل أدب بالاضافة الى ما قبله جديد ، وبالاضافة الى ما بعده قديم ·

وليس فى هجر القديم الذى لم يبق فيه شيء من مقومات الحياة ضرر · ثم ان فى أخذ الجديد نفعا ظاهرا · ولكن الضرر فى أن المجددين المتأخرين عدوا التجديد فى نقل الآراء الغربية وعدوا الجمود فى الادب العربى كائنا ما كان ·

لا أحب فى اثبات صحة هذا الرأى هنا أن آخذ شواهد من نفر من الادباء الذين نعدهم كبارا لان ذلك يقتضى أخذا وردا كثيرا · ان هؤلاء الادباء الكبار الناضجين كانوا يحتاطون فيما يقولون · من أجل ذلك تحتاج ادانتهم الى قول مستفيض لا يتسع له بحث فى مؤتمر · ولكننى سآخذ شيئا من أقوال أبى القاسم الشابى ، لان أبا القاسم الشابى كان ، لقلة اختباره وقصر عمره ، غير محتاط فى القول · وكذلك كان نفر من

المتحمسين لادب الشابى فى النقد يذهبون مذهبه • فلنسمع شيئا من أقوال هؤلاء قبل أن أقول ما الذى دفعهم الى قول ما قالوا •

ـ يقول الشابى فى محاضرته « الخيال الشعرى عند العرب » :

« ان أدب العرب مادى لا سمو فيه ولا الهام ولا تشوف الى المستقبل ولا نظر الى صميم الاشياء ولباب الحقائق • ولكنى لا أنكر أن الادب العربى قد أجاد ••• فى وصف مظاهر البادية ••• ان الادب العربى كان فى جميع العصور أدبا حيا صحيحا فياضا بكل ما تصبو اليه آمال تلك الشعوب (فى تلك العصور) ••• ولكنه لم يعد ملائما لروحنا الحاضرة ولمزاجنا الحالى ولاميالنا ورغائبنا فى الحياة • لقد أصبحنا نتطلب أدبا جديدا نضيرا يجيش بما فى أعماقنا من حياة وأمل وشعور • وهذا ما لا نجده فى الادب العربى ولا نظفر به لانه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون ، وانما خلق لقلوب أخرستها سكينة الموت • أما نحن فما زلنا بعد من أبناء الحياة ، ولهذا لا ينبغى لنا أن ننظر الى الادب (العربى) كمثل أعلى للادب الذى ينبغى أن يكون ، بل يجب أن نعده كأدب من الآداب القديمة التى نعجب بها ونحترمها ليس الا •••

••• ان كل ما انتجه الذهن العربى فى مختلف عصوره كان على وتيرة واحدة ليس له من الخيال الشعرى حظ ولا نصيب • والروح العربية خطابية مشتعلة لا تعرف الاناة فى الفكر فضلا عن الاستغراق فيه ، وهى مادية محض لا تستطيع الاتيان بغير المظاهر ••

••• ونقدة الاسلام كانوا لا يفهمون الادب على حقيقته التى ينبغى أن يفهم عليها والقدماء كعمرو بن العلاء وطبقته كانوا ينظرون الى الادب العربى كوسيلة من وسائل الدين لانهم كانوا لا يمارسونه ويدرسونه الا ليتفهموا غريب القرآن والحديث • وهذا الفهم الذى فهموا به الادب قد جعلهم لا يفهمون من الادب الا أنه ألفاظ وتراكيب وجمل وأساليب ليس وراءها روح ولا فكر •••

••• والطبقة الثانية من النقدة كان الادب فى رأيها وسيلة من وسائل اللهو ونوع (؟) من أنواع الشحاذة المنظمة وضرب من ضروب الاستجداء لا غير ••• »

وللشابى أنصار يذهبون مذهبه ويزيدون عليه فى العنف أحيانا • من هؤلاء :

ـ مصطفى رجب يقول فى كتابه « شاعران » (ص 87 ، 91) :

« خبرونى ، يا سادة ، أى شاعر عربى يستطيع أن يحدثكم حديثا مغريا صادقا ٠٠٠ بل أى شاعر عربى يستطيع أن يحدثكم عن الامل ؟ ٠٠٠ كانما الشاعر العربى آلة حاكية ليس لها من النفس البشرية حظ ولا نصيب » ٠

ـ خليفة محمد التليسى ، قال فى كتابه « الشابى وجبران » (ص 124) :

« ان الشعر العربى لم يعرف الزوجة الوفية والاخت الحنون والام الرؤوم » ٠

ـ أبو القاسم محمد كرو ، قال فى كتابه « كفاح الشابى » (ص 11 ـ 13) :

« كان الشعر العربى لا يحفل بالمجرى الانسانى الرفيع لحياة الانسان ولا يزيد عن خواطر عابرة ٠٠٠ فان الادب (العربى) عامة والشعر منه خاصة بوجه خاص قد احتفظا بروحهما القديم ، فلم تتغير أهداف الشعر ولا رسالة الشاعر ٠ وظل الشاعر (العربى) مهرجا كبيرا يحرز قصب السبق فى المبالغة والكذب » ٠

هؤلاء الذين قالوا هذه الاقوال ، وغير هؤلاء مما لا يتسع هذا البحث لذكرهم وللاستشهاد بأقوالهم لا يعرفون التراث العربى فى الادب ٠ وهم طبعا لا يعرفون التراث العربى فى الفلسفة وفى العلم ٠ ولكن هؤلاء مع الاسف يمكن أن يؤثروا فى تشكيل التفكير فى بيئاتهم لان الناشئين ـ وخصوصا الرافضين الذين كثروا فى أيامنا ـ يحبون أن يقرأوا مثل هذا الكلام ٠ ان هذا الكلام يحاول أن يرفع عن عاتق القارىء عبء التبعة فى الاهتمام بتراث أصيل عظيم ، وهذا العبء باهظ يتطلب عزما أكيدا وجهدا شديدا ٠ والرافض يحاول أن يتملص من كل تبعة وينفلت من كل رباط ٠ وأول خطوات التملص من التبعة والانفلات من الرباط أن يفلسف الرافض ـ أو أن يعلم أن يفلسف ـ الزمن فيقول : زمان قديم وزمان حديث ثم يقول ان القديم قديم بكل ما فيه ، والحديث حديث بكل ما فيه فيترك هذا الرافض قديمه لان عليه أن يفهمه بنفسه وأن يحافظ عليه بنفسه وأن يدافع عنه بنفسه ، وهذا أمر دونه حدد (أى حدة وشدة) ٠ ولكن من الاسهل على هؤلاء أن يأخذوا الجديد الآتى من عند غير قومهم ، فان هذا الجديد يصل اليهم ، أو يعطونه ، مشروحا ومقطوعا عن كل ماض وخالصا من كل تبعة ، فليس

عليهم أن يفهموه ولا أن يفهموا الا القدر الذى أعطوا • ثم ليس عليهم أن يحافظوا عليه ولا أن يدافعوا عنه لان ذينك الحفاظ والدفاع عمل غيرهم •

ثم لو ان هذا الامر الذى أخذوه عن غيرهم ، أو كانوا قد أعطوه ، انهزم لخذلوه وتركوه لانه ليس لهم ولا هو منهم • ولقد كانوا من قبل قد خذلوا تراثهم وتركوه •

ان كل ما يشرطه الفرد على نفسه ، وان كل ما تفرضه الجماعة على نفسها ، أمانة يجب القيام بها وأداء حقوقها • وذلك صعب على النفس ، والانفس تهوى السهل الهين ، وجديد الحاضر بما فيه من مفاجئة وبريق يبدو أحب الى النفس التى بدأ تفتحها بالقليل من الاختبار ، من قديم الماضى المثقل بالتبعة والحقوق والمألوف المسلك والبريق •

ونأتى الى الجديد من الغناء •

وموقف العرب ، والبشر كلهم ، من الغناء القديم والحديث قديم منذ كان الغناء • ان الغناء وجه من وجوه الادب كالشعر سواء بسواء • ولعل الغناء أقرب الفنون الى الشعر، أو هو أقربها • والخلاف فى جديد الغناء وقديمه كالخلاف فى جديد الادب وقديمه • وسأصف أسباب هذا الخلاف ومظاهره فى المقطع التالى : (تاريخ العلوم عند العرب 183) :

أعظم المغنين والملحنين فى العصر الاموى ابن سريج (ت 108 هـ ـ 726 م) ، كان غناؤه متكاملا يستوفى جميع مقومات الغناء الفحل • وكان ابن سريج يقول : المصيب المحسن من المغنين هو الذى يشبع الالحان ويملأ الانفاس ويعدل الاوزان ويفخم الالفاظ ثم يعرف الصواب ويقيم الاعراب ويستوفى النغم الطوال ويحسن مقاطع النغم القصار ثم يصيب أجناس الايقاع ويختلس مواقف النبرات ويستوفى ما يشاكلها فى الضرب من النغمات •

وأشهر الذين جمعوا حسن الصوت الى البراعة فى الغناء مع المقدرة على الضرب بالعود معبد بن وهب (ت 125 هـ ـ 743 م) ، وكان ميالا الى الغناء الخفيف من الرمل والهزج ، يطيل الشعر ويمططه • فكان الناشئون أكثر ميلا الى معبد ، بينما المتقدمون فى السن والاختبار كانوا أميل الى ابن سريج •

ليس معنى هذا أن معبدا كان أحسن من ابن سريج أو أن ابن سريج كان أحسن • ان معنى هذا أمران واضحان :

ـ كان لابن سريج مذهب فى الغناء ؛ وكان لمعبد مذهب فى الغناء •

وكان استعداد بعض الناس وحال بعض الناس يجعلانهم أميل الى هذا أو الى ذلك • فالمغنيان كانا يمثلان حالين فى عصر • وليس من العقل أن تنشب بين فريقى المعجبين بهما معركة فى كل يوم • ويحسن أن نطبق ما عرفناه من أمر المختلفين فى قديم الادب وحديثه على المختلفين فى شأن الغناء الحديث • ان جمهور الناس عادة لا يريد أن يعنى نفسه بالمقدمات والمقارنات وبالتفاصيل ، بل يريد أن يعرف النتائج المتصلة برغباته • فى أثناء احدى المرات التى جرى فيها تعديل لقانون المعلمين فى لبنان لقينى مدير مدرسة ترك التعليم الآن وأصبح يحتل مركزا فيه شىء من الادارة وشيئان من السياسة والعناية الاجتماعية • وفى أثناء الحديث قال لى : ما تم بقانون المعلمين ؟ فقلت له : قسم كل راتب ثلاثة أقسام : سيزاد على القسم الاول اثنا عشر بالمائة ثم على القسم الثانى (الذى يزيد على مائتى وخمسين ليرة ويقل عن خمسمائة ليرة) ستة بالمائة ، ثم يزاد على ما تبقى ثلاثة بالمائة • فحرك يده حركة سريعة ثم سألنى : كان راتبى كذا ، فكم أصبح الآن • فصمت دقيقة ثم قلت له : أصبح راتبك كذا • فتركنى وانصرف •

ودخل التجديد ، بعد الحرب العالمية الاولى ، على الغناء أيضا ، وبعد الاحتلال الفرنسى فى سورية ولبنان والاحتلال الانكليزى في العراق والاردن وفلسطين واستقرار الاستعمار الانكليزى فى مصر • أما ليبيا فكانت فى الاستعمار الايطالى منذ عام 1911 ، وأما تونس والجزائر والمغرب فكانت كلها فى الاستعمار الفرنسى فى الاكثر والاستعمار الاسبانى فى الاقل • والكلام فى هذا البحث ينطبق على البلاد العربية فى آسية وعلى مصر •

وأول مظاهر التجديد فى الغناء كان هجوم الموسيقى الفرنجية على البلاد العربية حتى أصبحت تلك الموسيقى زيا شائعا • ثم بدأت الموسيقى العربية تتطعم بالالحان الاجنبية • هذه الحركة من تطعيم الموسيقى العربية بالموسيقى الاجنبية يمكن أن يكون تطورا طبيعيا (فان مثل هذا التعليم حدث فى صدر الاسلام ، حينما بدأ الغناء العربى يتأثر بالغناء الفارسى على الاخص وبشىء من الغناء الآرامى الذى لا يزال ظاهرا فى الاغانى

الشعبية العامة • ثم حدث على نطاق واسع فى العصر العباسى) • ولكن الغناء العربى دخل معركة القديم والحديث ، وأخذ مناصرو الغناء الفرنجى يناصبون الغناء العربى أشد العداوة ويتخذون من الكلام على الغناء منفذا الى مقارعة القومية العربية واللغة العربية •

وكان الغناء القديم ، اذا نحن عددنا شيئا ما قديما أو حديثا ، يجرى فى الالفاظ المهذبة والمعنى الشريف • فلما جاء الغناء الجديد انحدرت الالفاظ الى العامية وانحدرت المعانى الى المدارك الجنسية المكشوفة ، فغنت صباح فى لبنان ، مثلا « شب واستحلى » (شاب وقد تاقت نفسه) كما غنت « دندلتونا لنص البير ، وقطعتو الحبلة فينا » (أو صلتمونا الى النهر ولم تسقونا) • وفى مصر غنى محمد عبد الوهاب « ما أحلى الرجوع اليه » ، كما غنتها نجاة الصغيرة • ولكن تخيل رجلا يغنى معنى تتمناه النساء ! وكذلك غنى محمد عبد الوهاب « عينيك فى عينيه » مما لا أجيز لنفسى تفسير الكنايات فى هذه الاغنية التى تنطوى ـ فيما أعتقده أنا ـ على فسق وكفر •

كل هذا يؤثر فى الناشئة التى لم تعرف بعد شيئا من الحياة الجنسية فتتمنى مثل ذلك ، وتتنزل أمثال هذه الاغنية من نفوس أولئك الناشئين منزلة مكينة • وقد يكون نفر من الناشئين قد عرفوا عددا من الاوجه المحرمة أو الشاذة ، فاذا سمعوا مثل هذه الاغانى من أمثال هؤلاء المغنين هان عليهم ما كانوا قد صنعوه ثم جرؤوا على أكثر منه ومردوا عليه •

وهنالك غناء ليس فيه كفر ، ولا تجد فيه فسقا كثيرا ، ولكنك تجد فى كلماته وجمله تخنيثا ، أو على الاقل لا تجد فيه روحا يبعث النشاط ويذكى الهمة ويسمو بالانسان الى ما هو أليق بالانسان : انه تاكيد على غرائز الانسان العادية ، كما نجد فى أغانى فريد الاطرش وعبد الحليم حافظ ، وان كان قد سبق لفريد الاطرش أن غنى أشياء قومية عربية فى « بساط الريح » •

ولا عذر لاحد اذا قال : ان الناس يريدون ذلك ، كما قيل لى مرارا فى عدد من دور الاذاعات فى البلاد العربية • ان الناس يديرون أصابعهم على مفاتيح الاذاعات ليستمعوا الى ما يذاع • ولا ريب فى أنه كلما كان الانسان أقل ثقافة كان أكثر تعلقا بالقريب من

مستوى ثقافته • غير أن عمل اذاعاتنا لا يجوز أن يكون الابقاء على الفرد القليل الثقافة حيث هو ، كما لا يجوز النزول به الى درك أدنى • يجب أن نحاول الارتفاع بهذا الفرد الى مستوى أرقى •

* * *

ونشر الثقافة لا يتأتى بيسر من طريق الكتاب • ان قراءة الكتاب فن • فى قراءة الكتب فن الاختيار بين الكتاب الموافق والكتاب غير الموافق • وفيه فن النفوذ الى الكتاب، فان نفرا كثيرين من الناس يبدأون قراءة كتاب ثم يقفون فى وسطه او فى اوائله • وفيه ايضا فن الادراك لمجموع من الآراء منسوقة فى سلك واحد ، وهذا امر ثقيل على نفوس غير المثقفين تثقيفا معينا • وفى قراءة الكتب فن المشاركة للمؤلف فيما يقول • وفيها فن الرجوع الى الكتاب عند الحاجة الى رأى من الآراء او حقيقة من الحقائق • وفى قراءة الكتب فن استخدام الزمن ، فان على قارىء الكتاب ان يعد لنفسه برنامجا للقراءة ومقدارا يقرأه فى كل مرة •

أما قراءة المجلات فهى ايسر خطبا : هنالك مجلة او مجلات تصدر لك فى زمن معين فتصبح لك كالادمان تنتظرها كما تنتظر الطعام او تشتاق اليها كما يشتاق المدخن الى التدخين • والمجلات الاخبارية العامة خاصة تأتيك بمواد كثيرة متنوعة ليس عليك ان تقرأها كلها ، بل تقرأ منها ما ترغب فى قراءته او يتفق لك ان تقرأه • وموضوعات المجلات ليس لها طول موضوعات الكتب ، فيكون الانتقال من موضوع قصير الى موضوع قصير على النفس • وقد يتخلل المجلة نوادر وحكايات لا تدخل فى نسيج الكتاب •

وقبل الحرب العالمية الاولى كانت المجلات قليلة ، وكانت فى الحقيقة كتبا موجزة ، كان كل مقال فيها فصلا من كتاب ، لان الموضوعات التى كانت تعالج فى المجلات كانت هى الموضوعات التى تدخل فى بناء الكتاب • ولم يكن فى اول الامر من فرق بين الصحيفة والكتاب ، الا ان الكتاب يتناول موضوعا قائما بنفسه مقطوعا من المكان والزمان فى اكثر الاحيان بينما المجلة تتناول القضايا الثائرة والاخبار الجديدة• ثم ان المجلة تتناول السياسة احيانا عرضا وتتعرض للحكام من وراء ستار او من دون ستر • والكتاب لا يفعل ذلك فى العادة • ولا ريب فى ان المجلة ألصق بالقارىء لان كاتب الكتاب يلقى كتابه الى

قارئه مرة فى عام او فى عامين او اكثر ، وربما كتب المؤلف الكتاب مرة فى العمر · فلا يستطيع المؤلف ان يحتاط لما يحتاج اليه القارىء او يرغب فيه القارىء من وراء هـــذا الزمن الطويل · اما الكاتب فى المجلة فليس عليه الا ان يحتاط لزمن هو اسبـوع او شهر · فالصلة بين الكاتب فى المجلة وجمهور قرائه أوثق واكثر ترددا من الصلـــة بين المؤلف وقـراء كتابه ·

وتستطيع ان تعرف الاتجاه فى المجلات الاولى المتقدم من عدد من اسمائها ، الجوائب ـ مجموع العلوم ـ ثمرات الفنون ـ المقتطف ـ الهلال ـ الطبيب ـ الصفا ـ البيان ـ مرآة الاخلاق ـ مكارم الاخلاق ـ الآثار ـ العروة الوثقى ـ فتاة الشرق ـ الزهور ·

وبعد الحرب العالمية الاولى حدث الانتقال من الجد الجد الى شىء من الترفيه بدأ يتسع مع الايام حتى كادت الصلة بالجـد تنقطـع ·

وأول ما بدأ ذلك فى مجلة الهـلال ·

كانت مجلة الهلال لصاحبها جرجى زيدان « ت 1914 » تصدر فى أول كل شـــهر قمرى (ومن هنا جاء اسمها) وتضم بحوثا فى التاريخ والحضارة والادب اصبح بعضها كتبا مستقلة لصاحب المجلة ، ككتاب تاريخ التمدن الاسلامى ، وتاريخ آداب اللغـــة العربية ، وتاريخ العرب قبل الاسلام ، الخ · ثم روايات تاريخ الاسلام الخ · ولا شك فى أن مجلة الهلال ومؤلفات جرجى زيدان قد أدت فى زمنها خدمـــة جليلة للقارىء العربى ، وان كان الزمن قد تخطى الآن « تاريخ آداب اللغة العربية » و « تاريخ التمدن الاسلامى » ، وبرغم ما فى عدد من روايات تاريخ الاسلام من المغـــامز · ولا شك فى أن حياة مجلة الهلال كانت جزءا من حياة صاحبها ، فلما توفى جرجى زيدان لم ينشأ بعده من رفاقه من كان له ذلك الافق الواسع فى الثقافة العامة ولا من كان له هذا النشاط الوافر · ان الجهد الاساسى لجرجى زيدان كان فى اصدار مجلته الشهرية ، ولكنه هـو كان الكاتب الرئيسى فى المجلة ، فأكثر بحوثها ومقالاتها كانت بقلمه بخلاف اكثـــر المجلات التى نشأت فيما بعد والتى يسهم فيها صاحبها بمقال أو اثنين أو ثلاثة · وتكون سائر البحوث والمقالات لآخرين · والى جانب هذه المجلة ، نشر جرجى زيدان أربعـين كتابا بعضها فى أربعة أجزاء أو خمسة ، فى مدى ربع قرن (1889 ـ 1914 م » ، ولا

يقدح فى نشاط جرجى زيدان أن معظم هذه الكتب كانت مادتها مجموعة من بحوثه فى المجلـــة ·

وبعد الحرب العالمية الاولى نشأت « دار الهلال » وكثر عدد المجلات وعـــدد الكتب اللذين صدرا عنها ، ولكن لم تبق مجلة الهلال كما كانت فى أيـام منشئها ، ولا كانت المجلات الجديدة : المصور ـ الفكاهة ـ الكواكب ـ الاثنين (الفكاهة والكواكب مجموعتين) من قيمة مجلة « الهلال » أو من اتجاهها · ولكن لا شك فى أن أثر مجلات دار الهـلال كان واسعا جدا لاسباب لا تزال بحاجة الى دراسة · ولكن يمكن القول منذ الآن ان مجلة الهلال كانت اسلم اتجاها من مجلات دار الهلال ، بما فى ذلك مجلة الهـلال نفسها فى شكلها الجديد ·

وجميع المجلات التى استمرت من قبل الحرب العالمية الاولى أو التى نشـأت بعـــد الحرب العالمية الاولى وأرادت أن يكون لها سمت مستقيم وجـد لم تستطع أن تثبت فى الميدان · حتى مجلة المقتطف الاصيلة فى ميدان العلم انقلبت ، على يد فؤاد صروف ابن أخى يعقوب صروف أحد مؤسسى المجلة ، الى مجلة « المختار » التى كانت تنشر مقالات طريفة جدا من ميادين الحرب العالمية الثانية · وكان عدد من تلك المقالات مثقفا حقا ، ولكن المقالات كانت تمثل وجهة نظر واحدة · ولما انتهت الحرب العالمية الثانية توقفـت مجلة المختار ، خليفة المقتطف ، مرة واحدة ·

ونشأ فى العالم العربى ، بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية ، عدد من المجلات الرصينة فى العلم والادب والفـــكر : كالرسالة والثقافة فى مصر ، والاديب والامالى والعلوم فى بيروت ، وغير هذه أيضا · ولكن أكثر هذه المجلات قد زال الآن ، والذى بقى منها لم يبق قادرا على أداء رسالته الاولى ، بل اندفع فى التيار العام الموجه الى الادب الخفيف والمماشى للاتجاه الاعسر من الموضوعات التى يقال فيها انها تمثل رغبات جمهور الناس ممن أشرت اليهم من قبل : تحللا من القيود المختلفة واغتـرافـا مـــن التجديد الآتى من العالم الاجنبى المعاذى لنا ـ وان كانت هذه المجلات التى أشير اليها فى هذا المقام تتفاوت فى هذا الاتجاه · ولا ريب فى أن تفاوتها ، وان كان بعضه قليـــل الضرر فى رأى العين ، هو العامل الاكبر فى تشتيت التفكير وتفتيت الجهود مما يوجـد

فى الامة آراء متضاربة وأيديا متقاتلة وجماعات متحاجزة • هذه الحال أشد ضررا على أصحابها من الجيوش المغيرة ، لان الجيش المغير يجمع أصحاب الارض المغار عليها على الدفاع عن الوطن ، أما الجماعات المتحاجزة المتنافرة فى الوطن الواحد فانها عون للجيش المغير •

والمجلات العامة الرصينة المثقفة ـ والتى يأمن الانسان أن يدخل بها الى بيته ـ ليست كثيرة فى العالم العربى اليوم • وأعنى المجلات الاسبوعية خاصة من تلك التى تصل الى أيدى القراء فى كل بقعة من أرضنا بيسر • أما المجلات الرصينة والتى تصدر شهريا أو مرة كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ستة ـ عن مجامع اللغة العربية وعن كليات الآداب وكليات العلوم ، أو تصدرها مؤسسات رسمية (فى وزارات الثقافة مثلا) أو مؤسسات شبه رسمية ، فانها ، من سلامة اتجاهها ومع الجد فى تخير موضوعاتها وفى صياغة تلك الموضوعات ، تكاد تكون غائبة عن جمهور القراء معدومة الاثر الصحيح فى جانب غيرها بطبيعة اتجاهها الى اختصاصها الضيق وكبر حجمها أحيانا وللغلاء فى أثمان بعضها (وان كان عدد كبير منها يوزع أحيانا بالمجان) ولتباعد مواعيد صدورها أو لاضطراب وصولها الى القراء •

والمحل الذى خلا من المجلات الرصينة ـ فى تثقيف الامة ـ شغلته مجلات خفيفة المادة كثيرة العدد تكاد ، بتنوع اتجاهها وبموضوعاتها العاطفية الهينة ، تصل الى معظم القراء الناشئين فيفعل فيهم سحرها فعلا عجيبا • كنت مرة أنتظر دورى فى عيادة فيها طبيبان مختلفا الاختصاص • وكانت المشرفة على مواعيد أحدهما تقلب بين يديها مجلة من تلك المجلات • وفجأة صدرت من هذه المشرفة حركة لفتت الانتباه ثم نادت المشرفة على مواعيد الطبيب الآخر وقالت لها : اسمعى ما تقوله المجلة فى حظى هذا الاسبوع ! ان هذه الجمل التافهة التى تنسب الى أفعال النجوم فى كل شهر فيما يتعلق بالمولودين فى هذا الشهر تقتنص انتباه الناشئين ـ وغير الناشئين أحيانا ـ اقتناصا غريبا •

واللغز الذى ليس غريبا هو : كيف تصل هذه المجلات الخفيفة الى كل بقعة فى العالم ثم تنفد عشرات الالوف من نسخها فى أيام قليلة من كل أسبوع ـ مع غلاء أثمانها حينا ـ ثم لا تلاقى المجلات التى تشرف عليها الحكومات أحيانا مثل هذا الرواج ؟

ويعترض معترض فيقول ·

ولكن هذا الادب الذى تعبس فى وجهه وهذا الغناء الذى تنكره شيء موجود عنـــد آخرين : فى الولايات المتحدة وفرنسة ، وانكلتــرة والمانية وايطالية وسواها · فلماذا لا يخشى الناس هنالك منـــه على انفسهم وتراثهم كما تخشى أنت منه هنا على أنفسنـا وتراثنـــا ؟

وجوابى على هذا ، فى هذا اليوم ، هو جواب التاريخ من قبل هذا اليوم · ان للامم أعمارا طبيعية وأطوارا من النشأة والقوة والضعف والانحطاط والانقراض وحينما تكون الامم قوية فى مطلع حياتها الطبيعية لا تتأثر بالهزات ـ ولو كانت تلك الهزات عنيفة ـ أو لا نرى نحن أثر تلك الهزات واضحا · أما اذا بدأت الامم فى الضعف فان الهزات تبدأ التأثير فيها ، ولو كانت تلك الهزات نفسها ضعيفة · واذا كانت الولايات المتحـــدة الاميركية لم تسقط بعد ، برغم ما نرى اليوم فيها من عوامل الانحلال التى نخشاها نحن اليوم فى بلادنا ، فليس معنى هذا أنها لن تسقط بأثر هذه العوامـــل وأمثالهـــا فى المستقبل · تأمل الولايات المتحدة اليوم أو انكلترة أو فرنسة أو ايطالية ، ثم قارن حال هذه الدول بما كانت عليه مثلا ، فى عام 1923 . أوفى عام 1927 ، أو فى عـــام 1935 ، فهل تجد هذه الدول اليوم من القوة حيث كانت تلك الاعوام الماضية · واذا كانت هذه الدول اضعف اليوم مما كانت عليه قبل أربعين سنة ـ وهى بلا ريب كذلك ـ فانهـــا ستكون بعد عشر سنوات أشد ضعفا وأقرب الى السقوط مما هى اليوم ·

ونحن المسلمين اليوم فى حال من الضعف لا فى حال من القوة ـ وربما كنا اليـوم ، فى بعض أحوالنا أحسن من قبل : فى الثروة الاقتصادية ، وفى بعض جوانب العلم ، ثم فى عدد من نواحى العمران التى تعم بلادنا ببعض ما تعم به بلاد غيرنا ـ غير أن ضعفنـا الحاضر لا يجيز لنا أن نتساهل فى تقبل عوامل تزيدنا ضعفا · فنحن اذن أحـــق بأن نتمسك بما يجعل الامم أكثر قوة لا بما يدنيها من ضعف أشد ·

* * *

هذا هو الموضوع مبسوطا بسطا يسيرا · أما معالجة الســـوء الذى نعانيه فيحتاج الى بحث جديد مفصل أيضا ، ولكن يمكن الآن ايجازه فى الاشارة الى ضرورة قيام الدولة

بمراقبة ما ينشر ، اذا كانت الدول العربية تريد أن يكون لها فى المستقبل جيل سليم البنية سليم التفكير سليم الاتجاه · ولكن ربما اعترض بعضهم فقال : ولكن أين تكون الحرية حينئذ ؟ وردى عليه موجز واضح : كيف تراقب الحكومات فى عالم النشر ما يمس سياستها الخاصة بها فتسجن مثلا رجلا ذكر رئيس دولة صديقة بسوء أو تطرد رجلا ألف رواية خيالية تتعرض لمدرك نظرى من المدارك السياسية أو الاقتصادية ، ثم لا تراقب كتبا ومجلات تمس بالامة كلها مسا شديدا ضائرا ؟

لمحة حول الاتجاه الفكرى فى فرنسا

خلال حرب الجزائر

د · ايفون تورين
استاذة التاريخ
بجامعة الجزائر سابقا



استجابة لطلب الاصالة انطلقنا فى البداية من مشروع اكثر طموحا ولكن فيه كثير من الاعتداد بالنفس، وهو مشروع يشبه مثلا (المثقفون الفرنسيون ودورهم فى حرب الجزائر) ، ولكن يكفى الشروع فى فحص صحافة تلك الفترة ، ولتكن مثلا صحيفة يومية محلية ، للتأكد من ان النقاش وعنف النزاعات المتولدة فى فرنسا بسبب احداث الجزائر ، قد وضعت فى الميزان كل التقاليد السياسية التى ترتبط ان قليلا أو كثيرا بتيارات عقائدية مختلفة ذات جذور بعيدة فى بعض الاحيان · ان تصادم وامتزاج الافكار يحدثان بعنف فى كل مكان ، ولهذا تحتم الاختيار اذا لم نرد الاكتفاء بتفاهات بسيطة حول كل منها ·

وحتى اذا اخترنا وتعين انتخابنا لمجموعة تحاول التفكير بجد ، فان تنوع المشاكل المطروحة وأهميتها يتطلبان توسعا يتجاوز كثيرا حدود هذا المقال · إن مفهوم الامة والوطن

والدور الموكل للقوة ، والمشاكل التى يطرحها العنف وحق مفهوم الحرب نفسه ثم ـ وفى ميدان مختلف ، لكنه قريب من الموضوع : سير العدالة ، والوجود المؤلم للتعذيب ، وتجابه الرجال وجها لوجه ، كلها مواضيع يطرقها الجميع ، والكل يشعر انه معنى ، والكل يميل الى الدخول فى النقاش ، نقاش فيه كثير من الخلط ولكن فيه أيضا مجهود للبحث المتعمق ·

لقد قررنا اختيار المجموعة الفكرية التي تنطق بلسانها كل من مجلة **الفكر** وجريدة **تيموانياج كريتيان** (الشهادة المسيحية) ودارى النشر **سوى** و **مينوى** وهاتان الداران، وان كانتا اكثر تطرفا الا انهما تختلفان جوهريا مع وسائل التعبير المذكورة ، ولكن ، وحتى فى هذه الحالة ، فقد ألححنا فى العنوان على الصيغة المحدودة للموضوع اذ قلنا : نظرة.وللتمكن من القيام بعمل اشمل من هذا يصبح من اللازم المضى فى تحر طويل وتتبع فكرة معينة بدل مجموعة مثل : مفهوم الوطن ، أو الدرس التاريخى الحتمى للمساواة الانسانية ·

ولنضف ، قبل ان نبدأ التحليل وحتى نستبق الملامة : صحيح اننا اخترنا دراسة المجموعة الاكثر ملاءمة لتصورنا ، تلك المجموعة التى عرفت كيف تجعل فى اعتبارها حساب المستقبل ، وعذرنا الاول انه ليس من اليسير للمرء ان يتحدث للآخرين عن نقصه وقصوره · اما عذرنا الثانى فيترتب على ان قيمة الافكار ومجهود البحث أكبر واكثر اهمية لدى أولئك الذين يؤمنون بضرورته ، منه لدى اتباع جمود وتحجر سياسى يتخذون من التكرار والثرثرة عقيدة سياسية ·

فهل نحن معذورون ؟ ···

ان أول حركة سجلت ، وأول موقف فعلى تأكد ـ وهذا ضرورى للدخول فى لعبة القلق وفى المسألة ذاتها ـ تمثل فى وعى وادراك عام بان مشكلا جديدا قد برز فى سنة 1954 فى الجزائر ، وانه مشكل يتجاوز مجرد السياسة ، انه احساس لا يزال غامضا يعبر عن نفسه بعموميات ، ولكن مهما كان الابهام الذى يكتنفه فانه يمثل نقطة تثبيت ضرورية لكل تفكير لاحق ·

وهاك مثلا كيف قدمت جريدة « الشهادة المسيحية » فى عددها الصادر فى 12 نوفمبر 1954 الوضعية الجزائرية ، وتم اختيار صيغة التساؤل : « ماذا يجرى فى الجزائر ؟ » عنوان عريض بالصفحة الاولى والجواب : « اغتيالات،انتفاضة منظمة هناك ضد جيش يوجد فى الميدان.انها ليست حربا ، وهى أكبر بكثير من مظاهرة.مع أن الجزائر كانت تبدو واحة طمأنينة وسط افريقيا التى يهزها الغليان . ان استيقاظ يوم عيد ذكرى الاموات كان قاسيا.ان الاناس المطلعين لم يفاجأوا كثيرا لان النار كانت تحت الرماد منذ زمن بعيد . ان عددا لا يحصى من الاسباب قد ساهم فى هذه الدفعة القوية الوطنية المباغتة».

لقد كان هناك اذن منذ البداية شعور بأن المشكل الذى تفجر مشكل يطرح بعمق ، واحساس أيضا بأن « الاعلام » ليس كافيا عمقا وشمولا .

وأول المهام التى تم القيام بها اذن كانت تقوية هذا الاعلام وتوسيعه بواسطة الجرائد والمجلات التى تنشرها المجموعة وهكذا نجد جريدة « الشهادة المسيحية » تنشر فى نفس عددها الصادر يوم 12 نوفمبر 1954 مقالا طويلا لشارل اندرى جوليان « يلخص تاريخ المشكل » ، وواصلت الجريدة نشر الاخبار السياسية اليومية وتدعيمها باعلام عميق حول الاقتصاد ، والسكان الخ ... ولكن مجهود المعرفة،والمعرفة العلمية،قد تأكد أكثر خاصة فى مجلة الفكر التى تتجه ككل مجلة الى جمهور ثقافى أكثر الحاحا فى الطلب . ان بعض الاعداد كانت تكاد مخصصة للجزائر مثل عدد ماى 1955 الذى يضم سلسلة من المقالات المتعلقة بالاقتصاد والمشاكل الدينية والاجتماعية والثقافية ومشاكل الهجرة .

أما عدد مارس 1956 الذى يحمل عنوان التفاوض مع الجزائر فقد كان سياسيا أكثر ، وقد صدر فى جانفى 1957 ثم فى مارس 1959 عددان مخصصان تقريبا لظروف معيشة الجزائريين اما مباشرة أو من خلال دراسة التخلف ، وهذا ما يدل على ان ادراك المشكل الجزائرى والاحساس به قد اتسع ، بحيث أصبح أكثر تقنية ويحاول الخروج من مجرد المجابهة بين فرنسا والجزائر.كان عنوان عدد مارس 1959 : « الفقر والعالم المعاصر » وهو عنوان لا يزال ذا قيمة حتى اليوم .

ان هذا الجهد الاعلامى يبدو فى حد ذاته ركيكا ومبتذلا لا يثير تعاليق علمية ، ويمكن التفكير فى ان المثقفين اذا اكتفوا بهذا الدور فانهم يكونون قد رضوا لانفسهم القيام بدور

اداری أو مكتبى ، غير أن الاعلام هو الخبز الذى يمكن كل واحد من التفكير ٠ وليس هناك عقل يستطيع مهما كان لامعا أن يفكر تفكيرا سليمـا انطلاقا من معارف خاطئة.وحتى اذا كان المثقف في الظاهر لا يتمتع بكثير من المجد ، فانه بتكريس جهده للمعرفة هو أيضا ، وبطريقته الخاصة ، مناضل ٠

غير أن تطور النزاع قد فرض على هذا النوع من النضال مهمة أكثر فأكثر دقة،وصيغة سياسية أكثر فأكثر وضوحا أو ان شئنا التزاما أكبر

ولا ريب فى ان الاعلام الاساسى بقى ضروريا ، كما أن الصفاء العلمى كان مفيـدا ، ولكن برز الى جانب ذلك ، المشاكل التى يطرحها الاعلام اليومى ، ومع أن بعض المقالات أو المؤلفات قدمت على أساس انها عمل فكرى حول العنف ، والامة ، والحرب ، الا أنهـا كانت فى الوقت نفسه جهدا اعلاميا عاجلا ومجردا،مثل ذلك يبذل للاعداد لمحاكمـة ما، والذى يجتهد لجمع مواده قـاضى التحقيق ، وكتاب تلك المقالات ـ أو المؤلفات ـ وهـم واعون تمام الوعى ـ سخروا ارادتهم فى تقديم اعـلام صحيح وحقيقى ، وذلك كواجب يفرضه عليهم ضميرهم الثقافى ٠ انهم لم يخوضوا المعركة السياسية مباشرة ، ولكنهـم اذ ذكروا بالمتطلبات الصعبة للاعلام اليومى وهى متطلبات مؤلمة احيانا للمرء نفسه ، فقد قبلوا ان تنتزعهم صرامة الاحداث انتزاعا من حيادهم لحد أن التهجم عليهم فاق التهجم على السياسيين أنفسهم : وهذا ما حدث لكل من ج٠ أ٠ ألكى (1) ، و ب٠ هـ٠ سيمون ، و ا٠ ميشـلى ، و هـ٠ ألاق ، و ب٠ ف٠ تـاكى ، الذين ألفـوا كتبا ، و هـ٠ مـارو ، و أ ٠ ماندوز ، وهيئة تحرير مجلة الفكر وخاصة مديرها ج ٠ م ٠ دومنيك ، وغيرهـم كثيرين ممن سوف نجد اسماءهم خلال هذه الدراسة ٠

وعلى هذا ، فقد اصبح الاعلام اذا كان شاملا ، عملا شجاعا والتزاما للضمير العلمى ٠

غير أن الاعلام ليس هو النقاش ٠ وقد اثارت احداث الجزائر داخل الاوساط الثقافية الفرنسية أكثر من مجرد نقاشات حتى أن بعضهم ما وصف ما يحدث بينهم بحرب أهلية بين العقول وهذا لمح اليه كتاب « ادمون ميشلى » « ضد الحرب الاهلية » وكان ما يحدث

(1) ج. أ. لكى : لقد هدأنا تازمالت ـ ب هـ. سيمون ضد التعذيب أ٠ ميشلى : ضد الحرب الاهلية هـ. ألاق ـ المسألة الجزائرية ا. ف. تاكى « قضية أو دين » ٠

فى الواقع مجابهات نظرية لا يمثل الاعلام فيها الا عنصرا من عناصر التفكير ، ويعتمد جوهرا لتحليل ، حتى وأن لم يقل هذا ، على استناد الى قيمة يتم اختيارها دائما بصفة شخصية ، حتى وأن برر هذا الاختيار بعلاقته بناموس عام ، وهنا فقط يبرز بكل وضوح الارتباط بتقاليد تاريخية وسياسية بعيدة .

ان طبيعة الرد الحكومى على احداث الجزائر ، وتعبئة القوة ، واستعمال الاسلحة والقمع البوليسى ، قد احدثت شيئا فشيئا تفكيرا حول استعمال العنف ، والحرب ، وهو تفكير تدرج الى تحليل تلك المحاذير واثرها على السياسة الداخلية ، ونجد فى جريدة « الشهادة المسيحية » ابتداء من نوفمبر 1954 افتتاحيات تذكر بحدود استعمال القوة وعلاقتها بالعنصرية ولكننا نجد فى عدد نوفمبر 1955 لمجلة الفكر الصادر تحت عنوان « لنوقف حرب الجزائر » تحليلا فكريا عميقا تتناول فيه هيئة التحرير بعمق موضوع العنف الناتج فى الحقيقة عن الواقع الاستعمارى نفسه ، وهو تفكير يتجاوز الحكم على مجرد القمع الظرفى . « هناك أعمال العنف وهناك العنف . أما أعمال العنف فهى تلك المذابح التى وقعت فى 20 أوت فى الجزائر والمغرب . أما العنف فقد سبق هذه الاعمال التى لفها وسبب حدوثها : والعنف يكمن فى الجانب الفرنسى . انه الاحتقار العنصرى للعربى ، وتزوير الانتخابات ، وبؤس وشقاء المدن القصديرية ، وهجرة الجوع . ان العنف ثابت فى استعمال المبادىء الديمقراطية استعمالا منافقا بهدف الاضطهاد الفعلى . ان العنف يكمن داخل اخلاق ، ومؤسسات واقتصاد جزائرى يدعى زورا أنها فرنسية . يجب الاقرار بأن هذا العنف لم يكتشف الا بفضل اللجوء الى استعمال السلاح . ان ما عجز عن القيام به جمع من المؤلفين وكثير من الشهادات قد فعلته الثورة » هذا ما قالته هيئة تحرير مجلة الفكر فى العدد المذكور .

وهكذا نرى أن الثورة التى هى عمل من أعمال العنف مبررة يحتمها القضاء على وضعية العنف الاساسى . وهذا تعليل استعمل فيما بعد مرات متكررة حول أمريكا الجنوبية .

واصل الحرب ؟ وطبيعة الحرب ؟

ان العمليات التى تتواصل ويتسع نطاقها ، ويصلى لظاها جمع المجندين الفرنسيين احدثت أيضا تفكيرا حول الحرب نفسها ·

« انها ليست بالحرب القذرة ، كما انها ليست حربا مقدسة ».كان هذا عنوان لمقال اساسى نشرته « الشهادة المسيحية » فى عددها الصادر يوم 27 أفريل 1956 بقلم الابوين اليسوعيين ج. مارتلى و ج ى. كالفيز · والاول رجل ديـن ، اما الثانى فاختصاصى فى القانون الدولى والقضايا الماركسية · ومن خلال دقة المقال يتضح أن الكاتبين يرميان الى الاجابة على تساؤلات لم يفتأ يطرحها قراء المجلة وقسم من الـرأى العـام الفرنسى ، والمسيحى منه بصفة أخص . يقول الكاتبان : « نعم ، للدفاع عن النفس حدود · نعم ، ان كلا الطرفين يحارب من اجل وطن.نعم ، لقد حلت الحرب محل الحوار ، غير أن الحرب لا تعنى لا ابادة الخصم ولا فرض حل بالقوة مهما كان الوجه الذى يراد ابرازه به ، بـل يجب الاعتراف بالخصم وقبول الحوار والحل الوسط » ويرد الكاتبان على الذين كانـوا لا يزالون يطرحون المشكل الدينى ، ردا صريحا : « هذه حجة واهية ، لنقـاوم اغواءات النزعات الصليبية · ولنحصن انفسنا ضد كل النزعات الصوفية ما عدا تلك النزعـة المتمثلة فى تحقيق عدالة انسانية حقة تدعو الى الحوار مع الطرف الآخر ويعترف بحقوقه حتى نتمكن من أن نحصل على ضمانة حقيقية لذوينا وأن نحقق أمنهم المشروع ».وبما أن بعض القراء قد تخوف من هذا التحليل وطرح السؤال التالى : أيصح موقف مثل هـذا من مسيحى ؟ والرد هو : « اذا كان هناك من نيل فى الله ـ الذى تؤمن به الها للمحبة ـ فى هذه الحرب ، فان هذا النيل يتجسم أولا فى شخص كل انسان تساء معاملته فرنسيا كان أم مسلما » · وهكذا جرى التدرج من تحليل العنف الى البحث عن تجـاوز روحى لوضعية تعتمد على القوة · ويجب ان تبقى القوة خاضعة للقانون ·

غير أن الحرب تتواصل ، وتزداد ، ويتضاعف آثارها · وهكذا لم يعد بالامكـان أن تقع الحرب وحدها تحت طائلة التحليل،بل كل سلوك الدولة ، والعلاقة بـين الغايـة والوسائل المستعملة لتحقيقها · ففى مقال بعنوان «الساقية أو الفعالية» نشرت جريدة : « الشهادة المسيحية » الصادرة يوم 28 فيفرى 1958 ، وبقلم السيد ب · هـ · سيمون ،

ما يلى : « ان قضية الساقية الحمقاء والكئيبة ، قد ادت على الاقل خدمة عندما اظهرت مرة واحدة ، وفيما يشبه تمزق العاصفة ، وانحطاط الدولة ، وعبث السياسة المتربعة ، وأزمة روح الامة » • ويتبين من هذا أن فرنسا لا توشك أن تفقد متاعا ماديا فى هذه الحرب ، بل أنها مهددة بضياع « روحها القومية » وماذا كان يعنى هذا ؟ ففى تلك الايام من سنة 1958 كان معنى هذا : فقدان « الروح الديمقراطية » • ان ما كان يلمحه ب • هـ • سيمون فى أذيال الحرب هو مخاطر الحكم العسكرى،وهذا يعنى ضياع الحريات وهنا أيضا يبدو بوضوح اختيار هؤلاء المفكرين • انه حتى النصر العسكرى لا يمكن أن يعوض ضياع الحريات • وعلى العكس من التفكير الفاشى فان الحرب فى حد ذاتها مرفوضة رفضا مطلقا لان آثارها ونتائجها قد تكون اسوأ من الفوز بها •

ففى هذا الاطار يجب تسجيل القضية الحاسمة والمؤلمة فى نفس الوقت ، الا وهى قضية : رفض التجنيد • وقد نشرت مجلة « البانوراما المسيحية » تحقيقا حول هذا الموضوع الصعب وجاء فى التحقيق ما يعرض المجلة للمنع •

ومن جراء التحول من التفكير النظرى نحو مشاكل ذات طبيعة سياسية أكثر ، لاح فى الأفق توجيه جديد للنقاش • هل الفرنسيون الذين ينتقدون العنف والقوة والحرب خدمة لبلادهم ، ام ضد فرنسا ؟

وبدأ كل يقذف خصمه بمفهومه وتصوره الخاص لفرنسا • وتكاد تقول ــ جريا على ما تم من نقاش اثناء الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى ــ ان كل طرف عبر بطريقة خاصة عن « أصالته » • وهنا تراءت للسيد « ادمون ميشلى » نذر حرب أهلية بين العقول • وفى الحقيقة ما هى العلاقة بين الامة كما يراها أتباع « موراس » ، وتلك التى تستلهم من التقاليد الثورية والا يمكن أن تكون يعقوبية أو ليبرالية ، وهما شكلان يكادان يتعارضان مع التقاليد الكبرى . واخيرا تلك التى تود أن لا تبتعد عن بعض المبادىء الانجيلية • كل هذا يمكن أن يؤدى فى الواقع الى الصراع المباشر خاصة اذا ارتبطت به مصالح محددة ، فلندخل الحلبة ــ دائما من الزاوية المحدودة التى اخترناها منذ البداية •

ومنذ ان تأكد فى صفوف بعض أوساط المعارضة انتقادهم للعمل الحكومى وخاصة للاختيار المعنوى المترتب عليه ، أصبح عنف الالفاظ والعبارات يترجم تمزق الاحاسيس . ففى عدد جانفى 1957 لمجلة الفكر نشر « باستير » مقالا بعنوان «حسن استعمال الخزى» · اما « العدالة لا تتجزأ » فعنوان المقال كتبه فرانسوا مورياك بجريدة «الشهادة المسيحية» فى 16 نوفمبر 1956 · وتحتم حتى على أكثر الاوساط اعتدالا ان تعرى العقل من غشائه العاطفى · ولكن ما أعظمه من مجهـود ! ان من النادر أن تصبح اللغـة سليمة وصافية تماما · ومن خلال ذلك الغشاء المحموم يمكن ملاحظة بداية نقاش حول «الفكرة الوطنية» · لقد برزت تصورات شديدة الاختلاف تمتد جذورها فى أعماق ماضى تاريخى شديـد التنوع هو الآخر ·

ففرنسا الملوك ، وفرنسا الثورية ، وفرنسا المسيحية ، كلها أصول يرجع اليها عن وعى أو دون وعى ، وهى أصول قليلة التشابه ، ولا تسهل بحال من الاحوال أى وفاق ·

«ماذا فعلوا بوطنى ؟ ···» أريد أن أبدأ بهذه الصيحة · ان «الوطن» لم يكن موضة كما هو فى تلك الايام · وفى كل المناسبات نرى « الوطن » منتشرا على أبواب البنـوك وعلى نوافذ الحافلات : « أنكم بمساهمتكم المالية تنقذون فرنسا ، وتحققوا استثمارا جيدا لاحوالكم » · ان كلمة « الوحدة الوطنية » فى كل الخطب · ما أجملها ذكريات الثـورة وعند أول اعلان بان الوطن فى خطـر تنتصب المنصات وتعـود دقات الطبول والخطب النارية ··· وينسى فقط أن اجدادنا العظام كانوا يدفعون غزوا اجنبيا بينما نمثل نحن فى الحاضر ذلك الغزو الاجنبى الذى يكافحه شعب آخر ، وان ثورة 1789 كانت تسلـح سواعد وقلوب مبادىء هى نفسها التى يدافع عنها خصومنا اليوم » · هذه صيحـة ، وباستير نفسه هو الذى يقول هذا (الفكـر ، جانفى 1957) · وهى صيحـة مجللـة بالذكريات · ومع أن هذه ذكريات أكثر دقة ووضوحا لدى المثقفين ، ولكنها راسخة لدى العموم بواسطة دراسة التاريخ ولكـن هناك عدة طـرق لتأويل هـذه الذكـريات ولاختيارها ، ومن هنا يبدأ الصراع ·

فمنذ مارس 1955 نشرت مجلة الفكر عددا يمكن لعنوانه أن يكون عنوانا لكل النقاش الذى وقع فيما بعد والعنوان هو : « قيمة وحدود الامة » · وأمكن شيئا فشيئا التمييز

بين المتعاونين مع تلك المجلة فيما يخص طرق الاختيار الوطنى · فقد تبنى كل من ج· م· دو منياك و ج. سوفير تحديد جان روس . «أن المؤرخين يدركون أن ما يشكل «الامـة» فى نظر المدرسة الفرنسية ، ليس العرق أو الدين أو اللغة بل الارادة الجماعية» · (الفكر جوان 1956) · والتلميح الى النزعة الثورية واضح تماما هنا · وتذكر الناس روسـو الذى كانوا يفضلونه على روبسبيير · ان فرنسا « الارادة الجماعية » هى فرنسا الفدرالية وليست فرنسا اليعقوبية أو فرنسا الارهاب » ونجد نفس الفكرة لـدى آلن بيرجى اذ كتب : « ان الامة أولا مشروع مشترك بين كل الفرنسيين » · (الفكر ـ 1957 ديسمبر : فرنسا والفرنسيون) ·

وفى خضم كل هذا ، ما مصير « فرنسا الخالدة » ، « وطن الحـــرية » المتغنى بها فى العديد من الخطـب الرسمية · ان بعضهم يردد بعنف تلـك النكتة التى قالهـا الكاتب برنانوس : « ان الديك طائر أحمق » · اما هـ· مارو فيرد بطريقة أكثر تربوية ، وعـلى صفحات « الشهادة المسيحية » على من تغضبه تلك التمييزات بما يلى : « ما هو الوطن ؟ وكيف يجب أن أحبه ؟ » ان المؤرخ ليس بوسعـه الا أن يضفى صبغة نسبية على هـذا التصور · انها نتيجة عابرة لتطور تاريخى يجرنا بعيدا عن كل هذا · وعلى لسان الجنرال ديغــول ، فان « فرنسا ، فرنسا الخالدة » تكتسى لهجة مؤثـرة ، ولكنه خطأ تاريخى : ففرنسا ليست ذلك الشكل المثمن الاضلاع والذى يقع مركزه فى « بورج » ، ولم يقدر لها أن تكون هكذا منذ الازل · وهى لم توجد منذ عهد « أجدادنا الغاليين ».يجب مراجعة هذه الصورة الجاهزة ··· اننا نسير ، ولقد تمكنا فعـلا من تجاوز بعض الاطـر التقليدية للوطن القــومى ··· انى أحس انى فرنسى ، ولكن أيضا أوربى ، وغــربى · ويضيف المفكر المسيحى فيقول : « يجب ان نعمق فى هذا الاتجاه مضمون وطننا · اننا نكتشف فى تباين الشعوب تلك الثروة اللا متناهية التى أراد الله ان يجلى بها مخلوقاته » ·

وبتتبعنا ﻟ هـ · مارو ندخل افقا تاريخيا شديد الاتساع يضفى صفة النسبية على نظرية « الامة » : ان الامة ليست خالدة · فلجميع الامم بداية ، غير أن بعضها يمكن ان يندثر ، وبعضها على العكس تولد وتكبر · ان من يكتبون بهذا الاسلوب قد عرفـــوا النازية ، وما من شك فى أن تذكيرهم بالفكرة النسبية للامة فى ذلك الظرف السياسى

الصعب ، يشكل تحذيرا للبعض من الفاشية ومن نوع من الفلسفة الالمانية ذات العلاقة بالتقاليد اليعقوبية التى هى نتيجة لها جزئيا ، مثل فلسفة فيخته ؛ وهى فاشية يمكن لاستعمال الجهاز العسكرى ان يمنحها الفرصة للتعبير عن نفسها ٠

ان التذكير بهذه الارادة التاريخية ، واعادة ادماجها فى الفكرة القومية امر كثير الاهمية فى هذه الحالة بالذات ، لان من شأنه ان يجعل ظهور الامم الجديدة أكثر ثبوتا وأكثر شرعية فى نظر القوميين ٠ وما صنعه التاريخ للبعض يمكن ان يصنعه للبعض الآخر ٠ ويجب ، كما يقول الاب « مارتيلى » فى مجلة « الشهادة المسيحية » الصادرة بتاريخ 10 ابريل 1958 ان « يهذب الضمير » ٠ وهذا يعنى أن المرء بعد أن يتعلم كيف يفكر لنفسه ، يعمق تفكيره ليمارسه على الآخرين وعلى الجزائر بالخصوص ٠ وهذا التهذيب للضمير لا يمكن فى النهاية ان يجتنب مشكل الغايات الصعبة،وغايات هذه الحرب نفسها ، وهل يمكن للضمير أن يكتفى بطرح المبدا القائل بأن الجزائر يجب ان تبقى فرنسية فى الوقت الذى تم فيه الاعتراف لهذا البلد بشخصيته الخاصة ٠ فكل المشكل يكمن بالتحديد فى كل ما يعنيه كل ذلك ويقتضيه ٠ فالاحساس القومى لا ينبغى أن يتخذ هنا مقياسا مطلقا للضمير اذا لم يتقبل ان يدرج ضمن اطار أكثر اتساعا يتمثل فى امكانية أمم أخرى أن تنشأ بالفعل ٠

إنه لمن واجبنا الدينى ان نفتح الضمائر الى مثل هذا التفكير الذى ، على الرغم من أنه لا يقدم حلولا عملية ، الا أنه يمكنها من ان توجد حقيقة ٠

اذن،فالامة بناء تاريخى ، وليست ذلك الشىء المطلق الذى من شانه أن يبرر تلك الصوفية أو حتى ميتافيزيـاء الدولة ٠ لا ، ان الامة ليست الا ذلك الاطار أو الوسيلة بل ويمكن القول،ذلك المرفق ، لقد صنعها التاريخ لمجموعة من الناس ، تكتلا اجتماعيا يمكن كل واحد منهم ان يحقق من خلالها انسانيته ٠ ويتفق مراسلو « الفكر » و « الشهادة المسيحية » وعدد من المجلات والجرائد ذات نفس الاتجاه (مثل مجلة «اقتصاد وانسانية») يتفقون على التأكيد بأنه لا يمكن أبدا للانسان ان يبتلع أو تتم الهيمنة عليه من طرف ذلك المجتمع ، بل يجب ان يبقى المجتمع دائما فى خدمة الانسان ٠ يقول « ب ايمانويل » فى

مجلة الشهادة المسيحية (28 سبتمبر 1956) .«لنكف لحظة عن التفكير فى فرنسا ، ولنفكر في الفرنسيين.ان فرنسا ليست شيئا مطلقا . انها نسبية . **انها مكان لاناس**».

وفى نفس هذا المقال الذى يكتسى لهجة هجائية ويحمل عنـوان « فرنسا المستقبل»، يعرب المؤلف بوضوح عن تخوفه من عكس القيم المطلقة . ان اللجوء الاعمى واللاعقلانى للحرب والتمجيد الحماسى لامـة يكـاد يتم تاليهها ، يفتحان الباب أمـام مخاطر سياسية لا حدود لها . والكل يثير التخوف صراحة أو ضمنيا من الانظمة الاستبدادية.لان الكلمات يمكن ان تتجسد . ويحمل « ب ايمانويل » بعنف على هذا الشكل الغامض من القومية . «انى أقول وكلى ايمان بفرنسا،ان هذه القومية التى تغرينا تبدو لى بذخا،عفا عليه الدهر وخرابا وبلاهة . ففى هذه السمفونية التعصبية شرع فى الصراع على مكانة العازف المنفرد أو على الاقل على مكانـة عازف الكمان الاول . ان هذا الحـب للنظام يخيفنى كما يخيفنى ذلك التبجح بالشرف ... واذا كان لزاما علينا ان ندفع فى مقابل كوننا فرنسيين ضريبة من الخضوع الاعمى ، والكذب المتواصل وكل القاذورات الاستبدادية ، فانى لا أحس ان لى نفس كلب،كى ألتمس وضع سلسلة فى عنقى وحمايتى داخل حجرة . ان نهايتى ستكون بالضبط داخل حجرة كلب اذا اكتفيت بأن انبح بكلمة « فرنسا » وان اصرخ بالموت أمام تلك الجثة التى يسعون جاهدين ان يجعلوها منها ... » .

ان عنف هذه اللهجة يسمح بتبين طبيعة الخطب التى تقال فى الجانب المقابل !.. ان الذين يتحدثون هكذا لا يمكن الا أن يكونوا اعداءا لفرنسا.خونة ، لقد قيلت هذه الكلمة؛ الخيانة والخيانة تذكر بفصيلة تنفيذ حكم الاعدام.كان هذا احد العناصرالايديولوجية لتلك الحرب الاهلية بين الافكـــارالتى عناها « ايدمون ميشلى » وكانت هذه الحرب أكثر ضراوة بشأن الجدال حول التعذيب .

ولنكمل تحليل الفكرة القومية قبل الخوض فى هذا الموضوع الجديد . ان مثقفى اليسار بعد ان هوجموا على هذه الصورة تصدوا للدفاع عن انفسهم . فبعد أن تمت القطيعة بين الاتحاد الوطنى لطلبة فرنسا والاتحاد العـام للطلبة المسلمين الجزائريين احتجت الاقلية من الطلبـة الفرنسيين . « ان جـزائر اليوم دبابات ومجنـدون . ان البعض يحاولون اختراق هذا الضباب الحربى لكى يتذكروا ان هناك بعض المسلمين تجب محبتهم . هل

يكون هؤلاء أيضا خونة ؟ جاء هذا فى مجلة « الشهادة المسيحية » الصادرة فى 8 جـوان 1956 وبقلم ف. بوريلا . واستشهد هنرى الاق «فى كتابه : «المسالة» بقول رومان رولان. « انى اذ أهاجم الفرتسيين المتعفنين ، فانى ادافع عن فرنسا » .

لقد كان اذن لكل هؤلاء مفهوم آخر عن فرنسا مخالف لذلك المفهوم المتجسم فى القوة والدبابات والدفاع بأى ثمن . ان هؤلاء المـثقفين الذين قدمنا بعض انتقاداتهم يحكمون على أنفسهم ويودون ان يظهروا لا بمظهر أعداء لفرنسا ، وهذا بديهى ، بل على العكـس المدافعين الحقيقيين عن فرنسا الحقيقية . ان موررياك ومارو ودوميناك وايمانويل وكـــل الآخرين كانوا يناضلون من أجل الابقاء على وجه صورة لا يتنكرون لها ، بـــل هى غالية لديهم . ولكن اية صورة تلك ؟ انـه قـول الكاتب « برنانوس » فى مؤلفه « رســـالة الى الانجليز » الصادر فى 1940 والذى استشهدت به مجلة الفكر فى عددها الصادر فى نوفمبر 1955 يلخص تلك الصورة جيدا . يقول برنانوس « ان فرنسا تحملنى معها فى مغامرتها الكبرى التى لن يكون لها أبدا بداية أو نهاية لانها مغامرة روحية » . ومن أجل هذا فان كل ما من شأنه ان يدنس مثلا أعلى معينا يقتل فرنسا أكثر بكثير مما يقتلها ضياع اقليم ليس فى الحقيقة ملكا لها .

ان الانقلاب الايديولوجى يكمن فى ما يلى : ففيما يرى البعض ان فرنسا شىء ، يرى البعض الآخر ان فرنسا فكر . ان «موررياك» يرى انه فى عهد الامبراطوريات العملاقة ، فان هذا الرأى الاخير هو وحده الكفيل بأن يحتفظ لفرنسا بمكانة متميزة ، مكانة مختارة . ويقول فى « الشهادة المسيحية » الصادرة بتاريخ 16 نوفمبر 1956 . « يجب ان يفهم اولئك البسطاء التفكير أخيرا انه فى عالم الذرة الذى تسيطر عليه امبراطوريتان تملكان وحدهما القوة فان الحظ الاخير للامة ذو طابع روحى وفكرى. وبأنها لن تبقى عظيمة الا بهذه الطريقة، وبأن شعوب ما وراء البحار لن تبقى وفية لها الا اذا لم تخن هى نفسها رسالتها... ولكنى اشك فى كون هؤلاء باستطاعتهم ان يفهموا أى شىء » . وفى نفس الاسبوع دافع مارو فى نفس المجلة عن نفس الفكرة بقوله: «ان مما يثير دهشة اصدقاء فرنسا انها تمـــارس سياسة تناقض تماما الاسس التى يجب ان تحدد سياستها أى « تلك العدالة،وتلك الاخوة وتلك الحرية » التى كانت تبشر بها فى كل مكان».

واستمر الجدل ، واستمرت الرغبة فى التصدى له ، وربما وجدنا فى ما كتبه دو ميناك فى « الشهادة المسيحية » بتاريخ 26 ابريل 1957 وسيلة لانهاء هذا الفصل حول البحث الذى ولدته حرب الجزائر عن صيغة لتصور الهوية القومية ٠ ان هذا النص الواضح والمحدد يلخص على ما أرى افكار كل أولئك الذين تعرضنا لذكرهم يقول « دوميناك » ٠ « انها ليست بالسياسة،ولا بالفلسفة،ولا باللاهوت ٠ انها حقيقة فى متناول فهم الصبيان، هناك اشياء لا ينبغى القيام بها ، وكل من قام بها انما يأتى باعمال منافية للشرف ٠ واذا ذهبنا الى أعماق ما يجعل الوطن يحيا ، فاننا نجد تقاليد للخدمة ، وشرف العائلة ، وفى أساس تضحية خالدة تلك الفكرة البسيطة التى تجدها عن القديس لويس،وعن جان دارك،وعند بيقى،وعند ديغول ، تلك الفكرة التى خانها القوميون ٠ وهى أنه ينبغى ان تخدم من خلال فرنسا تلك الطهارة التى يعطيها البعض اسما سماويا بينما يطلق عليها البعض الآخر اسما جمهوريا » ٠

لقد الححنا ، طوال تعرضنا للمشكلة القومية ، لمشكلة التعذيب ، وكذلك لمفاهيم: الحرية،والاخاء،والمساواة.أى لاسس الشرعية الوطنية ٠ ان طبيعة المعلومات التى تم الحصول عليها والاعمال التى تم الوقوف عليها ادت بسرعة الى نقاش مكمل للنقاش السابق ولكنه نقاش أكثر حدة لانه هذه المرة نقاش لا يعرف المهادنة ٠ هل تبرر ضرورات الدفاع استعمال أساليب غير مشروعة ؟

ان الصحافة التى سبق ان اشرنا اليها اعتبرت هنا أيضا ان من واجبها ان تخبر ٠ والاخبار فى هذا المجال شديد الدقة والحساسية لانه لا يحتمل الخطأ ٠ ان التهجم على الجيش،واتهام ضباط وجنرالات اتهاما يكاد يصل الى ذكر اسمائهم،يتطلب الحذر،ويستدعى خاصة صرامة مطلقة فى صحة المعلومات اذا ما أريد تجنب الوقوع فى فخ الخصم وعدم تبرير صفة الخيانة التى كان من السهل الوصم بها ٠ كان من اللازم جمع الحجج وتقديم الملف الى الجمهور ٠ وهذا ما قامت به مجلة « الشهادة المسيحية » فى ربيع 1957 ٠ فقد قدمت فى عددها الصادر فى 15 فبراير **رسائل جان مولير** ، كما طبعتها فى شكل كتيبات ٠ ان تلك الرسائل عبارة عن شهادات شخصية كتلك التى تقدم أثناء المحاكمات. وفى 22 مارس 1957 توجه جوزيف فولبيى مباشرة الى رئيس الحكومة معتمدا على مجموع

تلك المعلومات · فقد كتب تحت عنوان : « **رسالة مفتوحة الى غى مولى** » ما يلى : « من 1940 الى 1944 (المجلة انشئت تحت الاحتلال) قلنا لكل من المانيا الهتلرية **وفيستى** والمقاومة موقفنا · ونفس الشرف يحتم علينا اليوم ··· وفى هذا الشان فان شرفنا كمسيحيين ، وشرفنا كفرنسيين يمد كل منهما يده للآخر » ·

وبعد ذلك وكما تم للمجلة ان نشرت تفكيرا عميقا حول مفهوم الحرب ، فانها ودائما بقلم « كالفى » تنشر بتاريخ 12 يوليو 1957 تحليلا معمقا للاساليب التى تم كشفها بفضل ملفات جديدة ، وتحت عنوان : **الحرب الثورية والتعذيب** عمد كالفى الى نقاش لاهوتى منظم يبرز الخطأ والغلط المعنويين بالاضافة الى عدم جدوى تلك الاساليب·ولكن مصدر هذا النقاش نفسه يدل على ان الاجماع قلما يحصل حتى داخل المجموعة الدينية الواحدة · وقد أثار موقف « فوليبى » ردا بعنوان:«**رسالة من قسيس حول التعذيب**» بتاريخ 21 يوليو ، وهذا الرد على العكس يؤكد رأى صاحبه فى موافقته على التعذيب وعارض هذا الرأى كالفى فى 12 يوليو · وعلى كل فان لهذه المقالات المتضارية ميزة أكيدة ، فهى تمكن الجمهور من المشاركة فى النقاش وتقدم له عناصر المناقشة والجدال ·

غير أن التحليل الاكثر عمقا ـ مع أننا لم نتمكن من الاطلاع على كل ما كتب فى الموضوع ـ هو ما ورد ما فى ذلك المؤلف الذى نشره ب هـ. سيمون تحت عنوان واضح ينبىء بمحتواه : **ضد التعذيب** · مجموعة من الملفات تسند سردا بسيطا ، وحماسيا ، ولكنه لم يصل أبدا الى حد الشتم أو التلفيق ·

فى البداية ليس هناك بالطبع من يوافق على التعذيب عن طيب خاطر · انه على الاكثر ضرورة ظرفية تفرضها الحرب الثورية ، ويجب تقبلها · وهنا يرد ب· هـ· سيمون : ان أى ظرف مهما كان ماساويا لا يسمح بانتهاك المبادىء أو التنكر لها · وقد ذكر الكاتب «بديان بيان فو»مما أثار حفيظة الكثيرين ، حيث كتب · نعم ، ان امتنا فى قمة وجدانها ، كان همها أن تحصل على احترام الهزيمة ، وان لا تشترى النصر بالغدر · آه يا ليتنا لن نخسر المعركة والشرف معا»·

وبعد أن ذكر بمأساة كان من شانها هى الاخرى ان تبرر كل شىء اضاف يؤكد : « ان الوضعية لا تعفى من كل شىء ، وان ما يشكل قوة المبادىء هى كونها مبادىء اى

تعبير عن شيء مطلق لا يخفى أى اعتبار للظروف أو المصالح ، والا لم يبق هناك اى حـق أو اطلاق » · وهكذا تحددت المواقف · فهناك من يؤمنون بأن الحق والاخلاق ولو كانت سياسية يعلوان الدولة ، وهناك من يقبلون النقيض · ولكن هذا الاختيار يمثل فى نظر ب. هـ. سيمون خطورة بالغة بحيث يمكن ، حسب ما عبر عنه ب. ايمانويـــل ان يشكل أحد أسباب فصم التعاقد الوطنى ومن العواقب ذات الخطورة القصوى الاتهام بالخيانة · وهذا يعنى ان الانسان اذا كان فوق مستوى الدولة فانــه يجب عليه ان يقوم ضدها · « ان الشرطى الذى يعذب المتهم ولو كان مذنبا ، فما بالك اذا كان بريئـــا ، يمس فى شخصه روح الانسانية ، لانه انما يقوم بالتعذيب كقاض يتمتع بنوع التفويض الاجتماعى وهذا ما يعطى لفعلته صفة الخرق الرسمى للقانون ، ويمثل عكسا للمبدا الروحى ويحطم الرابطة التى تكتل المجتمع » · ان هذا الخطأ بلغ من الخطورة الحد الذى يسمح للمواطنين ان يعصوا الدولة الفرنسية اذا كان من شأن ذلك ان يتحول الى وسيلة رسمية الاستعمال. وفى هذه المعركة من أجل المطلق السياسى أثار سيمون قضية « درفوس » التى قسمت الفرنسيين قبل 50 عاما لدرجة انها كادت تشعل حربا أهلية ، وليس فى الافكار فقط ·

والمدافعون الحقيقيون عن الجيش وقتها لم يكونوا أولئك الذين يحاولون تغطية خطإ قضائى » بل أولئك الاخلاقيين الصرماء الذين طالبوا باعادة المحاكمة » ·

والمدافعون الحقيقيون عن المانيا هم أولئك الذين ثاروا فى وجه النازية · ولهذا يجب على الفرنسيين الحقيقيين ان يقفوا ضد هذه المواقف التى يـــدفع ثمنها الوطن بأكمله ، يدفعهم الى ذلك التزامهم الخلقى ·

وهناك سؤال آخر مطروح:فبامكان الكاتب أو القارىء ان يقول : « أنا لست مسؤولا أنا لم أصدر أمرا ولم أمارس تعذيبا ، اذن فأنا لست مذنبا » · ان هذا تهـرب ، فهناك بطريقة أو بأخرى شكل من المسؤولية الجماعية أو الذنب الجماعى.ان هذا المفهوم لدقيق ، ولذا يجب بذل العناية الكاملة فى تحديده · ان التأكيد عـــلى الذنب الجماعى يمكن فى الواقع ان يشكل تقهقرا شاسعا فى ميدان القانون الذى قضى قـرونا للتخلص منه » · وهنا نضع اصبعنا على مشكل اخلاقى يجب تسليط الضوء عليه · مشكل الذنب الجماعى الذى يطرح مسالة شائكة من حـق القانونيين أن يتحذروا منها · فهذا المشكل يشبه

مشكل المشاركة الايجابية من طرف مجموعة تعتبر مسؤولة عن أعمال يقوم بها شخص واحد مرتبط بها اما بشكل مباشر، بواسطة ضغط الوجدان المشترك واما بصفة غير مباشرة بحيث تركت المجموعة الشخص يقوم بتلك الاعمال • وفى هذه الحالة فان الاحساس بالذنب الجماعى يمثل شكلا تلقائيا من أشكال حب الشرف • وهنا نجد تلك العاطفة الشديدة والغامضة التى يصعب تحديدها والتى تكلم عنها دوميناك اثناء بحثه عن تعريف للقومية • هذه العاطفة التى تلقن منذ الطفولة حول ما يجب عمله وما لا يجب القيام به •

هناك مجموعة من المثقفين أكثر اتساعا من المجموعة التى تكلمنا عنها ، وهى مؤلفة من كل أولئك الذين عليهم أن يمثلوا عالم الفكر فى مجموعه ومن بينهم خاصة الجامعيون -انتهزت هذه المجموعة قضية « اودان » لتتخطى الكلمات ولتعمل فى ميدانها الخاص بها • ففى 1957/12/2 وامام جمع غفير من الحاضرين انعمت جامعة السوربون على موريس اودان بلقب دكتور فى العلوم بعد وفاته ، ان هذا الاجراء الغير عادى يريد أن يؤكد على نوع من اتخاذ المواقف الرسمية من طرف الجامعة ، مع أن الجامعة لم تكن أيضا تحضى باجماع اعضائها - •

وهذا التأكيد الاخير يحصل وسط جو متفجر وشديد التوتر من جراء المناقشات التى جرت خلال أسبوع المثقفين الكاثوليك ، تلك المناقشات التى بدت للسيد ميشلى أنها تحمل فى طياتها حربا أهلية بين الافكار • وتناول الكلمة السيد ب. هـ. سيمون أمام ذلك الجمع العلمى والذى يعتبر مسالما.وكان نص مؤلفه موجودا فى كل الافكار • وحدث الانفجار فبينما ساند موقفه مارو وهو ردان اتهمه كل من ج• مارسيل و م• ماسينى بالخيانة • وفى هذه الواقعة يقول ادمون ميشلى فى كتابه :«انك ترى على الوجوه **الواجمة** للمتخاصمين تلك الصورة التى يجب ان تسميها باسمها الحقيقى • الحقد • ونظرا للمكان وقيمة الحاضرين لابد من طرح السؤال : « هل يمكن لكل هذه الضغينة أن تقطن نفوس اناس اتقياء ؟ » • بلاشك ، واذا كان الشأن هكذا هنا ، فكيف يمكن ان يصير الوضع فى الاوساط الاخرى • وللرد على تهمة الخيانة يثار اتهام آخر لا يقل خطورة وهو تهمة الاستبداد أو الفاشية ، البعض خونة والبعض الآخر فاشيون ، ويعلم الله ما كان تحمله

تلك الكلمة من ذكريات في فرنسا بعد عشر سنين فقط من انتهاء الحرب العالمية الثانية · ففي صيف 1957 طلب بورجيس مونوري الصلاحيات الخاصة ، ونجد بسبب هذا نفس الفرز الذي قسم بين المثقفين الفرنسيين تحت الاحتلال الالماني · غير أن التقسيم آنذاك لم يكن متساويا . يجب التأكيد على هذا والالحاح عليه · فهناك اقلية « موراسية » ، تأخذ القوة بلبها ، وهناك الاغلبية العظمى الوريثة للتقاليد الجمهورية والمعادية لكل حكم عسكري · وقبل عودة الجنرال ديغول الى الحكم بسنة ، كانت قد حدثت حرب أهلية بين الافكار ، وهي حرب تمهد لكثير من الاشياء الاخرى · وهذه الاشياء الاخرى لم تتخذ بعد شكلها · ولكن ، وبينما صارت تتضح ملامح حل المشكلة الجزائرية ، استخلص دومينياك في مجلة الفكر (عدد يناير 1961) العبرة من كل تلك المجابهات والاصطدامات الحادة · « ان الجمهورية الرابعة قد تحطمت على حرب الجزائر · واذا كانت الديمقراطية لا تزال توجد بفرنسا فالفضل يعود الى شخصية الجنرال ديغول المتميزة · ولكنها اصبحت ديمقراطية محمية ليس لها من قوة ذاتية ولا من دافع مدني · والسبب الاول لهذا الانحطاط هو ممارسة الكذب والتضليل ايجابا أو سلبا · فخلال تلك الاربع سنوات ليس هناك أي رجل دولة وليس هناك أي حزب سياسي كبير لم يكذب ولم يتنكر لنفسه · وهنا يمكن ان نحكم على الشر والاذى الذي سببه التعذيب » ·

وتحول الموضوع شيئا فشيئا من مشكل عدالة ، وعمل فردي الى تحليل لهياكل الدولة كلها بحيث وصل الامر الى حد التساؤل عن الانتماء لدولة فاسدة · ولكن ، وقبل أن يصل الشأن الى هذه الحالة القصوى يجب ـ كما فعل الرجال الذين يعنوننا هنا ـ اختيار جانب الدفاع عن الدولة ضد أولئك الذين يحفرون قبرها · ففي مثل هذا الجو الساخن للافكار ، وضع الجنرال ديغول في سنة 1958 ثم في 1961 وأخيرا في 1962 الحل النهائي الذي ترتضيه الاغلبية حتى ولو أن البعض لم يلقوا بأسلحتهم بالمعنيين الحقيقي والمجازي ·

* * *

كيف نختتم هذه السطور السريعة ؟ يبدو لي اننا سوف نختمها بعلامة استفهام شأننا في ذلك شأن كثير من المثقفين الذين تساءلوا : هل لعبت مناقشاتهم دورا في حل المشكل وفي تطوير العقول ؟ ان الجواب لصعب · والانطباع السائد لدى أغلبهم هو

أنهم كانوا يتكلمون فى صحراء ، وانهم لم يكن لديهم أى تاثير فعال على الاحداث . فقد كتب ب. ريكوز فى مجلة الفكر (عدد فبراير 1959) معلقا على « ماكس ويبر) ما يلى : « ان هذه الدراسة تبعث البلبلة فى نفوس المثقفين الذين سرعان ما اكتشفوا بأنهم ليسوا الا هواة فى السياسة ، وبانهم معزولون عن النفوذ السياسى الحقيقى من طرف السياسيين المحترفين » . ان المحترفين يخاطبونهم بلقب « سيدى الاستاذ » بلهجة كلها سخرية وازدراء مضيفين : « أنكم لا تفهمون شيئا » ويقول لوك ايستانغ فى مجلة « الشهادة المسيحية » الصادرة فى 29 مارس 1957 :

« ان المرء ليكاد يقتنع بان عناء البشر لا يساوى قصيدة شعر . وما جدوى ذلك القلم الذى نوقع به ذيل البيانات . ان من الاجدى له ان يتحول الى عصفور كما تحول قلم تلميذ السيد بريفير » . انها كلمات تقطر بأسا ومرارة أمام وضعية لم تتغير ، رغم الكلمات ، بل انها لا تزداد الا خطورة .

وعلى هذا السؤال الختامى ، يجيب الكل فى الواقع لانه ليست هناك أية وسيلة للحكم المؤكد على فعالية القلم .

ولكن ، اذا لم يكن بالامكان ان نرى رأى العين وأن نحصى بالارقام فعالية تفكير أو نداء هل معنى ذلك أن نحكم عليها بأنها أوهام ؟ وهل معنى ذلك ان نتخلى عن العمل الفكرى . ان كثيرا من الرجال قد كتبوا ولم يروا أبدا مفعول أقوالهم حتى يئسوا ، ونحن نقرؤهم اليوم بكل اهتمام .

معاقد الطرافة في فكر ابن خلدون

د. عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة



عبد الرحمن بن خلدون ، فى نظر الكتاب الغربيين ، امام المؤرخين العرب ، وأحد كبار المؤرخين فى العالم ، ومؤسسر « علم الاجتماع » الحديث ، قبل « أو جست كمت » بنحو خمسة قرون ...

ومن عجب أن هذا المفكر العبقرى ، الذى يمجده اليوم ، كتاب العرب وكتاب المسلمين قد ظل عند أولئك وهؤلاء ردحا طويلا من الزمان مغمورا ، فلم يلتفتوا اليه ، ولم يتبينوا مواقع أصالته ، ولم يستشفوا آفاق جدته .

أكبر ظننا أن دراسة آثار ابن خلدون فى العالم العربى انما بدأت فى مصر ، أواخر القرن الماضى ، وكان رائدها السيد جمال الدين الافغانى وحمل لواءها من بعده الامام محمد عبده الذى ألقى فى « دار العلوم » محاضرات عن ابن خلدون .

وفى كتاب ابن خلدون المشهور باسم « المقدمة » نظرية مستفيضة فى البحث التاريخى أو فى « فلسفة التاريخ » ـ كما يقال اليوم ـ وفيها على الخصوص اسهام جديد

فى نمو الفكر الانسانى ، ونعنى به تحليلا مبتكرا للمنهج التاريخى ، وتأسيسا متينا لما يسمى فى الاصطلاح الاوروبى الحديث « علم الاجتماع » ٠

يستهل صاحب « المقدمة » كتابه بحديث عن أهمية التاريخ وفضله : ولاول وهلة نراه يبين الفرق بين النظرة « البرانية » والنظرة « الجوانية » الى هذا الفن العتيق ٠ ولاول مرة أيضا نراه يدعو الى اعتبار التاريخ فرعا من فروع الفلسفة ، أو « العلوم الحكمية » ، على حد تعبيره اللماح ، فيقول (1) : « ان فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الامم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، يتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، اذ هو فى **ظاهره** لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول ٠٠٠ وفى **باطنه** نظر « وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق » ٠

وهو يحلل لنا أعمال من سبقوه من « فحول المؤرخين فى الاسلام » ، مبينا أن المتطفلين على التاريخ قد خلطوها بما توهموه أو ابتدعوه « **ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال** » ، ولم يرفضوا ترهات الاحاديث والروايات ٠ ومع أنه كان فى مؤلفات الكلبى والمسعودى والواقدى من المطاعن والمغامز ما هو معروف عند الثقات ، الا أن الكافة اختصهم بقبول أخبارهم ٠ « ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد بليد الطبع والعقل ينسج على ذلك المنوال ٠٠ ويذهل عما أحالته الايام من الاحوال » ٠ وبالجملة كانت أعمالهم «حوادث لم تعلم أصولها » ٠ يكررون فى موضوعاتهم الاخبار المتداولة (دون تمحيص لها) ٠٠٠ فيبقى الناظر متطلعا بعد الى افتقاد أحوال مبادىء الدول ومراتبها ، ومفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها ، باحثا عن المقنع فى تباينها أو تناسبها ٠٠٠ ثم جاء آخرون فافرطوا فى الاختصار ، وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والامصار ، مقطوعة عن الانساب والاخبار » ٠

---

1) اعتمدنا فيما أوردنا من نصوص لهذا المقال على الطبعة القيمة الممتازة التى قام على تصحيحها وتحقيقها وشرحها الدكتور على عبد الواحد وافى (القاهرة سنة 1960) ٠

وينتقل ابن خلدون الى بيان أسباب الخطأ أو الكذب أو التحريف فى الاخبار ، وأهمها فى نظره : التشيع للآراء والمذاهب ، والثقة بالناقلين والنفاق لاصحاب الجاه والسلطان ، و « الذهول عن المقاصد » · وهو ما نسميه فى اللغة العصرية باسم « الغفلة » (أو التغفيل !) ·

ولا يقتصر ابن خلدون على النقد اللاذع لما وقع فى كتب المؤرخين السابقين ، ولكنه يعرض علينا منهجا علميا لعلاج هذه الاسباب ·

وخلاصته تحرى ما نسميه الآن باسم « الموضوعية » وقوامها التحرر من الهوى ، وتجنب ما سيطلق عليه « ديكارت » من بعده اسم « الرأى المسبق » او « الفكرة المبيتة

وواضح هنا أن « خلفية » فكر ابن خلدون فى معالجة تصديق المؤرخ للرواة والناقلين هى قاعدة « التجريح والتعديل » المعروفة عند « علماء مصطلح الحديث » · ومن هنا كانت دعوة ابن خلدون الى تطبيق هذه القاعدة على علم التاريخ ·

ولمن شاء أن يتوسع فى المقارنة بين قواعد هذا المنهج عند ابن خلدون وقواعد المنهج الديكارتى (وأولها قاعدة البداهة) ، وثانيها قاعدة (تجنب العجلة والتحيز) ، فمجال القول عند دارسى الفلسفة والاجتماع هنا فسيح خصيب ·

* * *

ويتحدث ابن خلدون عن واقعات « العمران البشرى » أو « أحوال الاجتماع الانسانى » الذى هو « عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الاحوال » ·

ويتضح مما كتبه ابن خلدون فى « المقدمة » أنه نظر الى الظاهرات الاجتماعية نظرة شاملة تحيط بجميع أقسامها وأطرافها ـ من ظاهرات عائلية واقتصادية ودينية وسياسية واخلاقية وجمالية وتربوية ولغوية ، ـ واستطاع بأن يبين اثر البيئة الجغرافية فى الظاهرات الاجتماعية · وهذه فيما يبدو نظرة جديدة امتاز بها ابن خلدون ولم يسبقه

اليها أحد ، بل انها ظلت مجهولة حتى مستهل القرن العشرين ، اذ عرفت باسم « علم البنية الاجتماعية » (أو المرفولوجيا الاجتماعية) كما يحدثنا الثقات من علماء الاجتماع فى العالم الغربى ٠

ولاول مرة ـ فيما يحدثنا المستشرق الفرنسى « دوسلان » ـ يؤخذ المجتمع الانسانى موضوعا للدراسة ، اذ نرى ابن خلدون يقرر أنه لاغنى لمؤرخ الحضارة عن أن يرسم صورا لتقدمها وتدرجها منذ نشأتها حتى وصلت الى ما وصلت اليه فى عهده ، ولاغنى له عن أن يزود قراءه بجميع المعارف التى ينبغى له الوقوف عليها قبل الاقدام على دراسة التاريخ الانسانى ٠ ثم هو يوضح أن واجب فيلسوف التاريخ هو أن يستكشف القوانين التى تخضع لها الظاهرات الاجتماعية فى نشأتها وتطورها ، وأن علم « العمران البشرى » هو المعيار الصحيح لتمييز الحق من الباطل فى التاريخ ٠ لابـــد اذن من متابعة ارتباط الوقائع بعضها ببعض ، لان « قانون العلية أو السببية » ذو دور كبير فى التاريخ ٠

وهذه أيضا نظرة فيها جدة وطرافة : فقبل ابن خلدون لم يفطن أحد الى أن الظاهرات الاجتماعية لا تسير حسب المصادفات والنزوات ، بـــل هى خاضعة لقوانين مطـــردة لا تتخلف ، شانها فى ذلك شأن الظاهرات الطبيعية والفلكية والبيولوجية ٠ ومن أجل ذلك رأى ابن خلدون أنه يتعين دراسة هذه الظاهرات الاجتماعية دراسة « موضوعية » بتعبيرنا الحديث ، أى على نحو كنا ندرس ظاهرات العلوم الاخرى ٠

وواضح مما تقـدم ان الدراسة التى انشـأها ابن خلدون فى « المقـدمة » قد جـاءت بعلـم جـديد هو « علم الاجتمــاع » ٠

وواضح أيضا من كلام ابن خلدون نفسه أنه كان مدركا تمام الادراك للمهمة التى نهض بعبئها ، وكان معتزا كل الاعتزاز بالاكتشاف (أو الاختراع) الذى فتح الله بـه عليه ، فهو يقول عن منهجه فى كتابه ، « وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكا **غـــريبا ، واخترعته** من بين المناحى مذهبا **عجيبا** ، وطريقة **مبتدعة** وأسلوبا ، وشرحت فيه مـن أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتية مـــا يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها » ٠

ويقول عن علم العمران البشرى ، « وكأن هذا علم **مستقل بنفسه** ، فانه ذو موضوع ، وهو العمران البشرىٰ والاجتماع الانسانى ، وذو مسائل ، وهى بيان ما يلحقه من العوارض الذاتية واحدة بعد أخرى· وهذا شأن كل علم من العلوم ، وضعيا كان أو عقليا.

ثم هو يعود فيقول : « اعلم أن الكلام فى هذا الغرض **مستحدث** الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص ، وليس من علم الخطابة الذى هو أحد العلوم المنطقية ، فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور الى رأى أو صدهم عنه ، ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية ، اذ السياسة المدنية هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ، ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه ·

ويمضى ابن خلدون فيقول عن العلم الجديد الذى أنشأه « وكأنه علم **مستنبط النشأة ، ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لاحد من الخليقة » ما أدرى لغفلتهم عن ذلك ـ وليس الظن بهم ولعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا ، فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى أمم النوع الانسانى متعددون ، وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل».**

وقد عقد ابن خلدون فى « المقدمة » فصلا مشهورا يكثر الاستشهاد به فى كتابات المعاصرين وعنوانه أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده · وقد بين فيه أن السبب فى ذلك أن النفس تعتقد الكمال فى من غلبها وانقادت اليه ، اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو بما تغالط ص أن انقيادها ليس لغلب طبيعى انما هو لكمال الغالب · فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء ··· ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه . بل وفى سائر احواله » ·

وبعد فان استكشاف فكر ابن خلدون فى أيامنا هذه ليس من قبل الاشتغال بالامور النظرية أو البحوث الاكاديمية التى لا تهم الا الدارسين المختصين أو الباحثين الفارين من بؤس الحاضر الى رحابة الماضى المجيد وبعبارة أخرى نقول ان دراسة فكر ابن خلدون فى

مظاهر عبقريته ليست انصرافا عن مشاكل زماننا ، بل هى مشاركة ايجابية فى تحليل العلل البعيدة العميقة لاخطر ما نواجهه من مشكلات وتحديات ·

والواقع أن كتابات ابن خلدون تضيء لنا مرحلة مهمة جدا فى تاريخ أقطار نشهدها اليوم فى وضع من أوضاع البلاد التى يطلق عليها اسم « المتخلفة » أو « النامية » والواقع أيضا أن ابن خلدون حين قام بتحليل علمى للاحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى كانت تعيش فيها افريقية الشمالية ابان العصر الوسيط ، قد أثار عددا من المشكلات التاريخية الاساسية ، لقد وصف نظما وانماطا اجتماعية وسياسية معقدة أشد التعقيد · وهذه النظم والانماط حين خضعت لتأثيرات خارجية قد مهدت السبيل لقيام السيطرة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر · وهذه السيطرة الاجنبية هى التى أدت بدورها الى أوضاع التخلف الحاضر ·

ان عمل ابن خلدون تسجيل لمولد التاريخ من حيث هو علم ، وهو يفتح لنا نافذة واسعة على مرحلة رئيسية من مراحل الماضى لدى ما يطلق عليه اليوم اسم «العالم الثالث».

منشـــورات

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينيـــة

صـدر أخـيرا :



انطباعات عن
ملتقى الدراسات العربية
و الاسلامية
بمعهد تكوين الدعاة
للجامعة السيفية ـ ببومباى ـ

المهدى البو عبدلى

عضو المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائر



انعقد هذا الملتقى بمدينة بومباى اثر المهرجان الذى اقامته طائفة (البهرة) الفاطمية بمناسبة احياء ذكرى قائدها الراحل الداعى الواحد والخمسين ، الدكتور طاهر سيف الدين ، الذى كان ابرز وأمثل دعاة الطائفة وساعدته الظروف حيث دامت رياسته خمسين سنة اى من سنة 1945 الى سنة 1965 م · وفى هذه الفترة وضع كثيرا من التآليف باللغتين العربية والاوردية ، ونشر نفائس المخطوطات الفاطمية التى كانت تزخر

بها خزائنه ، وفى عهده ازدهرت الجامعة السيفية بمدينة سورت ، المتخصصة فى تكوين الدعاة ، والتى تبعد عن مدينة بومباى بنحو 160 كم • وهى من مؤسسات احد اجداده • وهو الداعى سيف الدين الذى سميت الجامعة باسمه ، تطورت الجامعة السيفية فى عهد د • طاهر سيف الدين ، تطورا ملموسا ، حيث ادخل فى برامج التعليم بها ، زيادة على العلوم الدينية اللغات والعلوم الاقتصادية والفنية والسياسية واللغة العربية وأكثر تلامذتها من ابناء الطائفة ، المنتشرة فى مختلف البلاد الاسلامية ، وبالخصوص فى بلاد اليمن ، وافريقيا الشرقية ، والخليج العربى ، كما اسندت الى د • طاهر سيف الدين ، ادارة جامعة (على كرة) بحيدراباد ، الشهيرة فى بلاد الهند بانها من أهم مراكز انبثاق الثقافة الاسلامية ، ود • طاهر سيف الدين هو والد الرئيس الحالى لطائفة البهرة ، وهو عظمة السلطان د • محمد برهان الدين ، الداعى الثانى والخمسون ، وقد دشن فى هذا المهرجان ، مسجد وروضة ، بمدينة بومباى فى الحى الاسلامى ، المعروف ببندربازار (Bender Bazar)

ترأس احتفالات التدشين ، رئيس الجمهورية الهندية فخامة السيد فخر الدين على أحمد ، وحضرها علاوة على عدة وزراء وشخصيات هندية ، ممثلون لمعظم الدول الاسلامية والعربية كان المشرف على مهرجان التدشين وملتقى الدراسات العربية والاسلامية ، الذى اعقبه مباشرة ، عظمة الداعى الفاطمى د • محمد برهان الدين وهو الذى وجه وفودا من افراد أسرته ، وتلاميذه ، الى دعوة الشخصيات الاسلامية ، وغير الاسلامية ، من مختلف بلدان العالم ، للحضور فى هذه الاحتفالات ، كان من ضمن هؤلاء المدعوين ، الاخ الوزير السيد مولود قاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، الذى استجاب للدعوة ، الا انه ، عرضت له موانع ، فشرفنى بالنيابة عنه ، فمثلت الجزائر فى هذا الحفل ، صحبة الاخ السيد عمر أو صديق ، سفير الجزائر بالهند •

حضر هذا الحفل ، عشرات الآلاف من مختلف سكان الهند ، مسلمين ، وغير مسلمين ، وفى طليعتهم ممثلو الدول الاسلامية وجامعاتها •

وقبل ان اتعرض بمزيد من البيان والتفصيل لمهرجان التدشين هذا ، ولاعمال ملتقى الدراسات العربية والاسلامية ، الذى اعقبه ، وللحديث عن الخطبتين المنهجيتين اللتين

القاهما فى هذين الحفلتين رئيس الطائفة د · محمد برهان الدين · احدثكم باختصار عن اطوار الدولة الفاطمية فى الميدان الدينى والعقائدى بعد ما تولى الايوبيون على مملكة مصر ، وهاجر الكثير منهم الى اليمن ، ثم الى بلاد الهند ، حيث تواصلت الدعوة ، وتقمص دعاتها ثياب التستر من جديد الى يومنا ، هذا ، وقد حافظ هؤلاء المهاجرون ، على الوثائق التى نقلوها من الجزائر ، عندما اختار الملك المعز لدين الله الفاطمى حوالى سنة 36I هـ · الاقامة بالقاهرة المعزية ، وبفضل هذه الوثائق ظهر جليا، الرباط الوثيق، الذى يربط الدولة الفاطمية بالجزائر ، ومما يؤيد هذا ، أى نقل هذه الوثائق ، والاحتفاظ بها ، ما نشرته مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، فى المجلد الرابع الجزء الثانى المؤرخ فى ديمسبر 1936 كتقديم لمذكرات تتعلق بالمهدى الفاطمى (استتار الامام ، وسيرة جعفر الحاجب) التى تولى تحقيقهما المستشرق IVANOW ايفانوف ، وتولى ترجمتهما الى العربية ، الاستاذ محمد كامل حسين الذى قال فى تقديمه : « هاذان المؤلفان ـ اللذان ينشران هنا ـ من الكتب التى يحتفظ بها الاسماعيلية المستعلية بالهند ـ أى البهرة ـ كمادتين من مواد أدبهم الدينى ، الذى لا يسمحون لاحد ان يطلع عليه ، وبالرغم من ذلك ، فقد ترجم غلام على ابن اسماعيل أول هذين المؤلفين الى اللغة الكجراتية ، وطبعه (بالمطبعة الحجرية) فى بومباى عام 1344 هـ ـ 1916 م · لا يعد هاذان الكتابان من كتب التاريخ ، لكنهما مذكرات ، جمعت عدة حوادث ، يغلب عليها روح الاساطير ، ومع ذلك فهما يجمعان تفاصيل عديدة ، أكثرها ممتع قيم ، ومتمم لما رواه الطبرى (ج 2 ص : 2217 ـ 2246) الذى كان يعاصر من ورد ذكرهم فى هذين النصين ، اما الكتاب الاول ـ استتار الامام ـ فينسب عادة الى رجل اسماعيلى ، كانت له مكانته الرفيعة ، هو احمد بن ابراهيم (أو ابن محمد) النيسابورى ، ولا نعرف شيئا عن حياته ، وكل ما يمكن استخلاصه من كتابه ، انه كان يعيش فى اواخر القرن الرابع ، فى أيام المعز لدين الله الفاطمى) اهـ

والذى يهمنا فى موضوع بحثنا ، مما أوردته من هذا التقديم ، اننا نجد ، فى هذه الكتب ، ذكر كثير من اعلام البلدان والقبائل والمدن الجزائرية ، منها المندثرة ، ومنها الباقية الى يومنا هذا ، كايكجان ، وكتامة ، وصنهاجة ، واشير ، وطبنة ، وبسكرة ،

وتيفاش وفرجيوة الخ . كما نجد فى هذه التآليف مكانة مرموقة لقبيلة كتامة ، حيث ان الخلفاء الفاطميين ، كانوا يشيدون بشجاعتهم واستماتتهم فى حروب الدولة ، بل صرح الخليفة القائم فى خطبة وجهها الى جيشه ، عند اشتداد حروبهم مع الثوار ، الذين كان يقودهم مخلد بن كيداد الزناتى الخارجى ، المشهور بصاحب الحمار شبههم بالمهاجرين والانصار ، الذين نصروا دين الاسلام فى ابتداء أمره ، فقال « وقد علمتم يا معشر كتامة ما مضى عليه آباؤكم ، وقدماء اسلافكم ، من لزوم الطاعة والاعتصام بحبلها ، والتفىء بظلها ، والمجاهدة فى الله حق الجهاد ، وانكم خبيئة الله لهذا الحق المحمدى الفاطمى المهدى ، حتى اظهره الله واعلاه ، وجعل لكم فخره وسناه ، فانكم كحوارى عيسى ، وانصار محمد صلى الله عليه وسلم يا أبناء المهاجرين والانصار الاولين السابقين المقربين، أليس بكم أزال الله دول الظالمين ، التى مضت لها أحقاب السنين ، حتى جعلهم الله حصيدا خامدين ، وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، فصرتم تغزون ، بعد أن كنتم تغزون ، نزل بازائكم الدجال اللعين ، فى شرذمة ضالة مضلة ، لم يستضيئوا بنور هداية ، فهم كالانعام المهملة ، والصور الممثلة ، والخشب المسندة ، والحمر المستنفرة ، ان أقاموا هلكوا ، وان طولبوا أدركوا ، فلا تنكصوا بعد الاقدام ، وأنتم حزب الله ، وهم حزب الشيطان ، وقتيلكم فى الجنة وقتيلهم فى النار ، فأى حق بعد هذا الحق تطلبون ، ومع أى امام بعد امامكم تقاتلون الخ . » (من كتاب « سيرة الاستاذ جوذر » نشر سلسلة مخطوطات الفاطميين ـ 11 ـ دار الفكر العربى 1374هـ ـ 1954م) .

وعلاوة على ما ذكرناه فان جميع المؤرخين الذين كتبوا تاريخ الدولة الفاطمية ، متفقون ، على ان الفاطميين مرتبطون بالجزائر ، وكيف لا ، وهم مدينون بتكوينهم اليها ، اذ فى قطعة من ترابها ، تأسست دولتهم ، وقبيلة كتامة الجزائرية العتيدة ، التى كان موقعها يمتد من سواحل عاصمة الجزائر الى سواحل الحدود التونسية ، هى التى تبنت الدعوة الفاطمية ، وقادت مسيرة انتفاضاتها ، التى اكتسحت الدولة الاغلبية ، الممثلة للخلافة العباسية ، وقضت عليها . ثم أزاحت من طريقها بقية الدول ، التى كانت تتقاسم بلاد الجزائر ، والمغرب الاقصى ، كالادارسة ، والرستميين ، ومغراوة ، وبنى يفرن ، ومع هذا كله ، نجد بعض المؤرخين ، خصوصا المعاصرين ، يظنون ان منطلق

الدعوة الفاطمية ، كان من مدينة المهدية المشهورة بتونس ، وعندما يتكلمون على ايكجان، معقل الفاطميين ، ومنطلق انتفاضاتهم ، وعلى مدينة المسيلة ، التى ولد فيها الملك المعز لدين الله الفاطمى ، وتربى فى ربوعها ، يجعلونهما تابعين لتونس .

واننى قبل أن أتعرض للحديث عن هذا المهرجان ، الذى دشن فيه المسجد ، والضريح ، بمدينة بومباى ، وملتقى الدراسات العربية والاسلامية ، الذى أعقبه ، أحدثكم باختصار ، عن أطوار الدولة الفاطمية ، بعد نهايتها من مصر ، وانتقال أفرادها الى اليمن ، ثم الى الهند ، وهى الفترة التى تقمص فيها الفاطميون من جديد ، الدعوة الدينية المتسترة ، وواصلوا دعوتهم الى يومنا هذا ، فاننى أتناول بالبحث ، مراحل هذه الفترة ، التى تثبت لنا ، حيوية هذه الطائفة ، التى لقيت فى طريقها ، منذ ما يزيد على الالف سنة ، عقبات ، ومحنا، فى الميادين السياسية ، والحربية ، والعقائدية فقدت فيها كثيرا من مقوماتها ، الا انها ، بفضل ايمان رجالها ، ووفائهم للمبدأ ، الذى كانوا يؤمنون بحقيته ، واصلوا مسيرتهم ، وذللوا جميع الصعوبات التى تعرضت لهم ، وهذا شأن كل دعوة ، آمن بها أهلها ، والتاريخ ملىء بعاقبة هذا النوع من الايمان ، بالمبادىء التى لم يتسرب اليأس الى نفوس أصحابها .

الفاطميــــــون

ينحدر الفاطميون ، مؤسسو الدولة ، من صلب الامام جعفر الصادق ، حفيد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

وقد توفى الامام جعفر الصادق سنة 148هـ وهو مشهور بالعلم ، ورواية الحديث ، وقد أخذ عنه كثير من معاصريه ، الذين نجد من جملتهم ، الامام مالك بن أنس امام المدينة المنورة ، ولما توفى الامام جعفر الصادق هذا ، افترق أولاده ، وأنصاره ، فرقا وشيعا ، كان من بين هذه الفرق ، الامامية الاثنى عشرية ، التى كانت تنتصر الى موسى الكاظم ، ابن الامام جعفر الصادق ، وفرقة الاسماعيلية ـ موضوع بحثنا ـ التى تنتسب الى الامام اسماعيل ، الولد الاكبر للامام جعفر الصادق ، وقد توفى الامام اسماعيل هذا ، فى حياة والده ، وخلفه ولده ، الامام محمد ، وقد كتب لهذه الفرقة

الخلود ، اذ هى التى تكونت منها الدولة الفاطمية ، ثم تفرقت الاسماعيليـــة هـذه الى فرقتين ، مشهورتين ، عند مؤرخى المذاهب ، وهما الفرقة الاسماعيلية « الغربيـــة » ، والفـــرقة الاسمـاعيلـــية « الشرقيـــة » ، وذلـــك ان الخليفـــة الفاطمـــى المستنـــصر باللـــه الخليـــفة الثـــامن للـــدولـة الفاطمـــية ، كـــان أوصـــى ـ حسب المبادىء الفاطمية ـ بالخلافة لابنه البكر ، ثم عزله منها ، وأوصى بها ، لابنـــه الاصغر ، ولما توفى الخليفة المستنصر بالله ، سنة 487هـ · الموافق 1094م · تفرقـت شيعته الى فرقتين ، احداهما انتصرت للولد الاكبر ، وهذه هى الفرقة الاسماعيليـــة الشرقية ، وكان مقرها ببلاد ايران ، ومن أشهر دعاتها ورؤسائها المعاصرين ، آغا خان ، الذى توفى منذ سنوات ، وخلفه ولده السيد كريم الذى لا زال يتمتع بالتجلة والتقدير عند أنصاره ، وهو الآن بكراتشى ويتردد كثيرا على أوروبا ·

والفرقة الثانية التابعة للولد الاصغر ، هى المعروفة بالاسماعيلية « الغربية »، وهى التى يتزعمها اليوم عظمة سلطان البهرة د · محمد برهان الدين ، الداعى الثـــانى والخمسون ، الذى أقام المهرجان المتحدث عنه ·

والحديث عن هذين الطائفتين ، وعن بقية الطوائف الشيعية ، خصص بمئات التآليف، ولا زال معينه لم ينضب ، وكان من بين الباحثين الذين تتبعوا مراحل هذين الطائفتين ، المستشرقين أمثال VON HAMMER PURGSTALL (فون هامر بور قسطال) النمساوى ، ودو ساسى DE SACY الفرنسي والمستشرق الروسي ايفانوف IVANOW وأخيرا فقط ظهر كتاب قيم للمستشرق الفرنسى هنرى كوربان ، HENRY CORBIN عنوانه « تايخ الفلسفة الاسلامية » ، وهنرى كوربان هذا ، متخصص فى الدراسات الفارسية ، بجامعتى الصوربون وطهران ، وقد استعان بعالمين مسلمين ، متخصصين فى تاريخ الاسماعيلية ، وهما الاستاذ عثمان يحيى السورى ، العضو بالمركز الوطنـــى للبحوث العلمية (C.N.R.S.) بباريس والاستاذ حسين نصر ، استاذ بجامعـــة طهران ، هذا كله يدلنا على اهتمام الباحثين ، من مختلف الملل والنحل ، بمثل هـــذه المواضيع الجوهرية ، فى تاريخ الشعوب ، وتطور الاديان ·

وقد تعلم ان المذهب الشيعى له مكانته ، فى كثير من البلاد الشرقية ، وان من أصول العقائد الاسماعيلية ، وجوب وجود امام يتولى الزعامة الروحية فى العالم ، وان قيـــام

الوصى الذى يرجعون عهده ، الى النبى صلى الله عليه وسلم ، يكون بالنص ، ويستدلون على رأيهم هذا ، بان أول وصى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الخليفة الرابع علـــى ابن ابى طالب ، ويخلفه فى هذه الولاية ، الائمة من ذريته ، ويستمر ذلك بالتسلسل إلى يوم القيامة ·

وفى عهد ملوك بنى امية ، والصدر الاول من الدولة العباسية ، ضيقوا الخناق عـلى أهل البيت ، فاختار ائمتهم الاستتار ، وفى هذا قال الامـــام الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » :

« وبعد اسماعيل محمد بن اسماعيل السابع التام · وانما تم دور السبعة به ، ثـم ابتداء منه بالائمة المستورين الذين كانوا يسيرون فى البلاد سرا ، ويظهرون الدعـــوة جهرا » الخ اهـ ·

علمنا انه بعد انتهاء حكم الدولة الفاطمية على مصر ، حاول الملوك الايوبيون القضاء على البقية الباقية منهم ، فكانت الهجرة الى اليمن ، تلك الهجرة التى دامت حوالى أربعة قرون ، وفى مدة الاقامة باليمن ، كان جل الفاطميين ، يحترفون التجارة ، وكانت قوافلهم تجوب بلاد الهند ، حيث انتشرت الدعوة السرية ، واخيرا أى فى اوائل القرن العاشر الهجرى ، انتقل مركز الدعوة من اليمن الى الهند وذلك فى عهد الداعى المطلق الثالث والعشرون محمد عز الدين (منة ربه) حوالى سنة 946 هـ ·

امتاز افراد هذه الطائفة الذين لا يتجاوز عددهم المليونين ، بالاشتغال بالتجـــارة ، ولهذا اطلق عليهم اسم « البهرة » التى هى مرادفة لاسم التجارة ، بلغة الغرب الهندى ، واننى جنبت المستمعين ، الدخول فى التفاصيل ، التى تحتاج الى مجلدات ، وانما ذكرت ما لابد من ذكره · بغاية الايجاز ، تمهيدا لصميم موضوع بحثنا الذى هو تدشين المركز ببومباى وأعمال ملتقى الدراسات العربية والاسلامية بالجامعة السيفية ، كان يـــوم التدشين يوما مشهودا فى مدينة بومباى فانه زيادة على الوفود التى وردت على المدينـة من جل الاقطار الاسلامية وغير الاسلامية الذين خصص لهم نزل « تاج محل » الشهير ، اذ يعد من افخم اوتيلات العالم ، ولفت اليه الانظار بصفة خاصة ، الاسم الذى يحمله ، اذ « تاج محل » هو اسم الضريح الشهير فى تاريخ الادب الهندى ، والادب العالمى ، الذى

يعده كثير من الكتاب المعاصرين ، الذين لا يخلو بحث من بحوثهم عن الهند من ذكره ، وتخصيصه بصفحات كما نجد ، وكالات السياحة العالمية ، تخصص له رحلات ، اذ يعتبر رمزا لوفاء الزوج لزوجته ، وذلك انه فى القرن السابع عشر الميلادى وبالضبط فى سنة 1629 م • توفيت السيدة ممتاز محل ، زوج الشاه جهان ـ الذى هو من سلاطين المغول المسلمين الذين حكموا بلاد الهند عدة قرون ـ ولم يصبر زوجها عنها ، اذ كانت زيادة على جمالها الممتاز ترافقه الى ميادين القتال ، لاثارة نخوة الجيش وقد اصابها المخاض فى ساحة الوغى ، عندما توفيت فاراد زوجها ان يخلد ذكرها ، فبنى هذا الضريح ، الذى استغرق 14 سنة ، وتكلف مصاريف قل ان يصل اليها مبنى آخر طيلة قرون ، والهند كما نعرف كلنا بلاد القصور ، ولا زال هذا القصر محط رحال سواح العالم ، خصوصا الاوروبيين ، ويوجد هذا الضريح بمدينة اغرا ، التى كانت عاصمة البلاد فى عهد ملوك المغول قبل ان ينتقل مقر العاصمة الى مدينة لاهور ، ومدينة اغرا تبعد من مدينة دلهى عاصمة بلاد الهند الحالية ، بنحو 180 كم • كما اشتهر نزل « تاج محل » هذا بمكانته ، رغم احداث أوتيلات تابعة لشبكات أوتيلات شيراطن SCHERATON وهيلتون HILTON العالمية ، يحتوى نزل « تاج محل » على عدة قاعات خاصة للمؤتمرات العالمية التى كثيرا ما تختاره الدول لعقد مؤتمراتها ، وكذلك يحتوى على حدائق صيفية وشتائية ، ولنرجع الى الحديث عن حفل التدشين ، وقع هذا الحفل يوم السبت 20 افريل 1975 على العاشرة صباحا ، وقبل انطلاق وفود المدعويين من النزل ، كانت شوارع بومباى ، وسقوف المنازل ، وشرفاتها ، مكتضة بالكتل البشرية التى لا يمكن مشاهدة مثلها ، الا فى البلاد الآهلة بكثرة السكان ، مثل بلاد الهند الذى يجاوز عدد سكانها ستين وثلاث مائة مليون نسمة ، ويطلق على جميع السكان هنود ، مع اختلافهم فى الاصل ، والدين ، واللغة ، اذ يوجد من تباين الاجناس ، والديانات ، واللغات ، واللهجات ، فى الهند ، ما لا يوجد مثله فى جميع اقطار العالم ، ويمتاز الهنود بصفة عامة ، انهم يعتزون بقوميتهم ، فهم متمسكون بالزى الوطنى فى ملابسهم ، القميص المقفول الى الرقبة RADINGOTTE والسروال الابيض ، ولهذا لم نستغرب عند ما جلس كبار الشخصيات وفى طليعتهم رئيس جمهورية الهند ، السيد فخر الدين على أحمد ، على المنصة التى وضعت بالسرادق،

وهو عبارة عن قيمة تسع عشرات الآلاف ، أن كان لباس جميعهم بسيطا جدا ، لا يمتاز عن لباس طبقات الشعب ·

وكذلك نجد السلطات لا تتشدد فيما يستوجبه نظام التشريفات فى مثل هذه المهرجانات ، فافراد الشعب يحترمون الاوامر والنظام ، ويقفون عند حدودها ، اللهم الا في التجمعات ذات الطبقة الدينية ، وهذا لا يستغرب من امة وصفها ، مؤرخ قديم يونانى حسبما نقل ذلك الباحث الانكليزى المتخصص فى تاريخ حضارة الهند WILL DURANT فى تاليفه « قصة الحضارة » الذى نقله الى العربية د · زكى محمود المصرى قال : « ان سكان الهند يستوقفون النظر باستقامتهم ، وانهم بلغوا من سداد الرأى حدا يجعل التجاءهم الى القضاء نادرا ، كما بلغوا من الامانة حدا يغنيهم عن الاقفال لابوابهم ، وعن العهود المكتوبة تسجيلا لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون الى ابعد الحدود » اهـ ·

وقد اندهشت عندما لمحت على المنصة الشرفية السيد على ياروجنك ، الحاكم الاعلى لقاطعة مهراشتر ، الذى يشتمل نفوذ حكمه ، منطقة مدينة بومباى ، وقد القى خطابه قبل خطاب رئيس الجمهورية مباشرة ، وقد اخبرنى الاخ السفير عمراو صديق بانه من الشخصيات العظيمة فى الهند ، والسيد على ياروجنك ، سبق له ، ان زارنا الى الجزائر بمناسبة الاحتفال الالفى لمسجد ابى مروان بعنابة ، ورافقنا اياما ، لم نر منه الا التواضع التام ، والبساطة ، بينما شاهدنا فى مثل هذه الملتقيات ، وبالخصوص فى ملتقى عنابة ، من يتأثر لادنى سبب ، ويريد ان يعرف الناس ابتداء من سائق سيارته ، انه العالم الفذ ، أو الوزير الخطير السابق ، وويل للمشرفين على الملتقى ، ان بدلت سيارته لاسباب قاهرة ، أو تأخر عن الموعد ولم يفسح له مكان الصدارة ، وهذا الرجل الفاضل لولا ملاقاة بومباى لما كنت اعرف مكانته ، وقد اجتمعنا فى معرض المصاحف ، وفرح كثيرا ، واخبرنى انه لن ينسى ابدا ما قوبل به من الحفاوة والتكريم بالجزائر ·

افتتح حفل التدشين بتلاوة آيات من القرآن تلاها المقرىء المصرى ساطع الحصرى ، ثم القى المضيف د · محمد برهان الدين خطابا متهجيا ، هذه بعض فقراته ، اذ الخطاب له وزنه ، سواء عند افراح الطائفة ، الذين وردوا على بومباى من جميع بلدان العالم ، أو

المدعوين ، الذين لم تسبق لهم معرفة تامة بطائفة البهرة ، هذه ، وتاريخ تطور بقايا الدولة الفاطمية ، منذ فقدت دولتها ، ومحور الخطاب يدور حول هذا الموضوع ، ونظرا لعدم الاهتمام فى بلادنا بقضايا الهند الفكرية ، اللهم الا للدارسين المتخصصين ، وفيهم من يعتمد على بعض المصادر الاجنبية ، التى لا تخلوا من تزييف ، مثل الباحث الانكليزى WILL BRANT الذى نقل د · نجيب محمود تاليفه « قصة الحضارة » الى العربية ، وبين ان القسم الخاص من التاليف بالفتوحات الاسلامية مزيف ، فاننى نقلت جل ما فى خطاب الداعى الفاطمى فى حفل التدشين هذا ، ولم اقتصر على الخطوط العريضة ، اذ هو من أهم الوثائق للباحثين فى مثل هذه الموضوعات ، وهذا نص الخطاب بعد الديباجة والتقديم :

« أيها السادة · ان المسلمين منذ ابتداء عهدهم الى اليوم شيدوا كثيرا من المساجد والمشاهد ، وأقاموا عديدا من صروح المعرفة والايمان ، ولا تزال الآثار الباقية تشهد بروعتها وعظمتها، وجلالها وجمالها، وبهائها وبهجتها الا انه لم يوجد عبر القرون الاربعة عشر أية عمارة ـ مثل عمارتنا هذه ـ فهى بسيطة من مظاهرها فى مبناها ، غنية من داخلها فى معناها ، حيث قد نقش القرآن الكريم بكامله فى جدرانها أحسن النقش ، فأصبحت هذه العمارة فى قلب هذه المدينة التاريخية ، ومينائها التجارى ، ملجأ لقلوب آلاف من الزائرين ، الوافدين عليها ، وغدت آلاف متعددة مثلها من سائر أنحاء العالم ، تشهد بعظمتها وطهارتها ، وتراقبها وتنوء قصدها وتنزع اليها ، قد ضم مشهدها ، جثمان داع جليل من دعاة الدين ، وساهم فى بنائها ـ بالاموال والانفس ـ مئات آلاف من التابعين المحبين » ·

ثم استرسل فى خطابه فقال :

صاحب الفخامة ، حضرات الضيوف الكرام ·

هذه روضة طاهرة ـ بما فيها من مسجد ومشهد ـ فريدة ، لا فى أوضاعها الحاضرة فقط ، بل عديمة النظير فى ما يزدان به جيدها ، وجبينها ، من تراث الماضى ، فقد اقتبسنا من الآثار الفاطمية القديمة جواهر مجدها ، ومآثر عهدها ، حتى انضم فى مبناها

خلاصة محاسن تلك الآثار الفاطمية ، ومزايا تلك المآثر السنية ، فاحتوت على محاسن بناياتهم ، كما انطوت فى شخصية من نسب اليه خصائص كل داع مـن سلفه الابرار ، وعالى صفاتهم ، هكذا كانت شخصية من نسبت اليه هذه العمارة ، فكان نسيج وحده ، فى جميع صفات سائر الدعاة السالفين الاجلة على تواليهم ، فنرى كل جزء من هذا المبنى فى عظمته ، وفخامته ، يجمع حب كل من أهـل الايمان ، ويمثل تغاديهم ، يذكرنا ذلك كله ، ما نراه اليوم فى جمع شمل كبير من شخصيات عالمية بارزة ، قد اطل عليه ـ يـا صاحب الفخامة ـ ظل رعايتكم ، وحسن عنايتكم ٠

ولابد من كلمة تقدير واعتراف ، بان مساعدة الحكومة الهندية ، قد يسرت لنا الطريق فنشكرها ، ونسأل الله سبحانه ـ بحق كتابه العـزيز ـ ان يبـارك لنا جميعا فى هذا اليوم المشهـــود ٠

ثم واصل خطابه بهذه الجمـــل :

« أيها السادة ، والدى ، فخامة الداعى المطلق ، سيدنا طاهر سيف الدين ، قـــد أتى حاديا وخمسين ، فى سلسلة مجيدة ، عريقة من الدعاة الفاطميين ، وظل فى منصبه الجليل ، زهاء ثلث وخمسين سنة ، كان هذا منة من الله سبحانه ، ونعمة ، لم تتوفر لاى داع قبله ، فاستفاد بهذه النعمة الموهوبة من الله سبحانه فى الدعوة الى الصلاح والفلاح، وتعميم خير الدنيا والآخرة ، ونشر رسالة الوئام والاتحاد بين الجماعات والمـــلل ، وبين المذاهب والفرق ، وقد اقتدى به التابعون ، وسلك طريقه السالكون ، فشاركوا المسلمين فى ضرائهم وسرائهم ، حتى اصبحوا محل ثقتهم ، ومناط رجائهم ، وبفضل ذلك كله ، اصبحت هذه الجماعة ، القليلة العدد ، ذات مكانة مرموقة ، لا فى الهند فحسب ، بـــل فى سائر ارجاء العالم الاسلامى ، فازداد عددها ، وعظم فى الناس قدرها » ٠

ان اجتماعنا اليـوم ، وتشريفكم لهذا الحـــفل بعد معاناة السفر ، ومقاساة الحرب احسبه تقديرا منكم لهذه الشخصية الجليلة ، ولذكراها معـا ، ثم انه تعبـير عن حقيقة أخرى ، هى اجل واعظم ، وهو أن المسلمين لا تزال فيهم الحماسة والعـزائم للاحتفاظ بآثارهم ، وبناء الجديد منها ، ولا يزالون يحتفلون بعظمائهم ، ويشيدون بذكراهم ، فى

هذه الارض الطيبة ، التى اتخذوها لهم وطنا ، وعمروها ، وعاشوا بها ، وحظوا منها ، ونحن متيقنون ، بان مستقبلنا فى الهند مرتبط بمستقبلها ، هنا نختبر فى الامـــوال والانفس ، وهنا نسعد بالراحة والرفاهية ٠

صاحـــب الفخـــامة ،

أود ـ اليوم ـ أن أصرح بحقيقة ، وأعبر عن أخرى ـ أريـد أن أصرح ان اجتماعنا اليوم ، وحضور فخامة الرئيس ، وسائر أصحاب السعادة ، وأصحاب المعالى ، وأصحاب السماحة ، ومشاركتهم فى عواطفنا ، تعبير واقعى لروح الحرية الكاملة لجميع الاديان فى الهند يمنحها دستورها ، ويعترف بها جمهورها ، فالاجتماع تحيـة سنية ، حييتمونى بها ، فوجب علىّ ان احييكم بعمل تذكارى فى هذا اليوم ، وأفضل ان يعبر عنه ، ويعلن به صاحب الفخامة رئيس جمهورية الهند الموقر ٠

وأخيرا ارحب بكم فى هذا المسجد ، وهذا المشهد ، وأشكركم أيها السادة العلماء ، والقادة الفضلاء ، والممثلون لمختلف الاقطـار والشعوب شرقها وغربها ، وأدعو اللـــه سبحانه ان يشملنا برحمته ، ويغمرنا ببركته ، ويعلى درجاتنا فى الدنيا والآخرة ، كل وفق ما رعى ، ووعى ـ وان ليس للانسان الا ما سعى ـ وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ، واسمحوا لى ان أطلـــت ولم أقتصر على الخطـــوط العريضة من هذا الخطاب التوجيهى للداعى الفاطمى اذ ان ما يدور فى القـارة الاسيوية وخصوصا فى المجـالات العقائدية ، لا تهتم به كثيرا وسائل الاعلام بالمغرب الغربى ، ولربما نتصور أشياء كثيرة ، بخلاف واقعها ، كما ان هذا الخطاب ، تعرض فيه صاحبه ، بوضوح ، لوضعية طائفـــة البهرة ، ومكانتها ، ومنشآتها ، وعلائقها ، ببقية الطوائف الاسلامية وغير الاسلامية فى الهند ، كما يثبت لنا ان مسـيرى هذه الطائفة ، امكنهم ربط صلتهم بمـــاضى الـدولة الفاطمية ، حيث كانت درجات الداعى د٠ طاهر سيف الدين الحادى والخمسون ٠ وولده المضيف د٠ برهان الدين الـداعى الثانى والخمسون ، امتدادا للدعـاة الاولين، الذين كانت بداية سلسلتهم بالتراب الجزائرى ٠

وقد أشرت فى خطابى الذى القيته فى ملتقـى الدراسات العربية والاسلامية الذى أعقب حفلات التدشين ذكرت فيه ، باننا ان وجدنا طائفة البهرة ، لا زالت تذكر صلتها

بالجزائر وقد زار الداعى الفاطمى د· محمد برهان الدين منذ سنوات قليلة الجـزائر ، وتجول فى ربوع معاقل ومآثر الدولة الفاطمية ، ذكرت ان الجزائر لم تنس مـن جهتها هذه العلائق ، وكيف تنساها ، وعاصمتها الجزائر ، من مؤسسات قائد الدولة الفاطمية بلكين بن زيرى بن مناد ، الذى بناها بأمر الملوك الفاطميين ، قبل انتقالهم الى مصر بنحو العشرين سنة ، وقد احتفلنا منذ سنتين بالعيد الالفى لتأسيسها ، كما خصصت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى ، المنعقد ببجـاية ، يوما لزيارة مدينة المسيلة التى انشئت فى عهد الداعى الاول ، عبيد الله المهدى وبامره ، وقد اتخذها قاعدة الزاب ، بدلا من مدينة طبنة ، التى كانت قاعدة الخلافة الاسلامية بعد الفتـوحات ·

وفى مدينة المسيلة ، التى خلد مآثرها ومعالمها ، ابن هانى الاندلسى ، شاعر البلاط الفاطمى ، ولد الملك المعز لدين الله الفاطمى · ونشأ فيها صحبة بلقين ابن زيرى ، وارث قيادة المملكة الفاطمية بالمغرب العربى ، كما زرنا فى ذلك اليوم قلعة بنى حماد ، التى بنيت فى سفح جبل كيانة الذى له مكانة فى تاريخ الفاطميين اذ فى الجبل المذكور ، هزم وقتل الثائر أبو يزيد مخلد ابن كيداد الزناتى الخارجى ، كما ان المركز الوطنى للبحوث التاريخية ، التابع لرياسة الدولة ، منح جائزته الاولى السنوية لاحياء التراث التاريخى منحها لمؤلف ، كان موضوع تاليفه « تاريخ دولة بنى حماد » ، وحماد هذا كما تعلمون هو ولد بلقين بن زيرى ، الذى عينه الملك المعز لدين الله الفاطمى ، خلفـا له بالمملكـة الفاطمية ، ببلاد المغرب العربى الحالى ·

ثم تلا الداعى الفاطمى ، ممثلو رؤساء حكومات ، مصر ، وشرق الاردن ، وتونس ، والامارات العربية ، ثم والى مقاطعة مهراشتر السيد على ياورجنك ، ثم رئيس الجمهورية الذى امتاز خطابه بالتركيز على مكانة الاسلام فى الهند ، وان العـلائق التى تربط فى الظروف الحالية الهند ، بالبلاد العربية والاسلامية ، راجعة الى الطبيعة ، وتحتمها المصلحة العامة المشتركة ، لا الطمع ، ولا الاغراض ·

وبعد دور الخطب ، وتقديم الهدايا الرمزية من رؤساء الوفود ، دخلنا للروضة الطاهرة كما يسمونها ، وهى عبارة عن بنايـة ضخمة ، بنيت كلها بالرخـام الابيض الناصع ،

ونقش على جـــدران قبتها القرآن الكريم بتمامه بالذهب المصفى ، الخالص ، والمحـــلى بالجواهر والاحجار الثمينة كاللؤلؤ والزبرجد ، ثم دخلنا المسجد الملاصق للروضة ، وهو كذلك لا يقل بناؤه روعة وجمالا على الروضة ، التى دفن فيها المحتفل بذكراه ، الداعى الواحد والخمسون ، د٠ طاهر سيف الدين ، وقد روعى فيه الفن التقليدى ، وبلاد الهند اشتهرت من فجر التاريخ بانها بلاد القصور النادرة المثال ، والمساجد العديمة النظير ، وقد اضفى عليها ملوك المغول الذين حكموها ما يزيد على الثلاثة قرون ، ما بهـر العالم المتمدن فى الفن المعمارى المنتشر فى ربوعها ٠

وقد خصص جانب من المسجد لاستعراض المصاحف القرآنية ، فكان عددها خمسين مصحفا ، يرجع نسخ أقدمها الى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وأكثر نســـاخ هذه المصاحف من أشهر الخطاطين ، وقد وضع فهرس يحتوى على تراجم حياتهم ، وما اشتهر من آثارهم فى ميدان المخطوطات ، وقد أحصى ان بعضهم نسخ ثلاثين مصحفا ، ومـــن هذه المصاحف ، المكتوب بالذهب الخالص ، أما التسافير والتجليد فان تقييمها يعـادل الارقام الخيالية التى لا يعرفها الا تجار الآثار ، وألواح الفنانين ، وعلى ذكر هذه المصاحف التى عرضت بمسجد بومباى ، وقيمتها نذكر انه فى أوائل الشهر الجارى ، افتتح ببلاد انكليترا معرض « الفنون الاسلامية » بقاعة هايوارد بمدينة لندن افتتحته الملكة اليزابيت وقد شاركت مصر بعدة قطع فنية ، ومخطوطات نادرة من بينها ثمانية مصاحف ، قدرت اثمانها بمليونين ومائتى ألـــف جينيه استرلينى ، أى عشرين ومـائتى مليـون دينـار جـزائرى (220) ٠

وفى مساء ذلك اليوم كانت الدعوة بقصر المضيف ، الداعى الفاطمى ، الموجود فى حى من احياء السكن الجميلة بمدينة بومباى ، وكان الاستقبال ببهـــو خاص ، وهـــو الاستقبال الثانى اذ سبق للداعى الفاطمى زيارة الضيوف بنزل « تاج محل » قبل حفلات التدشين واقام لهم بهذه المناسبة حفلة شاى ، وفى حديقة القصر ، اقيمت مأدبة عشاء ، حضرها زيادة على الضيوف، كبار الشخصيات الهندية ، من مختلف الطبقات، والديانات، وكان القائمون بخدمة الضيوف ، هم افراد أسرة المضيف ، ويساعدهم المقربون مـــن افراد الطائفة الذين أتوا لهذا الغرض ، من مختلف البلدان ، فيهم الطلبـــة ، والعلماء ،

والعلماء ، والتجار ، والموظفون الساموان ، وميزتهم التفاني في خدمة الضيوف ، حتى يظن انها حرفتهم الوحيدة ، وقد كانت جميع أنواع الماكولات محلية ، هندية ، وتمتاز باستعمال التوابل والبهارات ، ولم يقتصر استعمال التوابل على الموائد المحلية ، بل هو عام حتى فى افخم الفنادق ، التى ينزلها سواح العالم الامريكى والاوروبى ، بل الكثير منهم يتخذها مسكنا معظم فصول السنة ، حيث يتدفق سيل السواح ، ويصعب التحصيل على بيت بالنزل ، ولو كان من الدرجة البسيطة ، وما يقال عن بيوت الاوتيلات يقال عن التحصيل على بقعة بالطائرة فى الخطوط الجوية الداخلية ، والذى يلفت النظر ، فى هذه المأدبات ، أنواع من اشربة عصير الفواكه ، وأنواع من إطباق الحلويات ، تعطر باجود روح العطر الخاص بها ، اما البخور ، والعطورات ، فذلك لا يستغرب من بلاد عريقة فى التمدن ، وقد ذكر صاحب كتاب « قصة الحضارة » WILL DORANT فيل دورانت ". الانكليزى ، الذى نقله الى العربية د . زكى نجيب محمود نقلا عن تصريح الاثرى الانكليزى المشهور « سيرجون مارشال » الذى اكتشف حوالى سنة 1924 مدينة اثرية بالهند ، يرجع عهدها الى خمسين قرنا ذلك الاكتشاف الذى ابطل جميع تكهنات ، وافتراضات التاريخ الحضارى للهند ، ومبدئيا ، قال الاثرى مارشال ، معلقا على هذا الاكتشاف « تؤيد هذه الكشوف قيام حياة مدنية ، بالغة الرقى ، فى السند والبنجاب خلال الالف الرابعة ، والالف الثالثة ، من السنين قبل الميلاد ، يدل على حالة اجتماعية فى حياة أهل تلك المدن ، تساوى على الاقل ما وجدناه فى « سومر » وتفوق ما كان سائدا فى العصر نفسه ، فى بابل مصر . . . وحتى «أور» وحتى لا تضارع بمنازلها من حيث البناء منازل « موهنجو ـ دارو » (اسم المدينة التى اكتشفت) .

ملتقى الدراسات العربية والاسلامية بالجامعة السيفية التابعة لطائفة « البهرة » افتتح صباح يوم الاحد أى ثانى يوم التدشين باحدى قاعات نزل « تاج محل » هذا الملتقى بمناسبة ادخال تعليم اللغة العربية ضمن بقية مواد التعليم بمعهد تكوين الدعاة الفاطميين وتعرض معظم الباحثين لآثار تكوين الدعاة الموجودة فى انحاء العالم ، لمختلف المذاهب العقائدية ، بصفة عامة ، ومقارنتها مع ما تبقى من معاهد المذاهب الاسلامية ، واسندت رياسة جلسة الافتتاح للدكتور عبد الحليم محمود شيخ الازهر دامت أعمال الملتقى

ثلاثة أيام ، القيت فيها دراسات قيمة ، خصوصا دراسة د · عبد الحليم محمود شيخ الازهر : التى ركزها على معاهد الدعوة المسيحية، التى زارها بأوروبا ، وكذلك دراسة الدكتورة سعاد ماهر مديرة كلية الآثار ، التى عرضت شريطا للآثار الفاطمية والاندلسية، وختم الملتقى بحفل للقرآن بميدان يسع ما يزيد على الخمسين ألف نسمة ، جمـــع فيها زيادة على المقرئين المصريين امثال الشيخ ساطع الحصرى ، وعبد الباسط عبد الصمد ، كما اقيمت حفلات أخرى لجمعيات خيرية ، وثقافية ، ثم اقيـــم معرض تابع للجامعـة السيفية عرض فيه نماذج من الاعمال الصناعية لتلاميذ الجامعة ، وكرة أرضية قديمة ، صورت عليها مسيرة الدعوة الفاطمية ، ثم دخلنا لعيادات الاطبـــاء الاختصاصيين فى مختلف الامراض التابعين لمنظمة البهرة ، والجامعة السيفية ، وتآليف الداعى الواحـد والخمسين ، المحتفل بذكراه ، وبعد الانتهاء من زيارة المعرض ، ذهبت الوفود الى قصر المضيف للتوديع ، حيث قسمت عليهم هدايا رمزية ، وختمت هذه الزيارة بمآدبة اقامها المضيف على شرف المدعوين ، بأوتيل شيراطن SCHERATON ولتختم هذه الدراسة ، بان هذه الطائفة ، وان اهتمت بالناحية العقائدية ، وحافظت على كثير من تعاليم الفاطميين منذ ظهورهم ، وربطت بين الماضى والحاضر ، بسلسلة الدعاة ، هى دون فاصل ، أو ادخال أى تغيير على تعاليم المذهب ، فانها لم تهمل الناحية المادية ، فعلاوة على اشتغال افرادها بالتجارة داخل البلاد وخارجها ، فان الداعى الفاطمى الحالى ، يشرف على عدة منشآت صناعية ، شبيهة بمنشآت الدول الصناعية العظمى ، وقد زار بعضها صاحب جريـدة الاحداث الجزائرية ، اوائل السنة الجارية ، وكتب عنها سلسلة مقالات قيمة فى موضوعها، ولنا عودة الى اتمام الموضوع فى فرصة أخرى ·

كتاب الأصالة

بعد أن تسكت المدافع

تاليف : **محمد سيد أحمد**

عرض وتحليل ونقد **محمد الميلى**

مدير وكالة الانباء الوطنية



كانت حرب رمضان ـ أو حرب أكتوبر ـ موضوع تعاليق ودراسات عديدة ، أخذت أشكالا متعددة واتخذت وجهات مختلفة ، فمنها ما سلك مسلك التمجيد الاعمى ، الذى يذهب الى حد اعتبارها « انتصارا عربيا لم يسبق له مثيل » وهناك من حاول ان يدرس آثارها من الوجهة العسكرية وذهب الى حد تصوير تلك النتائج فى صورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، اذ ان هناك فعلا من لم يتردد فى وضعها فى مصاف الحروب الكبرى فى تاريخ البشرية ، والى حد القول بان نتائجها العسكرية تشبه من حيث قيمتها ، النتائج المترتبة على بعض الحروب الحديثة بما فيها الحرب العالمية الثانية ٠ وفى هذا الاطار نظمت جامعة القاهرة ندوة دولية انعقدت فى أكتوبر 1975 لدراسة آثار حرب أكتوبر ، حضرتها شخصيات عربية وغربية ، سياسية وعسكرية ، ادبية وصحافية من بلدان مختلفة ٠

ولم تكن الكتب التى ظهرت حول حرب أكتوبر قاصرة على العالم العربى ، بل لقد ظهرت فى لغات مختلفة وبلدان متعددة ، ظهرت فى اسرائيل بالعبرية ، وظهرت فى فرنسا بالفرنسية ، وظهرت فى انكلترا وأميركا بالانكليزية الخ ٠٠٠ وهذه الكتب التى ظهرت فى بلدان مختلفة ، منها ما هو ذو طابع صحافى ، سياسى ، كتبه معاينون أو شهود أحداث ، مثل كتاب محمد حسنين هيكل « الطريق الى رمضان » الذى ظهر بالانكليزية ثم ترجم منها الى العربية ٠ (ونستطيع أن نفتح قوسين لنسجل ان كتب هيكل التى ظهرت فى السنوات الماضية كانت مترجمة عن الانكليزية ، حتى ما ظهر منها باللغة العربية ٠ وهذا هو السبب فى ان الترجمات العربية كانت أقل تأدية لصور وأفكار المؤلف ، من الطبعات الفرنسية مثلا) ٠ وكذلك كتاب « **التقصير** » الذى ظهر بالعبرية فى اسرائيل ، والذى شارك فى تأليفه سبعة اسرائيليين ، سجلوا انطباعاتهم عن تلك الحرب ومشاهداتهم فيها ٠ وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية ولقى رواجا واسعا ، وقد ترجم الى العربية ، ترجمة أمينة كاملة ٠ فقد تولت تعريبه مؤسسة الدراسات الفلسطينية المعروفة بحرصها على الامانة فى النقل ، وباسلوبها الجامعى ، لكن الكتاب مع ذلك لم يسمح له بأن يباع فى عدة بلدان عربية ، ذلك انه لا يخلو من « **حقائق** » يراها فيها هذا النظام أو ذاك تشويها لصورته ٠ وقد اشترطت بعض الانظمة العربية التى اتصلت بها المؤسسة من أجل تأمين توزيع الكتاب المذكور ـ اشترطت لذلك نزع عدد من الصفحات التى تتعرض بالذكر لبعض ضباطها بكيفية يراها النظام مخلة بالصورة التى يريد ترويجها عن نفسه فى الداخل ٠ وقد رفضت المؤسسة ذلك ، وظل الكتاب محدود التوزيع ، على الرغم من أهميته فى ذكر عدد من الحقائق التى يزيد فى قيمتها أنها تساق على لسان شهود من داخل اسرائيل ٠

وتختلف قيمة الكتب والكتابات التى وضعت عن حرب أكتوبر باختلاف قيمة أصحابها ومقاصدهم ٠ وليس فى الامكان تصنيف كل تلك الكتابات لكن يمكن أن نسوق نموذجين لاكثرها غرابة سواء بتأثير الاندفاع العاطفى العارم أو بدافع الانتهازية السياسية اللامحدودة ٠ ففى صنف الكتابات الانتهازية نجد حشدا طويلا من المقالات والكتابات ، تصورها ادق تصوير كتابات مصطفى أمين الذى قال :

« عبور الجيش المصرى من الهزيمة الى النصر ··· وعبور الشعب المصرى من الانقسام الى الوحدة ··· وعبور سمعة العرب من الهوان الى الكرامة ··· وعبور المظلومين من الظلم الى العدل ·· وعبور الخائفين من القلق والرعب الى الطمأنينة والامان والاستقرار ·· وعبور المقيدين من الاغلال الى حياة الاحرار ·· » ·

ومن نماذج الكتابات المندفعة المبالغة ما كتبه أحمد حسين ، زعيم حزب «مصر الفتاة» عندما قال :

« ان النصر الحربى الذى أحرزه الشعب المصرى هو من أعظم الانتصارات العسكرية التى شهدها تاريخ الحروب ، وأعظم انتصار للشعب المصرى بالذات » ·

بل انه يضيف الى ذلك قائلا عن حرب أكتوبر انها :

« كانت معجزة الهية بكل المقاييس ، اجراها الله على يد عبده الصالح محمد انور السادات » !

نتائج الحرب

لكن استعراض نماذج الكتابات المختلفة عن حرب أكتوبر سيقودنا الى استطرادات تخرج بنا عن موضوع الكتاب الذى نعرضه اليوم ·

فهذا الكتاب ، يتناول بالبحث نتائج الحرب ، أكثر مما يتناول موضوع حرب رمضان نفسها · وهو يركز على النتائج السياسية أكثر مما يركز على النتائج العسكرية · وهو لا يقتصر على النتائج السياسية القريبة المدى ، ولكنه يتعرض حتى للنتائج السياسية البعيدة · ومعروف ان المحلل السياسى عندما يريد أن يخرج من دائرة الاحداث الجارية ، ليقفز من فوق سنوات عديدة الى الامام ، يدخل فى مجال التجريد والتخمينات التى قد تبدو للبعض صائبة ، وقد تصدم البعض الآخر · ونظرا الى ان معظم الناس ، فى كل مكان ، وخاصة داخل ما يعرف بالعالم الثالث ، وعلى الاخص فى العالم العربى ، محكومون عادة بمجرى الاحداث الآنية ، فان مثل هذه التحاليل تصدم أكثر مما تحمل على النقاش · وهذا هو السبب الذى جعل الكتاب المذكور : « بعد ان تسكت المدافع »

موضوع مناقشات حادة أحيانا • وقد بادرت بعض الدوائر السياسية فى العالم الغربى الى هذا الكتاب تعرف ببعض خلاصاته لانها بالضبط تخــــرج عن المألوف فى الكتابات العــربية المماثلــة •

الا انه يحسن ، قبل ان نتعرض الى رأى المؤلف ، فيما يتعلق بالنتائج البعيدة المدى ، ان نسوق تصوره وتصويره للنتائج القريبة المدى •

يمهد المؤلف ، للخوض فى هذا الموضوع ، باستعراض الجو السياسى السائد دوليا ، قبل اندلاع الحرب فى أكتوبر 1973 • ويسوق فى هذا المجال تصريحا ينسب الى كيسنجر الذى يبدو انه قال قبل ستة أشهر من تلك الحرب ، أى فى افريل 1973 ما يلى :

« انى لا اعالج هذه الازمات وهى باردة ، لابــد كــى أعالجها ان تكون ساخنة ، حتى أستطيع ان ازن ما يستحقه كل طرف • ولا أستطيع ان أحتكم فى ذلك الى ما كانت عليه هذه الاطراف منذ ست سنوات •• أو منذ الفى سنة » (ص 108) •

ويقصد كيسنجر بذلك الى ان وضــــع الازمة آنذاك لم يكن يسمح بتحريك أيـــة محاولة ، لان الاحتكام الى وضع ما قبل 5 جوان 1967 ، أو الى الوضع الذى كانت عليــه الدولة اليهودية القديمة عندما تم تقويضها على يد الرومان ، لا يصلح قاعدة للنقاش أو الحــــوار •

ويتساءل مؤلف الكتاب بعد ان يسوق تصريح كيسنجر هذا :

« هــل معنى ذلك ان القــرار العربى بخوض الحــرب فى 6 أكتوبر جاء تلبية لمخطط اميركى ؟ وان حرب أكتوبر كانت مجرد « حرب معملية » ، حرب توافقت ارادات بعينها على اشعالها ، لكسر حالة « اللاسلم » و « اللاحرب » (صفتــان سلبيتان) والعبـــور « بالحرب » (فعل ايجابى) الى « السلم » (فعل آخــر يتطلب انجــازه الايجابية) ؟ » (ص 108) •

والواقع ان هذا التساؤل اثاره غير واحـد ، قبــل محمد سيد أحمد ، مـؤلف هذا الكتاب • ويذهب البعض الى حد اعتبار حرب أكتوبر « **مجرد مسرحية** » لم تمــانع فيها

الولايات المتحدة الاميركية على أساس انها ستكون « صدمة » لا مفر منها ، تفتح آفاقا جديدة لتسوية سياسية تخرج بالازمة من الجمود الذى استقرت عليه سنوات عديدة ٠

ويبدو ان تصريحات كسنجر الآنفة الذكر لم تكن أجنبية عن هذه التساؤلات ، وعن اتجاه بعض الاجابات ، على ان تصريح كيسنجر فى نظرى لا يكفى وحده فى تفسير اجابة الاتجاه القائل بأن حرب رمضان كانت « مجرد مسرحية » ، قد تكون تمت بايحاء من أميركا ٠ وأعتقد ان هناك عاملا آخر يفسر وجود مثل هذا الاتجاه فى عالمنا العربى ، وهو يتلخص فى تهويل وتضخيم آثار الاقوال والافعال الصادرة عن الولايات المتحدة الاميركية ٠ وهو تهويل قد يصدر أحيانا عن حسن نية ، لكن نتائج هذا التصور الخاطىء لا تقل ـ من حيث الضرر والخطورة ـ عما لو كان ذلك التصور حقيقة ٠ لان العرب اذ ينسبون للعدو تلك المقدرة الخارقة على توجيه الاحداث ، وذلك التحكم المطلق فى مفاتيحها يسعون ـ عن غير وعى ـ الى شل مبادراتهم ووضع قيود وهمية على امكانيات تحركهم ، لها مفعول القيود الحقيقية ٠

وحتى اذا سلمنا جدلا بأن حرب أكتوبر ، كانت « مسرحية » أعدت واخرجت فى معمل فان نتائجها المباشرة فى الميدان تكون قد تجاوزت حسابات وتوقعات الذين أعدوها أو دعوا لها ٠ ولهذا يجيب المؤلف على تساؤله السابق قائلا :

« ٠٠٠ لا يملك أحد انكار ان حرب أكتوبر قد اسفرت عن اراقة دم سال بسخاء على كل الجهات ، وسفك الدم فى حد ذاته شاهد على صدام يمس مصالح حقيقية ، وعلى اشتباك عسكرى حاد لا يمكن بحال رده الى مجرد مسرحية » ٠ (ص 109) ٠

الا ان المؤلف هنا فى دفاعه عن هذا الرأى يقع هو الآخر فى مبالغات سبق له ان انتقدها على آخرين ممن كتبوا ـ من المصريين ـ عن حرب أكتوبر ٠ فهو يقول عقب الفقرة التى سقناها آنفا :

« ولا يملك أحد التشكيك فى ان ضراوة معارك أكتوبر لم يسبق ان شهدت الحروب العربية ـ الاسرائيلية مثيلا لها ٠ بل وربما كانت من أعنف ما شهدته حروب المنطقة على الاطلاق ، وحروب ما بعد الحرب العالمية الثانية على الاطلاق » (ص 109) ٠

وقد يبدو غريبا ان تصدر مثل هذه المبالغة عن رجـــل سياسى يعتمد الاشتراكية العلمية منهجا فى التحـــليل · وفى تصـــورى ان مصدر مثل هذه المبالغات يكمن فى الاوضاع التى فجرتها حرب أكتوبر داخل مصر وما تولد ـ متصلابها ـ مـن صراعات نتجت عن غياب عبد الناصر · فكأنى بالمؤلف ، وهو يرسم هذا التقييم الموجز لحــرب أكتوبر ، قد استحضر خصومه السياسيين الذين يرقبون كل زلـــة قلم تصــدر عنـه لاستغلالها ضده ، ومن هنا قد يكون تصور ما سوف يقوله عنه خصومه ، لو أنه توقف مثلا عند حـد قوله : « لم يسبق ان شهدت الحـروب العربية ـ الاسرائيلية مثـلا لها » الا يبادرون الى اعتبار ذلك تحقيرا من المؤلف لحرب أكتوبر ؟ ومن هنا كان تصعيد أول تمثل فى قوله : « ··· وربما كانت من أعنـــف ما شهـدته حـروب المنطقـة عـــلى الاطـــلاق » لكن قد لا يرضى ذلك بعض دوائـر السلطة التى تعتـــبر انها تتجـــاوز ـ أهمية وعنفا ـ حروب منطقة الشرق الاوسط ! وكان تصعيد ثان رفع هذه الحرب الى درجة جعلها اعنف من « حروب ما بعد الحرب العالمية الثانية على الاطلاق » !

ولست أشـك فى ان مناقشة المـؤلف ، فى هذه المبالغات ، وعـــلى هذا الاساس ، ستدفعه الى ايجاد تبريرات لها ، حتى ولو كان فى قرارة نفسه يسلم بسداد ما يوجـه له من مآخذ بهذا الصدد ·

لكن الذى يهمنا فى استعراض هذا القسم من الكتاب هو النتائج التى ترتبت عـــلى هذه الحرب ، والتى يريد المؤلف ان يرتب عليها نتائج أخرى ، فى امكنة أخرى من هذا الكتـــاب ·

يبدأ المؤلف فى وصف النتيجة الاولى من نتائج الحرب باطلاق أوصاف سالبة عندما عندما يتساءل اثر تحليل يفهم منه ان الحرب لم تكن نصرا خالصا للعرب ، قائلا :

« ان لم تكن حرب أكتـوبر نصرا خالصا للعرب ، ولا نصرا خالصا لاسرائيل ، ماذا كانت اذن ؟ » (ص 94) ·

ويستعرض ـ قبل ان يقدم اجابته هو عن السؤال السابق ـ نظرية لهيكل خلاصتها ان حرب أكتوبر كانت انتقالا بالحالة من حالة « اللاسلم واللاحرب » الى حالة « اللانصر واللاهزيمة » ·

الا ان المؤلف يرى ان كلمتى « النصر » و « الهزيمة » لا ينطبق عليهما معناهما الدارج عندما تستعملان فى سياق ازمـــة الشرق الاوسط ، ويـرى ان هذه الخاصية الســاذة يرجــع الى :

« ٠٠ الملابسات الخاصة بالنزاع العربى ـ الاسرائيلى ، والى المكونات الاساسية التى يتشكل منها طرفا النزاع ، التى نجعلها فى عبارة موجزة بقولنا ان النزاع يمكن رده الى مواجهة بين ما يمكن تسميته بـ « الكيف الاسرائيلى » من جانب ، و « الكم العربى » من جانب آخر » (ص 96) ٠

ويعقب بعد فقرتين ، على ذلك قائـــلا :

« وهذه الخاصية التى انفرد بها النزاع العربى الاسرائيلى ، كيف اسرائيلى ينقصـــه الكم ، الذى يضاهى أوجه الكم لعربى ، وكم عربى تنقصه أوجــه الكيف التى تضاهى الكيف الاسرائيلى ، قد اكسبت النزاع صفة فريدة ، صفة استناد طرفى النـــزاع الى « أصول » لا قاسم مشتركة ولا لغة مشتركة بينهما ، وصفة امكان تصور استمرار النزاع الى غير أجـــل ، دون أن يستطيع أى طـــرف فيه استنفاد « أصول » الطرف الخصم » (ص 96 ـ 97) ٠

ويضيف الى ذلك ، وصولا الى احدى نتائج حرب أكتوبر ، فيقول :

« ولكن حرب أكتوبر قد ادخلت جديدا على هذه المعادلة الفريدة ٠ لاول مرة اثبــت العرب قدرتهم على تمثل بعض أوجه التفوق « الكيفى » التى ظلت قصرا على اسرائيل من قبل ، واكتسبت بعض أوجــه الكم العربى قيمــة « كيفية » (البترول) ولو لا سببــاب لا تمت الى العرب مباشرة (أزمة الطاقة) ٠ وفى المقــابل لم تستطــع اسرائيل تعويض هذا التغيير فى موازين القوى ، بتاكيد أوجه تفوقها الكيفى بطفرات جديدة الى الامام ، تستعيد به صفة « التفوق المطلق » ٠

ثــم يقــول :

« وقد أوجدت الحرب معادلة جديدة فى المواجهة ، معادلة أسفرت لاول مرة عن موازين قوى اظهرت « قاسما مشتركا ما » وعنصر « تكافؤ » ما ، ولغــة لها مصطلحات واحــدة بمداولات واحدة لدى طرفى النزاع » (ص 97 ـ 98) ٠

مقـدمــات ••• وخـلاصـــة

أشرنا آنفا الى المناقشات الحادة التى أثارها هذا الكتاب • ولاشك ان القارىء قـــد تساءل عن مصدر تلك المناقشات وسبب حديتها •

نستطيع ان نستبين بعض تلك الاسباب من خلال استعراضنا لما جاء فى الجزء الاول من هذا الكتاب ، وهو الجزء الذى يحمل عنوان : « **حـرب أكتـوبر •• نقطة تحول** » • وخاصة الفصل الثانى من هذا الجزء الاول وهو الذى يحمل العنوان التالى : « هل نشأ تكافؤ بين الاطراف » • فمنذ هذا الفصـــل الثانى يشرع المـؤلف فى التمهيد للفكـرة الاساسية التى تعتبر هى محور « بعد ان تسكت المدافع » •

نستطيع ان نتابع مراحل هذا التمهيد من خلال الخطوات التالية :

الاولى : تبدأ مع تسجيل المؤلف انه « قد يؤخذ على العرب شىء من المغالاة فى تحديد أهدافهم » (ص 101) ويقصد المؤلف بذلك الى الموقف العربى من استمرار اسرائيل ـ الدولة ، فى ضوء الملابسات الدولية • ويشرح هذا المقصود بأنه اذا كان رفع الغبن عن العرب والفلسطينيين أمرا مسلما به عالميا ، فان قضية وجود اسرائيل واستمرارها كدولة تختلف بشأنها الآراء ، ويتساءل المؤلف فى هذا المجال : « الى أى حد تشكل اسرائيل « حالة خاصة » غير مقصورة على انها مجرد « حدث كولونيالى » أو مجرد « كيان عنصرى » وما هى الشروط التى يمكن ـ اذا ما توافرت ـ ان تبرر استمرار وجودها مستقبلا » • (ص 102) •

الخطوة الثانية : تتمثل فى النتيجة التى يرتبها المؤلف على الخطوة الاولى ، وذلك عندما يعتبر أن الغبن الذى ألحقته اسرائيل بالعرب لا يترتب عليه بالضرورة « تسليم شتـــى الاطراف الدولية المعنية بالازمة بأن رفع هذا الغـــبن يقتضى ازالــة اسرائيل ، ويقتضى استعادة العرب حقوقهم المشروعة على حساب « حقوق » مشروعة أخرى نشأت أو تـــم تكريسها مع اقامة اسرائيل ، وهى « حقوق » لا ينبغى ان يحجبها ما هو غير مشروع فى كيان اسرائيل » • (ص 102) •

الخطوة الثالثة : تتلخص فى تقديم تفسير ــ منسوب الى مجهول فى صيغة « هناك من يقول » ــ يفسر نشأة « الشخصية الاسرائيلية » و « الامة الاسرائيلية » وذلك عندما يقول المؤلف ما يـــلى :

« هناك من يقول : ان العداء المستحكم الذى استقبل به العرب اقامة الدولة اليهودية فى فلسطين ــ ايا كان حقهم فى ذلك ــ بلــور فى مواجهته ــ وكنتيجة لــه ــ شخصية اسرائيلية ، وامة اسرائيلية ، تماما كما افضى العداء المستحكم الذى عاملت بــه الدولة اليهودية الفلسطينيين ــ سكان أرض فلسطين قبل الاستيطان الاسرائيلى ــ الى بلــورة شخصية فلسطينية وأمة فلسطينية فى مواجهتها » (ص 105 ــ 106) ·

الخطوة الرابعة : بعد اعـــداد الرأى العـــام للتسليم بوجود « شخصية اسرائيلية » و « أمة اسرائيلية » فى ظروف رد فعل عداء العرب المستحكم ضد اسرائيل ، تشبـــه ظروف تكوين شخصية فلسطينية وأمة فلسطينية فى مواجهة العداء الاسرائيلى المستحكم ضد عرب فلسطين ــ بعد هذا تأتى الخطـــوة الرابعة التى تعتبر هـــى خلاصة النتائج والمقدمات السابقة ، وهى تتلخص فى أن الاعتراف بالشخصيتين الاسرائيلية والفلسطينية يعنى التسليم بقيام دولتين فلسطينية واسرائيلية ، تقتسمان فلسطين الارض ، ما دام من غير الممكن « تجزئة الحق » · ويسوق المؤلف هذه الفكـرة ــ المنسوبة فى أصلها الى مجهول ــ كما يـــلى :

« وحــركة التاريخ لا تقبل العـــودة الى الوراء · فقـد انشأت الممارسة التاريخية « حقوقا » ، وعند استشراف احتمالات المستقبل ، يتعين الاعتراف بهذه الحقوق ، ولمـــا كان « الحق » لا يقبل التجزئة ، سواء كان ذلك « الحق الاسرائيلى » أو « الحق الفلسطينى » فليس من مخرج الا تجزئة الارض لا الحق ، وتقسيم أرض فلسطين بين أصحاب هــذين « الحقين » (ص 106) ·

يجدر بنا هنا ان نسجل ملاحظتين واردتين فى مجــال الحديث عن امكانية تقســيم فلسطين بين دولتين فلسطينية واسرائيلية ·

الملاحظة الاولى تتلخص فى أن الانتهاء الى هذه النتيجة بعد التمهيد لها بمقدمات تبدو متسلسلة مترابطة ، هو فى الواقع تجريدى بالغ التجريد ، فهو لم يأخذ فى الاعتبار ،

كما كان يجب على الاقل ، ارادة الاطراف المتصارعة فى فلسطين • ولا يخفى انه على مثل هذه الارادة تتوقف الى حد كبير امكانية تحقيق تلك الامكانية •

ومن الجدير بالتذكير ان منطقا شبيها بالمنطق السالف الذكر ، كان قد استعمل فى الجزائر اثناء حرب التحرير حتى من طرف بعض المثقفين الفرنسيين اليساريين ، للدفاع عن فكرة تقسيم الجزائر التى كانت قد بدت لهم آنذاك هى المخرج الوحيد من مأزق الحرب • وقد استعمل ، فى جملة ما استعمل من حجج قيام اسرائيل نفسها ، للتدليل على امكانية دولة أوروبية فى بعض جهات الجزائر •

ومع ذلك كلنا يعرف مآل تلك الفكرة ، فى حين ان الامكانيات العسكرية التى كانت ستتوفر عليها دولة أوروبيى الجزائر لم تكن لتقل عن امكانيات اسرائيل العسكرية • ورغم ذلك فقد ادرك الاستعمار الفرنسى نقط ضعف مثل ذلك المشروع،وما كان سيتسبب فيه من استمرار الحرب فى اشكال مختلفة وبصورة متعددة ، نظرا لوجود تصميم مسبق من طرف الجزائريين على انتزاع الاستقلال فى نطاق وحدة التراب الجزائرى ـ •

الملاحظة الثانية تتصل بالاستدلال المنطقى الصورى الذى نجده فى الخطوة الرابعة السابقة الذكر والذى يقول ما معناه : ما دام من غير الممكن تجزئة الحق ، فلابد من تقسيم الارض • ان مثل هذا المنطق يذكرنا بقصة توجد فى التراث الاسرائيلى نفسه ، وهى حكاية المرأتين اللتين ادعتا امومة طفلة وتنازعتا عليها واحتكمتا فى ذلك الى سليمان الحكيم • فما كان منه الا ان أمر بتقسيم البنت شطرين بين المدعيتين ، فصرخت احدى المرأتين رافضة شطر البنت الى شطرين ، وقالت بانها ترضى تسليمها لغريمتها • واستخلص سليمان من ذلك انها هى الام الحقيقية وحكم لها بالبنت •

ترتيب التناقضات

ويبدو ان المؤلف نفسه لم تخف عليه مواطن الضعف التى يتضمنها مثل ذلك المنطق • ومن هنا لم يعتمد كل الاعتماد على تلك الخطوات الاربع فى الانتهاء الى الفكرة الاساسية التى يدور حولها الكتاب •

ولذلك نجده ، يعود الى الموضوع ، فى صيغة جديدة ، بعد ان يكون قد مهد له بستة فصول : أربعة أدرجها ضمن الجزء الثانى من الكتاب ، وهو الجزء الذى يحمل عنـــوان : « الانفراج الدولى ماذا يعنى » · وفصلان ادرجهما فى الجزء الثالث الذى يحمل عنوان : « أزمة الشرق الاوسط ·· فى مناخ الانفراج الدولى » · وقد رأينا ان نمر على هذين الفصلين دون عرضهما ، لان الافكار الموجودة بهما ، أفكار عامة من جهة ، وهى من جهة أخرى تعتبر تمهيدا للجزء الرابع الذى وضع عنوانا له : « أزمـــة الشر الاوسط ·· الى أيـــن » ·

ينطلق الكاتب ، لشرح الفكرة الاساسية التى من أجلها نشر الكتاب ، محاولا تقديم سلسلة من الفرضيات يفتحها بعنوان الفصل الاول من هذا الجزء الرابع الـــذى هـو : « ولو تمت التسوية » ·

ويبادر المؤلف الى القول بأن التسوية « لا تعنى الغاء التناقض » ولكنه يعنى « اعادة ترتيب هذه المتناقضات بجهد واع ومدير ومعتمد يستهدف « عـزل » و « تجميـــد » التناقضات التى يعتبر ضررها على جميع الاطراف اكبر مـــن فائدتهـا لاى طـــرف » (ص 269 ـ 270) ·

ويرى المؤلف ان التناقض الذى طغى على كل الاطراف هو التناقض « الوطنى » · فالشعب الفلسطينى « عانى من اهـــدار صمـيم وجـوده كشعب ينتمى الى وطـــن » والاسرائيليون « يحسون بأن العداء العربى هو تهديد فى الصميم لهـــدف المشروع الصهيونى فى اقامة وطن قومى لليهود « فى فلسطين » ، واذا كانت هوية شعب قد برزت مستقلة ، فقد اكتسبت القضية خواص متميزة « لعدم استناد شعب فلسطين الى وطن مستقل مكتمل السيادة عند نشوب النزاع » ·

لكن مع بروز احتمال التسوية ، « لم يعد التناقض الوطنى وحده هو الطاغى · ولم يعد هو التناقض الخليق بامتصاص كل صور التناقض الاخرى » · (ص 272) · ذلك ان احتمال التسوية ابرز تناقضات أخرى « أفقية » هى فى الاغلب تناقضات «اجتماعية» · « وقد أصبح التناقض الاجتماعى يزاحم التناقض الوطنى فى احتلال مقدمـــة المسرح

السياسى فى المنطقة » (ص 274) • وهكذا تعقد الوضع بفعل تداخل التناقضات الرأسية التى تتمثل فى الصراع بين اسرائيل من جهة والدول العربية وشعب فلسطين من جهة أخرى ، مع تناقضات افقية تفصل بين شرائح مختلفة من مجتمعات الدول العربية المشاركة فى النزاع •

ثم ينتقل الكاتب الى مناقشة مسالة قبول أو رفض مبدأ التسوية ليقرر ان « مبدأ التسوية لا يستشف منه فى حد ذاته منطلق يمينى أو منطلق يسارى • وقبول مبدأ التسوية لا يتم فى حد ذاته عن موقف رجعى • ان المبدأ مقبول ، سواء بنظرة تقدمية ثورية أو بنظرة رجعية استعمارية » (ص 279) • وبعد تقرير هذه الفكر والدفاع عنها ، يرتب عليها النتيجة التالية التى تتمثل فى « أن قوى تنتمى الى منطلق استعمارى لن تمانع فى الاعتماد على اليسار العربى واليسار الاسرائيلى فى سبيل ان يشكلا معا ركيزة تيسر عملية انجاز التسوية ، اذا كان اليمين هو المستفيد منها فى النهاية » • (ص 281) ، ولكنه يوازن هذه الفكرة بفكرة أخرى تقابلها تقول بأن « الحلول التقدمية الخليقة بتيسير عملية التسوية قد لا تكون مرفوضة على اطلاقها أيضا من وجهة نظر الاستعمار والرجعية المستنيرة » (ص 281) •

وفى فصل ثالث بعنوان « أسلحة العرب » يتطرق المؤلف الى الامكانيات التى يملكها العرب والآفاق التى يفتحها توظيف البترو دولارات ان هى وظفت وفق مخطط عربى وليس وفق مخطط استعمارى • ويلمح المؤلف من طرف خفى فى مبدا الامر الى امكان قيام « تعاون عربى اسرائيلى » بعد تحقيق مشروع أو مشاريع التسوية ، ثم بفصح عن مراده بوضوح بعد ان يمهد لذلك بتقديم نظريته فيما يتعلق بتطبيق « الانفراج الدولى » على قضية فلسطين فيقول :

« لقد نسبت بعض المصادر الغربية الى لقاء القمة الثالث بين برجنيف ورئيس الولايات المتحدة فورد فى فلاديفوستك ، التوصل الى صيغة اتفاق بشأن قضية فلسطين قوامها ان تقنع موسكو الفلسطينيين بالاعتراف بحق اسرائيل فى الوجود ، مقابل أن تقنع واشنطن اسرائيل بالاعتراف بمنظمة التحرير » ويواصل المؤلف شرح نظريته قائلا :

« معنى ذلك ان يتم « الانتقال » من حالة « عدم الاعتراف المتبادل » الى حالة « الاعتراف المتبادل » . وبعبارة أخرى ، ان تقبل السلطة الاسرائيلية وجود كيان « لفلسطين » مقابل ان يقبل ممثلو شعب فلسطين كيان « اسرائيل » (ص 347 ـ 348) .

ثم يطالب المؤلف القيادات الممثلة فى « منظمة تحرير فلسطين » الى ان تكون لها « استراتيجية سياسية » لانها لم تعد تملك « ان تبنى استراتيجيتها فقط على العمل النضالى والفدائى » (ص 361) ليقرر ان « نقطة البدء » التى تسمح بالخروج من المازق ، هى فى : « أن تتبنى منظمة التحرير الدعوة التى نادى بها الحبيب بورقيبة منذ عدد من السنوات ، وتبدو فى الملابسات الراهنة للازمة ملائمة للطرح أو ـ ان لم تكن ترى المبادرة بهذه الخطوة ـ ان تطالب الدول العربية منظمة التحرير بأن تستجيب لدعوتها بأن يجرى تنفيذ قرار مجلس الامن الصادر فى نوفمبر 1947 ، والخاص بتقسيم فلسطين الى دولة فلسطينية عربية ودولة اسرائيل » (ص 365) . ودفاعا عن هذه الفكرة يقول اثر ذلك ان :

« هذه الدعوة لا تنطوى على تنازل من قبل منظمة التحرير عن هدفها الاساسى فى اقامة دولة علمانية فى فلسطين تتسع لليهود والمسيحيين والمسلمين معا ، ذلك ان قرار التقسيم صدر باعتباره الحل « العملى » الوحيد ، ما لم تتوافر الظروف لاقامة دولة يهودية عربية واحدة تتسع لكل أرض فلسطين » (ص 365) .

ويرى المؤلف ان هذه الدعوة « سوف تدعم المركز الدولى لمنظمة التحرير ، وسوف تعطى دفعة جديدة للانجازات التى حققتها فى الآونة الاخيرة ، وتوجتها دعوة ياسر عرفات للتحدث باسم شعب فلسطين على منبر الامم المتحدة ، وسوف تعزز الاعترافات الدولية التى حصلت عليها المنظمة » (ص 366) وعلى الرغم من أن المؤلف لا يذهب الى حد مطالبة منظمة التحرير ان تتخلى عن هدفها النهائى ، فانه يلح على ان موازين القوى الراهنة تتطلب من المنظمة « ان تسلم بأن حصولها على اعتراق من قبل اسرائيل بقيام الكيان الفلسطينى ، هو هدف نضالى لا غنى عنه لو أرادت فى المستقبل تحقيق هدفها النهائى » (ص 369) .

ويحاول الكاتب تدعيم فكرته بضرب مثل العلاقة الموجودة بين الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة الاميركية ، ويطالب منظمة التحرير واسرائيل بأن تسترشد فى العلاقة بينهما بقواعد التعامل التى تتحكم فى تنظيم العلاقة بين العملاقين أى قواعد الانفراج الدولى التى لا تقتضى من الاتحاد السوفياتى ان يتنازل عن هدفه النهائى ، وهو سيادة الشيوعية للعالم ، وكذلك لا تقتضى نفس القواعد من الولايات المتحدة الاميركية ان تتخلى عن هدفها النهائى فى القضاء على الشيوعية ٠

ومن هنا يتلخص المؤلف الى النتيجة التى يريد الوصول اليها وهى التى خصص لها الفصل الاخير من الجزء الرابع والتى يلخصها تساؤله التالى : « هل من المستحيل فى ضوء هذه المعطيات الجديدة ان ينشأ لدى بعض الدوائر العربية التصور بأن القدرات التكنولوجية والاقتصادية والاسرائيلية يمكن ان تصبح عنصرا مساعدا للتنمية العربية، لا عنصرا معوقا فقط لهذه التنمية » ٠ (387) ٠

ويرى ان هذا التصور اصبح ممكنا « لان ظروفا وملابسات تهيأت لاول مرة لا تستبعد لاسرائيل دورا و « وظيفة » فى المنطقة ٠ ولاول مرة يلوح « نمط » قد يحث البعض على البحث عن مصلحة فى قيام « تكامل ما » بين « الكيف الاسرائيلى » و « الكم العربى » ٠ تكامل بين قدرات اسرائيل التكنولوجية ، ومقدراتها البشرية من جانب ، وبين المال العربى وحاجة العرب الى توظيف هذا المال فى صورة انجازات تحقق منافع من الجانب الآخر » ٠ (ص 387 ـ 388) ٠

وبعد ان يقرر المؤلف بأن الحلم الفلسطينى باقامة دولة علمانية ديمقراطية لكل أرض فلسطين ، قد يكون السلم أكثر من الحرب سبيل تحويله الى واقع ، بعد ذلك يرى أن اسرائيل سوف تقاوم بكل ما تملك من وسائل استيعابها فى المنطقة ٠ ويرى ذلك ان قيام الحرب الخامسة احتمال وارد ٠

* * *

وبعد ان هذا الكتاب الذى وضعه محمد سيد أحمد ، يعتبر من حيث البناء والترتيب الفكرى ، ناجحا الى حد بعيد ٠ فمقدماته تبدو خاضعة لمنهجية صارمة ، تسلمك الواحدة

نحو الاخرى فى تسلسل متماسك · ولا شك ان القراءة المتمعنة للكتاب تجعل القارىء يتأكد من أن الكاتب يعرف أين يريد ان يصل ، واذا كان قصده هو تعويد العرب ليس فقط على التسليم بوجود اسرائيل ، ولكن أيضا على التعامل معها حتى يستفيد « الحكم العربى » من « الكيف الاسرائيلى » ، وحتى يتكاملا ـ اذا كان ذلك هو قصده ، فلا شك انه سلك فى الدفاع عن هذا القصد واقراره مسلك المدافع الجاد الذى لم يستهن بالمصاعب المختلفة التى تواجه مثل هذه الفكرة ، وانه قد حشد لذلك كل ما يلزم من أساليب محاجة قوية وجدل ·

ويمكن ان نعتبر ـ من هذه الناحية ـ ان هذا الكتاب حاول تقديم اضافة جديدة ، أو بعبارة ادق ، اعاد صياغة بعض الافكار المتعلقة بمشكل الشرق الاوسط ، متصلا بالقضية الفلسطينية · وبقطع النظر عن الموقف الذى يمكن ان تتخذه من صياغة محمد سيد أحمد ، لفكرة دمج اسرائيل فى المحيط العربى ، فان هذه الصياغة تقدم تصورا يخرج عن المسالك المطروقة ، ويمثل اجتهادا يسارى الطابع ، من شأنه ان يساعد على اثراء المناقشات التى تدور فى الساحة العربية ، ليس فقط حول قضية فلسطين ، ولكن أيضا حول كل ما يتصل بمصير ومستقبل الشعوب التى يتشكل العالم العربى من مجموعها ·

ذلك ان التناول الذى تناول به محمد سيد أحمد القضايا التى بنى عليها فكرة هذا الكتاب ، مثل تفسير نشأة الكيان الفلسطينى ، الذى لم يتردد فى ان يطلق عليه « الامة الفلسطينية » وتطبيق نفس التناول على اسرائيل ـ هذا التناول يقلب رأسا على عقب « المسلمات » ـ أو التى تبدو كذلك ـ التى تعود عليها الرأى العام المشرقى فيما يتصل بـ « الامة العربية » · فمصطلح الامة العربية ، والتصور البعثى له ، (وهو التصور الذى ما يزال سائدا فى المشرق حتى فى القطاعات والجهات الخارجة عن النفوذ السياسى والعقائدى لفلسفة حزب البعث) ، يرفض مثل هذه الاستعمالات · وتجدر الاشارة هنا الى أن الظروف السياسية التى تشكلت ضمنها الحركات الوطنية بالمغرب العربى ، جعلت اطلاق مصطلح « الامة » على كيانات الجزائر وتونس والمغرب مثلا، استعمالا شائعا سواء فى فترة نشوء تلك الحركات الوطنية ، فيما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ،

أو فى فترة التحرير ، أو بعد استقلال بلدان المغرب العربى • ومن شأن هذا الاستعمال ـ فى المغرب العربى ـ لمصطلح « الامة » ان يشكل ـ طال الزمن أم قصر ـ موضوع أخذ ورد وجدال مع التصوير والاستعمال المشرقى لنفس المصطلح ، وهو جدل نعتقد انه لن يخلو من فائدة لانه يسمح بتسليط الاضواء على بعض النظريات التى اكتسبت صفة التقديس حتى أصبحت تبدو فى شكل بديهيات ومسلمات غير قابلة للنقاش •

واذا كان صحيحا أن هذا كله يتعلق بـ « مصطلحات » وبالتالى بـ « الفاظ » ، ويعتبر تبعا لذلك أمرا غير ذى أهمية كبيرة ، فان « المصطلحات » تلعب دورا كبيرا فى حياة شعوب متخلفة مثل الشعوب العربية • بل لقد شهدنا معارك سياسية طاحنة ، بين أحزاب وبين أنظمة قامت فى المشرق العربى من أجل اصطلاحات وألفاظ • على أن الاهمية التى تعطى للمصطلح واللفظ ، لا يمكن أن تفسرها فقط مسالة التخلف ، ولكنها ترجع ـ بالنسبة لشعوب المشرق العربى ـ الى تراث عريق فى القدم • فسواء تعلق الامر بالتراث الاسلامى أو التراث المسيحى ، فانه نجد معركة المصطلحات تحتل حيزا كبيرا من تاريخ المنطقة فى العصور الوسطى والتاريخ القديم •

* * *

أما فيما يخص بالمآخذ التى يمكن أن توجه للكتاب والكاتب ، فنرى أن ابرزها هى : ان هذه المحاولة تتسم فى كثير من مواطنها بالمبالغة والايغال فى التجريد • واذا كان التجريد ضروريا ، طالما الامر يتعلق بأفكار وتصورات ، فان المبالغة فيه تبطل مفعول المحاولة التى تتناول واقعا قائما وترمى الى ايجاد واقع جديد •

ومن هذا المنطق نجد أن الكاتب لم يقدر التقدير اللازم بعض جوانب الواقع أو بعض وقائعه •

وفى مقابل هذا نجد انه قد بالغ فى تضخيم أهمية بعض مظاهر الاعتراف الدولى بالكيان الفلسطينى • وهى مبالغة لم نكن لناخذها عليه لو انه لم يحاول أن يعتمد عليها لكى ينتزع فى مقابلها تنازلات أساسية من الفلسطينيين •

وبنفس المنطق يطالب الكاتب منظمة تحرير فلسطين بتحديد استراتيجية سياسية وديبلوماسية وعدم الاكتفاء باستراتيجية النضال المسلح ، كما لو أن الامر يتعلق أساسا

بارادة الفلسطينيين دون غيرهم من العرب · فهو فى هذا المكان يسكت عن الالتزامات العربية الواجبة ازاء المعركة الفلسطينية ، كما لا يتعرض لانعكاسات سياسات الانظمة العربية على الساحة الفلسطينية ولو أن منظمة التحرير حددت استراتيجية سياسية وفق خط الكتاب ، فانها تكون قد ساعدت على تفجير تناقضات داخل صفوف المقاومة الفلسطينية تعزز بعض التيارات العربية التى تريد أن تتخلص بكل ثمن من المشكل الفلسطينى وتعمل من أجل الوصول الى تصفية نهائية للمقاومة الفلسطينية ·

كما ان مطالبة الفلسطينيين بأن يسترشدوا فى صراعهم مع اسرائيل بما تطبقه الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتى على قواعد التعامل بين بعضهما البعض ، يعتبر مقارنة غير صحيحة ، فلكل من السوفياتى والولايات المتحدة الاميركية ، ليس فقط كيان مجسم واضح ومعترف به دوليا ، وليس فقط شبكات مصالح تتوزع عبر ارجاء الكرة الارضية ، ولكن له أيضا ترسانة أسلحة نووية تجعل كلا منهما مضطرة الى مثل هذا التعايش ان أرادتا تجنب صراع ذرى يودى بهما معا ·

وفى هذا الاطار بالذات نسجل ان التوفيق أخطأ المؤلف فى تقديره لما يترتب على احتمال امتلاك اسرائيل للقنبلة الذرية من نتائج · فقد بات مؤكدا ان اسرائيل تملك فعلا القنبلة الذرية ، وانها تحرص حرصا شديدا على أمن المنطقة التى توجد فيها تلك القنابل ، ففى حرب أكتوبر وفى يوم 9 أكتوبر 1973 بالضبط ، عندما طرح على قيادة اركان الجيش الاسرائيلى سؤال يتعلق بالموقف المطلوب اتخاذه من طائرة تجسس أميركية شوهدت على الرادار الذى يحرص صحراء النقب ، كانت الاجابة قاطعة ودون تردد : اسقطوا الطائرة ·

وبعبارة أخرى ان هذه الامكانية ، امكانية استعمال اسرائيل للسلاح الذرى ، تتطلب تحديد سياسة عربية تختلف كل الاختلاف عن الموقف الذى يوحى به ذلك التحليل المطمئن الذى انتهى اليه المؤلف عند تناوله لهذه النقطة ·

ويمكن ان يؤخذ على المؤلف أيضا تناوله لقضية عملية مثل قضية « توظيف المال العربى » بتجريد مبالغ فيه ، الى درجة أنه غفل عن الشرط الاساسى لتحقيق ما يريده وهو توفر « الارادة السياسية » · فالذين يملكون البترو دولارات فى العالم العربى يفضلون توظيفها فى بلدان غربية ، بل ويفضل بعضهم ان يشترى بها عمارات وقصورا فى أوروبا وأميركا ، مسهما فى حل بعض مشاكل هذا العالم الغربى ، دون ان يضمن

أى الطرف العربى ، لنفسه مصالح دائمة • وباختصار ان الطرح الذى طرح به المؤلف المشكل الاساسى الذى من أجله وضع له هذا الكتاب ، يخدم ـ سواء قصد المؤلف الى ذلك ام لم يقصد ـ اتجاها ما فتئت الاوساط الاسرائيلية والصهيونية تروج له فى العالم الغربى ، وخاصة عن طريق المثقفين ، وهو اعتبار ان الديانة اليهودية هى أصل كل ثورة فى العالم • لان النتائج التى يصل اليها المؤلف فى هذا المجال تعتبر بالفعل « ثورة » ـ بقطع النظر عن تقييمها ـ لا تقتصر فقط على العالم العربى ، ولكن تتجاوز حدوده بكثير• ولن نعدم آنذاك من ينسب الفضل فى ـ هذه « الثورة » الى اسرائيل ••• تماما كما نشاهد اليوم محاولات تستعمل الكتاب والسنما والتلفزيون لتأكيد ان « العصر الحاضر الذى هو عصرنا قد ولد فى صحراء سيناء على يد قوانين موسى » • فهناك الآن محاولات تهدف الى ربط مكافحة الاستعباد والرق بتحريم الرق فى المجتمع اليهودى على عهد موسى !

ومهما يكن من شىء فان الاتجاه الذى يدعو اليه مؤلف هـــذا الكتاب ، يتلاءم مـــع الاحتياجات الجديدة لاسرائيل • ولا يعنى هذا أننا نتهم الكاتب بانه يخدم عن عمـــد مصالح اسرائيلية ، كلا • ولكنه يعنى ان تحليل احتياجات المجتمع الاسرائيلى وتناقضاته، ومن وجهة نظر تسلم بوجود دولة اسرائيل ، ينتهى الى نفس النتائج تقريبا •

ذلك ان اسرائيل اسرائيل قد استنفذت الاعتماد على الماضى وجذوره كى تثبت نفسها• لم تعد بها حاجة الى الماضى كى تبرر وجودها • بل انها اصبحت فى حاجة الى ان تضمن المستقبل ، وان تحلق ضمن اجوائه وهذا التحليق يستلزم منها الاعتماد على المجالات العربية والامكانيات العربية •

وليس من محض الصدفة ان تصدر فى هذه الفترة بالذات ، كتابات عن اسرائيليين أو عن مثقفين موالين لاسرائيل تتحدث عن هذه الامكانية ، امكانية « التكامل بين الكم العربى والكيف الاسرائيلى » • وقد انتهى احد الكتاب الاسرائيليين راشيد ميزراحى ، الذى له كتاب عنوانه « أين عاد الليل ؟ » (وهو عنوان له أكثر من دلالة) انتهى الى الخلاصة التالية :

« لا نحتاج الى جذور ، ولكننا نحتاج الى اجنحة » •

فهل العرب على استعداد لان يقصوا اجنحتهم كى يعيروها لاسرائيل تطير وتسيطر بها على أجواءهم ؟ •

روح الشريعة الإسلامية
وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي

للأستاذ/ محمد أبي زهرة
أستاذ الشريعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة



-3-

الكسب بالزمن :

I9 ـ لم يعد الاسلام الكسب بالزمن سببا من أسـباب الكسب الطيب لأن الزمن لا ينتج ثمرا ، ولا يلد نقدا ، أو يحمل فيه نقد حتى يتمخض ، ولذلك أبطل القرآن الكريم الكسب بالزمن ، وجعله من قبيل أكل أموال الناس بالباطل ، وعده سحتا فى الكسب ، فقال تعالى : « **الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله**

(*) محاضرة ألقاها المرحوم فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى بتيزى وزو المنعقد من I0 ـ 22 جمادى الثانية I393 هـ ـ I0 ـ 22 يوليو I973 م ·

ونظرا لطول المحاضرة ننشرها على حلقات ·

البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه ، فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون،يمحق الله الربا ويربي الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلاة وآتووا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » .

نص صريح لا ريب فيه ، وعد القرآن الكريم من لم يذر الربا بعد تحريمه في حرب الله ورسوله ، لانه سيحارب نظام الشريعة في الكسب ، لانه يرتكب اعظم الاثام جرما في بناء المجتمع ، وحد مؤدى التوبة ومغزاها وهو ان يسلم لهم رؤوس أموالهم ، ولا يأخذوا فوق رأس المال شيئا والا فهو الربا .

ولكن تنبأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بزماننا هذا ، وهو زمان ربوي في أكثر طرق الاستغلال ، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الامام أحمد : «**يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا ، من لم يأكله ناله غباره**» . وهذا هو زماننا ، وان ذلك بلا ريب انحراف بالامة عن مقاصد دينها ، ونصوص كتاب الله تعالى الذى نزل رحمة للعالمين .

انما الطامة الكبرى ، ان ينبرى بعض كبراء المشتغلين بالعلم الاسلامي لبيان أن فوائد البنوك ليست ربا لان القروض فيها استغلالية ، والربا في زعمهم انما هو في القروض الاستهلاكية . كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا ، فالقروض الاستهلاكية والاستغلالية على سواء في تحريم الربا ، لان اللفظ عام ، لم يفرق بين قرض للاستهلاك ، وقرض للاستغلال ولان ربا الجاهلية كان في أكثر احواله للاستغلال لا للاستهلاك ، فربا العباس بن عبد المطلب الذى ذكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند تحريم الربا فقال عليه السلام : « **ان ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أبدأ به ربا**

عمي **العباس بن عبد المطلب** » وما كان العباس في شرف محتده الذى كان يسقى الحجيج بقنع العنب فى موسم يجنيه طالب قـوت ، ويقول أما ان تربى واما أن لا اعطيك ، ولأن العرب ما اتسـعت حاجاتهم ، بل كان الرجل يعد موفور الرزق مادام يجد التمر واللبن ، فمادامت عنده الناقة التى يحلب لبنها ، والنخلة التى يأكل ثمـرها ، فهو مجدود ورزقه موفور ، فليست عنده ولا عليـه نفقات تعليم ابنه أو جهاز ابنته ليقترض لها ، واذا كان لا يملك الا قوت يومه ، فمن الذى يقرضه ، ليأخذ ورائه اقراضه ربـا .

وان العرب فى مكة كانوا قوما تجارا ، فمنهم من كان يتجـر فى ماله ، ومنهم من كان يتجر فى مال غيره ، على ربح مقوم بينهما ومنهم من كان ينمى رأس ماله بالقرض على أن يكون لصاحب المال قدر محدود من النقد ، وهذا هو الربا ، وكان هو ربا الجاهلية الذى شـاع مع شيوع التجارة .

وقد اختلف بنو المغيرة الذين اقترضوا من بنى ثقيف عندما نزل تحريم الربا ، فقال بنو المغيرة ، ان الربا على ما اخذوه فى المـاضى يحتسب من رأس المال ، وقال بنو ثقيف لا يحتسب ، واحتكموا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليطبق عليهم النص القرآنى ، « **ذروا ما بقى من الربـا** » .

وما كان بنو المغيرة يقترضون ليأكلوا ، بل كانوا يقترضون ليزيدوا فى رؤوس أموالهم ، فمنهم الوليـد بن المغيرة الذى نزل فيه قوله تعالى : «**ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبنـين شهودا** » وان التعبير برأس المال فى قوله تعـالى : « **وان تبتـم فلكم رؤوس أموالكم** » ، ان هذا التعبير عن الدين يدل على أنه رأس مـال للاتجار ، لا للاكل واعداد الحاجات .

20 ـ ومن الكسب بالانتظار والاحتكار ، فانه كسب الزمن ، اذ تدخر البضائع فى وقت كثرتها الى وقت قلتها ، فيزداد ثمنها ، ويكون الكسب بالزمن ، وقد حرم بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **الجالب رزوق والمحتكر خاطئ** » .

ولماذا حرم الاسلام الكسب بالزمن وعده كسبا خبيثا ؟ والجواب عن ذلك ان الكسب الطيب فى الاسلام هو الذى يزيد ثروة الامة ، او ينمى مالها فى مجموعه اما بالزراعة ، واستخراج ينابيع الارض ، أو بتحويل الاشياء بالصناعة فالتحويل يزيد الثروة ، فتحويل القطن الى نسيج يزيد ثروة الامة ، وتسد حاجاتها ، وغير ذلك ·

والتجارة تحويل البضاعة من مكان فيه وفرها الى مكان آخر ليس فيه وفر ، بل حاجة ، وذلك ينمى ثروة الامة وتسد حاجاتها ·

اما الكسب بالزمن فانه لا يسد حاجة ، ولا ينمى ثروة الامة ، انما الذى يسد الحاجات وينميها فهو المقترض المستقل مثلا ، ويجب تشجيعه لا بخسه ، ولا الاقطاع منه لمن لا يعمل ، ولا يتحمل أى تبعة

ويقول اولئك الذين انحرفوا لان المجتمع الربوى جرفهم ، ان الربا يمكن المستغل من أن يستعمل بوفرة ، ونقول انه يرهقه من أمره عسرا لانه يعمل مستغلا ثم يجىء الآخر ويشاركه فى كسبه ، من غير ان يشاركه فى خسارته ، ان خسر ، وبذلك تتوالد الازمات عندما يكون الكسب غير قائم بسداد الربا الذى هو كالاتاوة ، ولو كان الرابى شريكا ، لتحمل الخسارة ، ولكنه لا يريد الشركة ، بل يريد الاخذ من غير تحمل لتبعة وذلك ظلم مبين مؤدى الى فراغ عند المرابين ويصيرون كلا على المجتمع . لا يفكرون الا فى حساب الفوائد، وفوائد الفوائد ، وكيف يقتنصون أموال الناس ، ويأكلونها أكلا لمـاً ، ولعل أرسطو قال قوله الحق عند ما قال : ان الكسب بالفائدة كسب خبيث ، لأن النقد لا يلد النقد ·

مؤدى تطبيق الشريعة او مغزاه

21 ـ ما ذكرنا اجمال لبيان الشريعة ، وما كانت ترمى اليه ، وقد أسهبنا بعض الاسهاب ، لكى نعرف مدى تطبيقها فى الماضى ، وما ينبغى لتطبيقها فى الحاضر ومنه كيف أن نطبقها أو روحها ، أم نحن فى واد ، وهى فى واد !

ان هذه الشريعة كانت مطبقة تطبيقا كاملا فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى علم الانسانية ، كلها ، علم الحق والعدل ،

وكانت مطبقة فى عهد الراشـــــدين الاربعة ، ثم عهد الحاكم العادل عمر بن عبـــد العزيز رضى الله عنه الذى عـــده بعض المؤمنين من المؤرخين خامس الراشدين ·

اقيمت فى عهد هؤلاء الحدود كلها ، حد الحـــرابة ، وهم قطاع الطريق والعصابات ، وحد السرقة وهو قطع اليد ، وحـــد الزنى ، وحد قذف المحصنين والمحصنات ورميهم بالزنى ، وحد الشرب ،وهو ثمانون جلدة ، لمن يقبض عليه شاربا الخمر ، وحد الردة ، وهو قتل المرتد بعد استتابته ·

ونفذ القصاص ودفعت الديات ·

وبذلك قام مجتمع صالح تختفى فيه الرذيلة ، وترفع راســـها الفضـــيلة حتى تكونت بحق المدينة الفاضـــلة التى كان يحلم بها الفلاسفة ولم يستطيعوا لها تطبيقا أو ايجادا ·

وكانت التعزيرات ، وهى العقوبات غير المقدرة بقـدر محدود فى الكتاب أو السنة تقوم بالعدل والميزان فما كان يعتدى انسان الا اذا اعتدى على مصلحة مقررة فى الشرع أو انتهك حـــرمة من حرمات الشرع ، أو اعتدى على حق عام ، أو نشر فسادا ·

وكانت العقوبة تقدر بقدر الاعتداء ، وتكون رادعة فى غير تحيف ولا ظلم ، ولا دفع للتعاريف وأشد وما كانت التعزيرات أو غيرها من العقوبات لشهوة الحكام وارضائهم ، بل لارضاء الله سبحانه وتعالى · وهو الرءوف بعباده الرحيم بهم ·

وكان الحكم قائما على الشورى ، كما قال تعالى : « **وامرهم شورى بينهم** » ، وكما قال تعالى : « **وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكـل على اللـــه** » ·

فأساس الحكم فى الاسلام هو الشورى لا يعين الحـــاكم الا برضا المؤمنين ، وبيعتهم أو بيعة أهل العقد والحل الذين اختيروا لذلك من بعده ، ولم يول أحدا من بعده ، واختبر الله تعالى عترة محمد اختبارا شديدا ، فلم يتمكنوا من سلطان الا فى الاطراف من الارض ، ولآماد

قصيرة والذين طال بهم الامد وصـــاروا حكاما قد حولوه الى ملك عضوض فكانوا كغيرهم فى الدول التى ادعت الخلافة ·

وفى الحق أن أول هدم فى بنيان الحكم الاسلامى كان تحويل الخلافة الى ملك عضوض ليعض عليه بالنواجذ ، ولقد ورد فى الاثر ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « **الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكا عضوضا** » ·

واذا كان علماء القانون فى هذا الزمان يقولون ان دستور الدولة هو أمر القوانين فيها عنه تصدر حكمه تنفذ ، واليه يحتكم فى صحة ما تشترع ، فأساس الحكم ، والانحراف عن الشـــورى الى الملك العضوض هو أول هدم لحكم الشرع الاسلامى ، ولقد سئـل الحسـن البصرى عن معاوية بن ابى ســفيان فقال فى معاوية اربع احداهن موبقة أولاها أن أمر المسلمين كان شورى فجعله ملكا عضوضا ، وعهد الى يزيد السكير والحق به زيادا ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسـلم يقول **الولد للفـراش ، وللعاهر الحجـر** ، وقتله حجر بن عدى غدرا ، « ويل له من حجر بن عدى » ·

هذه كلمات الحسن البصرى أحد كبار التابعين ، وســيد علماء البصرة ننقله ، ولا نذكر اننا نؤيده فى قوله أو لا نؤيده ، ونرضاه أو لا نرضاه ·

22 ــ وانه فى الحق نقول انه فى الفترة التى غير فيها دســتور القرآن ، وهو الشورى كان الفقه الاسلامى فى منهاجه الحق بالنسبة للاحكام الشرعية المستخرجة من الكتاب والسنة ، واعمال الصـحابة مجمعين وغير مجمعين وقد سار فى طريقه السوى من غـير عوج ، ولا مبالاة للحكام المستبدين ، كما رأينا فقيها ما لا فى حكم شرعى ، ولا أدهن فى حد من حدود الله تعالى بل يقرر الاحكام المســتنبطة من الكتاب والسنة فى رأيه من غير عوجاء ولا لوجاء ·

ولكن نلاحظ أمرين :

ــ احدهما ، انهم لم يتعرضوا من مبدا الحكم فى الاسلام الا بكلام قليل وأكثر القليل كان متخذا من الاوضـــاع التى كانت قائمة ، راضيا بها أو ساكتا عنها

ومنهم من كان يستنكر ظلمهم أولاد على كأبى حنيفة وما تركه أبو جعفر المنصور حتى زج به فى غيابات السجن بتعلة غير الباعث الحقيقى .

وكان مالك رضى الله عنه لا يؤيد الخارجين ولا يؤيد الحاكمين ، وقد خرج فى المدينة محمد النفس الزكية من أولاد عبد الله بن حسن بن حسن ، فسئل مالك رضى الله عنه أنكون مع الخارجين أم نكون مع أمير المؤمنين ؟ فقال رضى الله عنه : ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلوهم ، والا فاتركوهم ، فينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما .

وحاول والى المدينة أن يمنعه من رواية حديث وليس لمستكره يمين لان الخارجين كانوا يستدلون به فى رفض خلافة ابى جعفر المنصور ، لانها أخذت بالاكراه وأبى امام المحدثين وامام دار الهجرة ان يمتنع عن التحدث بحديث رسول الله اتباعا لهوى حاكم أو ملك تسمى باسم خليفة ، فضرب بالسياط .

وحوكم الامام الشافعى لاتهامه بالولاء لآل على حتى استطاع الخروج من التبعية بلباقة وشفاعة محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة الذى كان قاضيا للرشيد .

وحبس وجلد الامام أحمد لانه لم يقل ان القرآن مخلوق اتباعا للمأمون أولا ، والمعتصم ثانيا والواثق ثالثا .

هذه تعذيبات شديدة نالت الفقهاء أو بعضهم بسبب آرائهم حول الحكم أو على مقربة منه ولكن الفقه استمر سليما لم يرنق بضلال قد يكون فيه أخطاء بدليل ان بعضهم كان يخطىء بعضا ، ولم يكن فيه انحراف فى الدين أو التواء فى النفس أو حض على هوى الحكام .

ولذا جاء الفقه سليما فى استنباطه وسليما فيما استقى من ينابيع وسليما فى فتاويه فى الواقعات يهدى ويرشد ، ولا يضل ويفرى .

وقد اغلق باب الاجتهاد أو غلقه الفقهاء على أنفسهم ، وكان ثمة بواعث اقتضته ، ولكن أرى أن ذلك هو من قدر الله تعالى ، وصيانته لشرعه من أن يعبث به أهواء الملوك الذين استولوا على ملكهم بغير حق شرعى ولا شبه شرعى .

فان الاحكام بهذا التغليق على انفسهم ، وان لم يكن بمصدر شرعى ، صان الشريعة عن عبث الاهواء ، وقد حكم الهدى دون الشرع ، لان حكم الملكية حكم الهوى الا من استقام على الطريقة ، وقليل ما هم بل نادر ما هم .

وقد استمرت الشريعة محفوظة بحفظ الله مع فساد الحكم الاسلامى ، وما كان فيه من سلاح مدعى كان فى الحرب ، وما كانت الحرب جهادا ، بل كانت للغلب .

ثم انقلبت فصارت حربا بين المسلمين عندما تمنعت يد الحاكم العباسى على القبض على السلطان ، فقام بين مؤيديه ، وصارت الحرب بين المسلمين ، حتى جاء التتر واستولوا على بغداد، وطردوا العباسيين منها .

ومن الحق علينا ان نقول ان الذخيرة الشرعية كانت ثابتة قائمة يتذكرها الفقهاء ، ولا يزيدون ولا يتصرفون .

وجاء الى الاجيال الذخيرة الفقهية غير عرجاء ولا عوجاء ، وجاءت أحكام القرآن والسنة مصونة لم تمس ، واذا كان فيها فى بعض الاحيان جمود على آراء فان ذلك خير من أن يجرى التغيير والتبديل تبعا لاهواء الحكام .

ابتداء الانحراف :

23 ـ قلنا ان تغليق الفقهاء عن أنفسهم باب الاجتهاد حفظ الذخيرة الفقهية ، ولكن بعد أن آل أمر المسلمين الى آل عثمان وجد اتصال قانونى بين الاتراك ، وغيرهم ، ووجد الاتصال بين المغرب واوروبا ، وكان يمكن أن يكون اجتهادا يقرب ، ولا يبعد ، وباب الاجتهاد مغلق لا يفتح رتاجه ، ولكن استطاع الممالئون لسلطان آل عثمان ان يدخلوا من باب الحيل أى من غير الباب الذى يصح الدخول منه ، فوجدت الحيلة الشرعية لاباحة الربا ، بما يسمى « بيع العينة » الذى قال فيه محمد بن الحسن أحد تلاميذ ابى حنيفة « بيع العينة اخترعه أكلة الربا وهو أثقل على نفسى من الجبال » .

ولهذا البيع صور شتى منها أن يبيع شخص لآخر لبنا بثمن مؤجل قدره مائة مثلا ويتسلم العين أو لا يتسلمها، ثم يبيعها المشترى ثانية للبائع الاول بثمن معجل قدره ثمانون ، فتكون النتيجة أنه قد قبض ثمانين ، وصار عليه دين قدره مائة ، والعشرون هى فـــرق الثمنين ربا بلا ريب ، ولكن فى صورة البيع والشراء يحسبون انه اختفى على الله ، وما خدعوا الا أنفسهم ، ودخل فى الفقه على صـــور كثيرة ، ودخلت تغييرات فى الفقه بهذه الطريقة ·

دخول القوانين الاوروبية

24 ــ قلنا أن أول تغيير فى الاصول الشرعية كان انحراف الحـكم من شورى بنص القرآن الى استبداد بارادة الحـــكام ، ملوكا وغير ملوك ، كما ظهر من بعد ، وصار أمر المسلمين بورا ، وحكمهم فرطا يحكم الملك ، وكأنه يحكم بأمر الله ، وطاعته مقدسة ، والخروج عليه تمرد على حكم الله ، وحكم المسلمين حكام جهلة ، واضطربت الامور ، ولم يكن ثمة قضاء منتظم ، ولا حقـــوق مرعية ، وتصرف الملوك فى الناس تصرف المالك فى ملكه · ولم يكن لهم عند سلطان آل عثمان ارادة ، ولا رأى فى أى أمر من الامور ، ولم يكن ثمة ملك من ملوك المسلمين يحس بأى تبعة أمام الشعب المسكين ، وكان الدين قائمـــا الى حد عند بعض الملوك ، فكان يخشى الله فى رعيته ، الا اذا اعترض على حكمه معترض ، فعندئذ يكون الويل والثبور وعظـــائم الامور ، وتقوم الدنيا وتقعد ، ويكون ممن يجهلون علم الاسلام من يبرر للملك تصرفه أيا كان · كانت الامور فوضى وكان لابد من تغيير واعـــداء الاسلام بالمرصاد ·

ابتدأت العثمانية فكبلت المسلمين بالامتيازات الاجنبية ، زاعمـة أنها من مذهب أبى حنيفة الذى ذكر بالنسبة للذميين أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأننا أمرنا بتركهم وما يدينون ، وحرف فيه الحكم عن موضعه وجاءت القوة من ورائه تفسره كما يهوى الاقوياء ، لا كما هو مقرر فى المذهب الحنفى ·

ان المقرر فى المذهب الحنفى أمران ، أولهما : انهم فى المعـاملات كلها عقودا أو حدودا وقصاصا ، تطبق عليهم الاحكام الاسلامية المقررة

بلا تفرقة ، وقد أصل ذلك فى الامتيازات الاجنبية اجمالا تاما فلما ضعفت الدولة العثمانية صاروا يحاكمون فى موضـــوعات الحدود والقصاص فى بلادهم ، وامام قضـــاة منهم ولو كان الامر بينهم وبين رعايا الدولة الاسلامية .

الثانى : أن أبا حنيفة قرر أنه فيما يتعلق بأحكام الاسرة من زواج وما يتعلق به تطبق عليهم شريعة دينهم عملا بقاعدة أمرنا بتركهم وما يدينون .

جاء سليمان القانونى ، ومن بعده خلفاء ، فاعطوهم امتيازات ، وتوسعوا فيها كلما زادوا قوة ، وزاد آل عثمان ضعفا ، حتى تدخلوا فى كل شىء يتعلق بالاجانب ووجد ما يسمى بالصالح الاجنبى أى ان كل قانون أو نظام يسن يكون فيـــه ما يمس الاجنبى ولو عن بعد تدخلوا فيه باسم الصالح الاجنبى .

كانت هذه الامتيازات غلا فى أعناق المسلمين فرضه الجهل التركى على الشعوب ، أو ابتداء استخذاء الدولة الاســـلامية أمام الغارات الفكرية الاوروبية أو محاولة الاتصال التجارى بأوروبا ، فتســـهيلا لتجارتهم ومتاجرهم كان ذلك الامتياز الاوروبى ، ووجدوا فى بعض نصوص المذهب الحنفى ما يفتح الباب لذلك وان لم يكن الا بقـــدر ضـــئيل .

25 ــ كان فساد الحكم ، وفساد القاضى ، وعدم وجود أى نظام قار للقضاء ولتنفيذ الاحكام الشرعية مع سوس الامتيازات سيما لتورد القوانين الاوروبية فى العالم الاسلامى ، ولنضرب مصر مثلا ، من بين هذا العالم .

1) جاء رجل ارمنى اسمه نوبار باشا ، فأنشأ المحاكم المختلطة فى مصر ، لتكون مركز التقاضى بعضهم مع بعض والتقاضى بينهم وبـــين المصريين وذلك فى الامور المدنية والجنح التى تقع مع الاجانب ، أمـــا المتـــصلة بالحياة ، فكان التقاضى فيها من اختصـــاص دولة المدعى عليه والتداعى أمامها وكان التقاضى فى هده المحاكم على حسب القانون الفرنسى الذى جمعه نابليون بونابرت ، وكان انشاء المحاكم المختلطة سنة 1875 .

واستبدت المحاكم المختلطة ، حتى كانت لا تعترف فى قضائها بأى عقد الا اذا سجل أمام المحكمة المختلطة وكان ذلك توســعة لنفوذها وتطبيقاتها على المصريين بغير حق ، وكان ذلــك سببا لان ينشأ فى المحاكم الوطنية قلم للتسجيلات ، والتسجيل فيها ، من بعد ذلك ·

2) كان انشاء هذه المحاكم منفذا دخل منه الى قانون نابليون نقل الى مصر ، وانشئت المحاكم الوطنية ، التى كما كانت تسمى بالاهلية واسمها يدل على اختصاصها وانها كانت مختصة بأهالى مصر ، وابتدأ ذلك سنة 1881 وعم انشاؤها ربوع الديار المصرية سنة 1883 ·

وصـــار التقاضى بين الاهالى على نظام القانون الفرنسى خاصـــة والقوانين الاوروبية بشكل عام ، ولم يتضـــمن القانون المطبق من الشريعة الا بعض الموضوعات الجانبية التى بنى الاخذ منها على العادات التى كانت مدعية فى ذلك ، وهى حقوق الارتفاق ، واحكام الشفعة ، واحكام المريض ، مرض الموت ، فى بيته ، وتصرفاته التى تقيد الورثة من بعد الوفاة ·

وترك للاحكام الشرفية ما تطبقه المحاكم الشرعية التى كانت قائمة ابان ذاك ، فكانت تقضى فى الزواج والطـــلاق ، والنفقات وثبوت النسب ، وغير ذلك مما يتعلق بأحكام الاسرة ·

وكانت تقضى فى أصل الوقف ، وما يتعلق بانشائه ، وما تشتمل عليه وثيقة انشاء الوقف التى تسمى كتاب الوقف ، وما تضمنه من شروط فى الوثيقة وترتيب للاستحقاق فيها ، وتوزيع ·

3) ومما خرج من اختصاص المحاكم الاهلية التى صارت تســمى باسم المحـــاكم الوطنية ، الميراث والوصـــايا على خلاف يسير فى الوصايا ، انتهى بخروجها من اختصاص المحاكم الوطنية ، كالوقف والوصية أخت الوقف ولا ينفصل الاخـــوان الا عند من يريد تقطيع الارحـــام ·

وقد جرت اقتراحات خاصة بمحاكم الاحوال الشـــخصية ، ثم تعسف الحكم المصرى فيما تعسف فالغى المحاكم الشرعية وعد المفكرون فى ذلك الالغاء مأتما للشريعة الاسلامية ، أو مقدمة لمأتمها العام ، ثم

أخذ امر الشريعة يضمر أمام القوانين الاوروبية عند ما كان قلب النظم الازهرية بالقاهرة الذى سمى تطوير الازهر ، وكان من مقتضاه فيما يختص بالشريعة ان صارت القوانين الاوروبية بأصولها وفروعها وملحقاتها تدرس بجوار العلوم الشرعية فى كلية الشريعة ، وغير اسمها ، فصار كليـة الشريعة والقانون ، واذا كان فى ذلك كسب للطالب الازهرى ، فهو بلا ريب على حساب الشريعة وصارت القوانين الاوروبية والشريعة على سواء ، فى ذلك العهد الدينى العتيق ·

26 ـ وفى العشرة الثالثة من هذا القرن استعارت تركيا المسلمة قانون سويسرا المدنية ، وطبقت فى كل شىء فيها ، حتى فى الاسرة فاستعارت منها قانون الاسرة فيما استعارت من قوانين مدنية ، وعلى ذلك كانت المرأة مثل الرجل فى الميراث على سـواء واتيح للمرأة المسلمة أن تتزوج غير المسلم ومنع تعدد الزوجات ، ومنع الطلاق ، وصار الاقدام على واحد منهما اقداما على جريمة يعاقب عليها من اقدم عليها ، وصارت المباحات الشرعية يصدر بتحريمها قانون العقوبات فى الاسرة ·

ولقد دخلت القوانين الاوروبية كل البلاد العربية والاسلامية بشكل عام ، وصرت لا تجد بلدا يطبق الشريعة ، الا ما نراه فى الحجـاز ، وبعض البلاد العربية الاخرى مثل الكويت الى حد ما ، ومثل الامارات العربية ، وغيرها ·

وقد اخذت القوانين الاوروبية تتورد اليها قانونا بعد قانون فى غير مواربة واستحياء ·

وان البلاد الحجازية الذى يقال ان الشريعة تطبق فيها تطبيقا كاملا يلاحظ فيها أمران :

أولهما : ان الحكم فيها لا يمكن ان يكون اسلاميا ، فان نظام الحكم فيها ملكية متوارثة كأن الشعوب أشياء تورث كما يورث كل شىء ، وهذا نظام لا يعرفه الاسلام ، والحكم فيها اسـتبدادى ، الملك فيها مطلق اليد لا معقب لقوله ، ولا ناقض لحكمه ، فهل كان محمد ملكا ، وهل كان الشيخان ملكين ، وهل كان ذو النورين ملكا ، وهل كان ابو الشهداء على ملكا ؟

لا ندرى كيف يطبق الاسلام والحكم ملكى ، ومطلق لا يقيد بقيده ؟

الامر الثانى : الذى يجب التنبيه اليه أن المذهب المطبق هو المذهب الحنبلى ، ولم يدون فى قانون مسطور وهـــذا المذهب كغيره فيه آراء كثيرة ولذلك يصعب الرجوع الى ما يحكم به ، واعلم ان بعض ابنائنا من خريجى كليات الحقوق فى القاهرة ، أراد ان يضع قانونا مسطورا من مذهب أحمد ، وهو عمل صالح ، فصودر الكتاب ٠

ونحب أن نقول أن الافكار الاوروبية أخذت تتورد على بلاد الحجاز فهناك مؤسسات للتأمين على الحياة ، وعلى المتاجـــر ، وقد انشرحت قلوب بعض الحجـــازيين ، حتى صار منهم من يريد أن ياخذ بها ، وحكمت محاكم بجواز عملها ، والى الله المصير ٠

الاسرة

27 والآن عمت القوانين الاوروبية البلاد الاســـلامية ولم تبق الشريعة الا فى الاسرة ، والاوقاف والمواريث والوصايا ، وذكرناها ، وان كانت من ضمن الاسرة ، لانها أقرب الى التنظيم المالى ، ولـــكن انتزعت من الشريعة انتزاعا فى قانون تركيا ، فحيل بينها وبين حيز الشريعة فى أعمـــال كثيرة اقترنت بها كالغاء الحـــروف العربية ، واستبدال الحروف الافرنجية بها ، فى غير تحرج ، وكمنـــع الآداب بالعربية وان انحسرت غمة ذلك بقوة الشعب التركى ٠

ولكن هل سلمت للشريعة الاسلامية الاسرة ، لقد وجدنا دعوة الى اخراجها من نطاق الشريعة ابتدأت فى أول هذا القـــــرن فى كتب فى مصر ، ابتـــدأت وكانت بتأويلات فى الشريعة وايدها كبار من المفكرين خصوصا فيما يتعلق بتعدد الزوجات والطلاق ولكن صرخات هؤلاء ذهبت فى واد ٠

فقد كتب الكاتب الاجتماعى قاسم أمين كتابه تحرير المرأة ، وأيده فيما اشتمل عليه الامام محمد عبده ، والزعيم العظيم سعد زغلول لان حال المرأة فى ذلك الوقت كانت فيها مهينة مظلومة ، وكانت فوضى الطلاق والتعدد ٠

ولكن بمجرد ان استيقظت المرأة المصرية سلمت ما لها من حقوق

شرعية وصدرت غير محتاجة الى قانون غير مشتق من الشريعة ذاتها ، وان حملت تأويلات مذهبية ·

ولذلك أراد بعض تلاميذ الامام محمد عبده ان يحيوا آراءه فى تعدد الزوجات سنة 1926 وقدموا مشروعا بذلك ولكن الزعيم العظيم الخالد الذكر حقا وصدقا ، قد رأى المرأة حملت عبئها ، وكان ممن عمل على وأد ذلك المشروع وطيه فى زوايا النسيان، وكذلك فعل خليفته من بعده ·

واذا كانت هذه الآراء قد اماتها الشعب المصرى المتمسك بالشرع فقد وجدت طريقها فى غفلة من التفكير الاجتماعى الاسلامى السليم ·
فقد اخذت سوريا بمبدا أن تعدد الزوجات لا يكون الا باذن من القاضى الشرعى أو من يقوم مقامه ، ولم تقيد الطلاق ·

وجاءت من بعدها العراق فمنعت الطلاق وتعدد الزوجات فى عهد عبد الكريم قاسم ، ولكن ما ان أزيل حكمه الطاغى ، حتى زال معه قانونه المائع ، والذى اقتدى فيه بتركيا فى تسوية الرجل بالمرأة فى الميراث ، ولما ذهب ذلك الرجل الظالم مع قوانينه عادت الشريعة كما هى ·

وجاءت تونس فمنعت منعا مطلقا الطلاق وتعدد الزوجات أخذا بما أخذ به القانون الفرنسى ، والنظم الكنيسية بشكل عام حتى أن أحد اصدقائنا الانجليز دعى لالقاء محاضرة فى تأييد القانون المشتمل على هذه المبادىء على اعتبار انه قانون اسلامى ، فوقف وبين أن الفرق بين الاسرة فى نظام الكنيسة ، والاسرة فى الاسلام هو فى الطلاق وتعدد الزوجات ، فالاسلام يتيح التعدد ، والكنيسة تمنعه ، والكنيسة تمنع الرجل من أن يتولى التطليق بذاته والاسلام يبيحه ، ولذا لا يعد هذا القانون اسلاميا ·

ومما يحكى ونذكره على سبيل الفكاهة ، وان كان متصورا أن يكون حقيقة ان رجلا تزوج وهو متزوج فقدم للقضاء ليحكم عليه بالحبس ، والغرامة ، جزاء ما اقترف ، فأوعز اليه المحامى الذى تقدم للدفاع عنه ان يقول انه صديقها يباشرها فى بيته على أنها صديقة وليست زوجا ، ورضيت الزوجة بهذا لتنجو هى وهو من العقاب ، فاعترفا

بذلك ، وكانت البراءة ودخل الرجل المحكمة وهو طاهر ، وخرج منها وهو زان لينجو ، ودخلت المرأة حصانا رزانا طاهرة ، وخرجت زانية ، ويروى أن هذه الواقعة كانت فى تركيا وروى أنه كانت فى تونس ، ولعلها كانت فيها لان قوانينها تسمح بأن يقع هذا فيها ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى ·

واننا اذا غادرنا تونس ، الى المغرب ، نجد القانون المغربى مع انه يبيح تعدد الزوجات يذكر أنه لا يجوز التعدد اذا خيف عدم العدل وحسب أنه أخذ ذلك من القرآن ، من قوله تعالى : « **فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم** » ·

وانما نرى أن هذا يخالف ما كان عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واصحابه الاكرمون · واجماع المسلمين ، ونلاحظ مع ذلك ما يلى :

(1) ما معنى العدالة ، وكيف تثبت ، بشهادة اثنين ، ان العدالة أمر نفسى لا يعلم الا من جهة صاحبها ، وخصوصا الخوف منها وان القرآن الكريم عندما ذكر العدل أناط الامر الى الخوف من أن لا يعدل، كما قال تعالى : « **فان خفتم ألا تعدلوا** » مناطة الى أمر نفسى لا يجرى فيه اثبات القضاء ، وما لا يمكن اثباته قضاء لا يوضع فى قانون يمنعه القضاء ·

(2) ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صرح بأن العدالة المطلوبة هى العدالة الظاهرة بالسوية فى المآكل والملبس والمسكن ، والمحبة الظاهرة بألا يظهر المحبة لاحداهن ولا يظهرها للاخرى أما المحبة القلبية فليست بمطلوبة ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **اللهم ان هذا قسمى ، فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك** » وهذه هى العدالة الحقة التى لا يمكن استطاعتها اذ قال تعالى : « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النسا. ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** » ·

(3) انه قد اجمع الفقهاء على أنه لا يحل الزواج ، ولو من واحدة اذا تأكد أنه لا يعدل مع زوجته اذا تزوج الواحدة فى ذلك كالتعدد

على سواء ، فهل يشترط لاباحة الزواج قضاء ان يكون عادلا ؟ ان ذلك يترك للتدين والاخلاق اذا بعد فانه من هذا السياق التاريخى والواقعى نقول ان ظل الشريعة مع الاسى والاسف ، قد انكمش فلم يستظل المسلمون بظله . واستعاروا قوانين هى بالنسبة لشريعة القرآن كنسبة النقص الى الكمال ، وقد ارتضوا هذه القوانين الناقصة وتركوا كمال الشريعة القرآنية ولذلك حلت الاهواء محل العدل وحل الفساد محل الصلاح ، وضاع المسلمون لانهم أضاعوا القرآن والشريعة .

3 ـ الطريق السوى لاعادة الشريعة لمكانها :

28 انتهينا من هذه السلسلة التاريخية الى أمرين :

أولهما : ان الشريعة أخذ سلطانها يضعف شيئا فشيئا فى العصور المختلفة وان الفقهاء فى وقت ضعفها أو تدرج هذا الضعف نازلا درجة درجة ، كان الفقه الاسلامى المتعرف لاحكام الشريعة وغاياتها ، ففى الوقت الذى قال فيه عبد الملك بن مروان : « من قال لى اتق الله قطعت عنقه » وكان الحجاج بن يوسف الثقفى يملأ سجونه ، وفى الوقت الذى كان يقول فيه ابو جعفر المنصور العباسى لرجل قال له اتق ، يقول لهذا القائل احتياها ، ولا تعد لمثلها ، وفى هذا الوقت ، وفى ظل امثال هؤلاء كان الفقه الاسلامى خصبا ، ويقرر الاحكام لشرعية ويستنبطها من كتاب الله وسنة رسوله يأخذه منهما صفوا لا كدرة فيه .

حتى اذا كان القرن الرابع اغلق الفقهاء على أنفسهم باب الاجتهاد وبذلك حفظت الذخيرة الفقهية من أن يعبث بها الحكام الطاغون ويتنبهوا للتدخل فى الاستنباط ليوجهوا الى ما يرضى أهواءهم وشهواتهم ، ويكون الذهب والمغريات وجاه السلطان وحكم الطغيان موجها للفقه والفقهاء وهو منهم بمعزل ، ولا قبل لهم به .

الامر الثانى : ان نظام الحكم مكن لاهل الباطل ان يغلبوا ويتولوا أمر المسلمين واذا لم يظهر اثر ذلك والاسلام غض ، وان كانت مظالم ، فقد ظهر بعد ذلك ، وقد ضعف الوازع الدينى عند الحكم . ولم تكن ضمائر دينية تسيطر ، وقد وقع فى أذهان الحكام أنهم

يملكون الرقاب الاسلامية ، ويحـــكمونها ، ويتصرفون فيها تصرف المالك فيما يملك لا معقب لاحكامهم ، وهم المتصرفون وحدهم .

وذهب أمر الشورى وذهب قوله تعالى : « **وأمرهم شــورى بينهم** » وصار لكل حاكم رجال يناصرونه ويؤيدونه كالملاء من قوم فرعون ، وكالملاء من قوم عاد وصار هؤلاء الملاء هم الذين وحدهم مستشارون فيما يثبت سلطان سيدهم وسلطانهم .

وبذلك ينتهى الامر الى أن ذهاب الشريعة العادلة وضرورة حكمها شــكلا لا معـــنى فيه ، ثم ذهب الشـــكل ثم اجتــرأ الناس عليهمـــا ، حتى صار القانونيون يتهكمون بالحدود تهكما مزريا عنجهالة لا تتفق حتى كدنا نقول ما قاله الله تعالى : « **ومن لم يحـكم بما أنزل اللــه ، فاولئك هم الكافرون** » لا بل نقولها مصرين عليها ويفعل الله ما شاء ، وهو الفاعل المختار .

واذا كنا نريد ان نعيد للشريعة مكانتها ، وللحـــكم الاســــلامى اصلاحه للناس ، واعلاء شأن المسلمين ، فانه يجب علينا ان نعود الى أسباب قوتها فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وســــــلم ، وعهد الراشدين من اصحابه الكرام الذين رضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

الشورى فى الحكم :

29 ــ ان الشريعة أخذت تتولى فى سلطانها ، لا فى ذاتها ، فهى شريعة الله لا تتولى ابدا بل هى تقرر هذا الوجود الســـاطع دائما ، وعلى الناس ان يعشوا اليه .

أمر القرآن بالشورى ، فيجب ان يختار الحاكم منهم اختيارا حرا ، ولا يتولى أى سلطان الا بعد أن يختار ، وليبحث العلماء عن طـــريق لاختيار عادل لا ريبة فيه ، ولتتجه العقول المفكرة الى النظر فى أمثل طريقة لانتخاب حر يختار به الحاكم الاعلى للمسلمين أو الرئيس الذى يحكم فى أى اقليم اسلامى .

ومن المؤكد انه ليس من الاختيار ان يرشـــح شخص نفســـه ، ويقول فى طريق الانتخاب قل : لا ــ أو نعم ، فهذا الامر لا اختيـــار

فيه ، انما الاختيار أن يكون بين أشخاص أو اثنين يختار امثلهما ، ومن ذا الذى جعل لذلك اختارنى ، فأنا مفروض ٠

ان اختيار الحاكم هو السبيل الذى سنه الاسلام بالقرآن وباعمال الصحابة فى اختيار الراشدين هو السبيل الامثل لوقاية الشريعة من عبث الحاكمين وكل تهاون فى ذلك هو تهاون فى أصل من اصول الاسلام ، ألم تنظر الى الامريكان ، والازمة التى قامت على رئيسهم اليهودى فى حكمه ونزعته ، لانه فى أثناء الانتخاب للرئاسة وضعت الحكومة بأمره سامعا لاستراق السمع من الحزب المخالف له ، فقامت الدنيا وقعدت ، وربما تنتهى بعزله ، أمر العزالة ويذهب طاغوت من طواغيت الارض ، ولا نأمن أن يجىء من يخلفه ، ان المسلمين اذا لم يأخذوا بشريعة القرآن فى اختيار حكامهم الاعليين أو الاقليميين ، استمروا فى ضيعتهم الى الابد ، وكان بطن الارض خيرا لنا من ظاهرها ، وانه بعد الاختيار للرئاسة يجب ان يكونوا فى رقابة مستمرة من الشعوب ٠ وان تتدبر قوله تعالى : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** » وقوله عليه السلام : « **لا يسال العامة عن ظلم الخاصة حتى يروا الظلم ، ولا ينكروه** » ، وبذلك تحمل العامة ظلم الملوك جميعا ، ولا تزال تطلع على بقية منهم ، فهل لنا ان نزيل التراب عن وجوهنا ونتبع احكام الشريعة فى الحكم لانفسنا ، وذلك لحفظ الاسلام والمسلمين ، ان الشعوب فى كل الانسانية تتطلع لحكم نفسها ، وللسيطرة على حكامها الا المسلمين ، حتى توهم الناس ان ذلك هو الأسلام ٠

يجب ان يتفطن كل مسلم ليقرر ما فيه خيره وخير الاسلام ،ولنضع اعناق الذين يفرضون انفسهم على المسلمين تحت اقدام المسلمين طوعا ، فان لم يفعلوا فليضعها المسلمون كرها ٠ واعلنوها جهيرة صريحة قوية ، لا ملكية فى الاسلام ، لا ملكية فى الاسلام لا ملكية فى الاسلام ، ان الشعوب الاسلامية ليست سلعا تورث كما يورث المال وأن الارض يرثها عبادى الصالحون ٠

ان الاحكام الشرعية فى ظاهرها وباطنها ومن لم يرض ذلك يديث بالصغار ويوطأ بالمناسم ، وخير لنا ذلك ، من أن توطأ شريعة الله ،

وتتخذ كتاب الله تعالى ، وراء ظهرينا وسنة نبينا دبر آذاننا ، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا .

الحدود تقام والقصاص ينفذ

30 – يجب ان تقام الحدود كلها من غير هوادة ، وليس لاحد ارادة فى هدمها ، أو التأويل لاسقاطها او التعابث بها ، فان اقامتها صيانة للمجتمع من المفاسد ، وحماية له من الانهيار ومنع للترف الذى اطفىء الحكام من أن يهلك الامة كما قال تعالى : « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

انه يجب ان تنفذ الشريعة فى العقوبات تنفيذا محكما ، لا يفر من حكمه أحد ، ولا يدرع سلطان بسلطانه ، ولا ذو جاه .

يجب ان تطبق الحدود على الحاكم والمحكوم على السواء ، ويجب أن يطبق القصاص فى النفس والاطراف على الجميع لا فرق بين حاكم ومحكوم ويجب ان يعين الشعب اولياء الدم ليأخذوا بحقهم ، وينفذوا سلطانهم عملا بقوله تعالى : « **ومن قتل مظلوما ، فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا** » يجب أن يتحرك المسلم فى كل بقاع الارض ليأخذ الحكام من نواصيهم الى تنفيذ حكم الاسلام ليحمى نفسه ودينه من ظلمهم وعبثهم ، انهم وباء الاسلام ، فيجب ان تنفض الشعوب عنها شرهم .

يجب على المسلمين فى كل البقاع الاسلامية قاصيها ودانيها ، ان يرفعوا عن أنفسهم رق الحكام ، ويجعلوهم مسؤولين ككل الناس ، والا استمر الضياع ، ولا منجاة ، يجب ان يتحركوا فقد طم السيل وعم ، وحاولوا ان يطفئوا نور الاسلام او أطفأوه لا نباع ولا نورث ، ولا يتحكم فينا بعد اليوم .

نور الله يشرق

31 – انبلج نور الفجر ، ونرجو ان يعم الكون ضياؤه ، لقد ابتدأ الناس يحسون بنور الشريعة لا فى المسلمين وحدهم ، بل فى الغربيين الذين كانوا يفاخرون بقوانينهم ، وان كانت ناقصة عن العلاج ، وابتدأ بعض المثقفين الذين كانوا يتاثرون طريق الفكر

الاوروبى ، ويسيرون فى مساره ، وان كانت الكثرة أو الظاهرين من هذه الكثرة لا يزالون فى ضلال مبين عن الحقيقة .

وفى الجامعات الاوروبية دراسات فقهية للحـــــدود والقصاص وعلاجهما لآفاق المجتمع ، بل ان بعض البلاد الاوروبية أدركت أنــه لا نظير للشريعة .

نذكر بعضا من هذه الامور او واحدة فقط :

انه من المقررات الشرعية أنه لا يذهب دم فى الاسلام هدرا أبــدا فاذا قتل قتيل ولم يعلم له قاتل لا يقرر المحقق الاسلامى انه تحفظ قضيته لجهل الفاعل أو لعدم كفاية الادلة بل انه يستحلف خمســون من أهل الحى الذى وجد فيه القتيل ، من العدول ، يحلف كل واحد ، انه ما قتله ولا يعرف له قاتلا ، وكذلك أهل القرية فاذا حلفوا كان على بيت المال ديته أو غرم أهل القرية أو الحى ديته .

درست هذه النظرية ، وقررت اكاديمية العلوم الجنائية فى جامعة روما ، انها نظرية صالحة يمكن تطبيقها ، ونقول مطمئنين انه يجب تطبيقها ان كانوا منصفين .

فالحدود والقصاص ، قد أخذت الجامعات العربية والاســـــلامية والجامعات الاوروبية تدرســـــها ، وانه قد اتيح فجــــر التطبيق لا الدراسة فقط .

فان ليبيا بقيادة الشاب قررت ضرورة تطبيق الحدود والقصاص ، كما قررها القرآن ، فمنعت الخمر منعا باتا ووضعت عقوبة لشاربه ، وقرر حد السرقة وهو قطع اليد ، وقررت عقوبة الحرابة ، وهى فى جرائم العصابات التى تهدد الامن والسلام وتقطع الطــــريق ، وهى شـــغـــــل الامريكان حتى ان بعض العصابات كانت لـــهـــا موازنة مالية ، تقارب موازنة الولاية التى تعيش فيها ، ومنع الربــا بين الآحاد منعا باتا ، فلا يجوز الحـــكم بفائدة ، وفى الطريق منع الفائدة بالمؤسسات ووضع حد الزنى وان لم يتم القانون ، وهكذا .

ان هذه بشار النور الهادى ، ونرجو أن يتصل حتى يعم

ولا ننسى أن نقول خاتمين القول انه يجب نشر حكم الشورى الذى يلغى حكم الملوك والطغاة والمفسدين الغاء . وفق الله العاملين على تطبيق الشريعة خائنة الاعين وما تخفى الصدور .

جولة

بين المجلات

اعداد : **د٠ م٠ بالحميسى**



لقد وعدنا قراء « الأصالة » الكرام بمتابعة هـذه « الجولة » لاطلاعهم على ما يكتب فى الغـرب حـول قضايا تهمنـا ٠

1

اتصلنا بالمجله التاريخية (Revue historique) عدد 517 المـؤرخ فى مارس 1976 ٠ وخصصت هذه المجلة صفحات للاطروحات التى نوقشت فى مختلف الجامعات الفرنسية والتى تناولت مواضيع عديدة فى شتى ميادين البحث ٠

وكان حظ العالم العربى والاسلامى كبيرا فى هذا المجهود فاخترنا أهم العناويـن نقدمها باللغتين :

Halawi Mahmoud : ***L'époque du Sadr al Islam à travers Kitâb al Aghânî.*** Paris - Sorbonne.

حلوى محمود : عصر صدر الاسلام من خلال كتاب الاغانى ·

(اطروحة الدور الثالث ـ باريس السوربون) ·

Abd al Hamîd (Saleh) : ***Les Bédouins en Egypte au Moyen-Age*** (Doctorat d'Etat - Paris I).

عبـد الحميـد (صالح)

البدو فى مصر فى القرون الوسطى (دكتورة دولة ـ باريس 1) ·

Ben Ndike Tong Nsangou : *Rôle du commerce dans l'expansion de l'Islam en Afrique Occidentale du VII^e^ au XIII^e^ siècle.* (3^e^ cycle - Paris I).

ابن انديكى تونق انسانقو

دور التجارة فى انتشار الاسلام بافريقيا الغربية من القرن السابـــع الى القــرن الثالث عشر ·

(الدور الثالث ـ باريس 1) ·

El Khatib (Nachéat) : ***Etude historique de l'époque abbasside à travers le Kitâb al Aghânî*** (3^e^ cycle - Paris - Sorbonne).

الخطيب نشعت

دراسة تاريخية للعهد العباسى من خلال كتاب الاغانى ·

(الدور الثالث ـ باريس ـ السوربون) ·

Pradines (Josiane) : ***Recherches sur le rôle des Chrétiens à la cour des Umayyades et des premiers Abbassides*** (661-861 après J.C.). (3^e^ cycle - Toulouse le Mirail).

بـــرادين (جوزيان)

بحوث حول دور النصارى فى بلاط بنى أمية وأوائل بنى العباس (661 ـ 861) · الدور الثالث ـ تولوز لوميراى ·

Schneider (Madeleine) : ***Stèles funéraires musulmanes des Iles Dahlak*** (*Mer Rouge*) (3^e^ cycle - Paris - Sorbonne).

شنيـــدر (مادلين)

انصاب تذكارية اسلامية بجزر دحلق بالبحر الاحمر

(الدور الثالث ـ باريس ـ السوربون) ·

Goutalier (Régine) : ***L'O.A.S. en Oranie*** (3ᵉ cycle - Provence).

قـوتالي (ريجـين) :

المنظمة المسلحة السرية بالقطاع الوهراني ·

(الدور الثالث ـ بروفانس) ·

Nordman (Daniel) : ***La notion de frontières en Afrique du Nord, mythes et réalités*** 1830-1912 (3ᵉ cycle - Montpellier).

نـــوردمان (دانيـال)

مفهوم الحدود في شمال افريقيا : أوهام وحقائق 1830 ـ 1912 ·

(الدور الثالث ـ مونتبيلي) ·

Soherin (A.) : ***L'Egypte et les mouvements arabes*** 1919-1939 (3ᵉ cycle - Paris I).

سوهيرين (أ) : مصر والحركات العربية 1919 ـ 1939 ·

(الدور الثالث ـ باريس 1)

يسلون أولادهم بالتاريخ المشوه ...

فاجأتنا مجلة الاطفال المعروفة بـ « جورنال دي ميكي » (Journal de Mickey) عدد 1237 الصادر في 76/2/29 بقصة غريبة وخطيرة لانها موجهة للصغار ما من شك انها تترك في نفوسهم أسوأ الآثار ·

فليتفضل القارىء الكريم بالقاء نظرة على صفحة 32 من المجلة · فالصورة رقم 1 ترينا « البطل » شارل مارتيل يزرع الرعب في قلب مجاهد عربي يلوذ بالفرار طالبا الرحمة والعفو من المنتصر ·

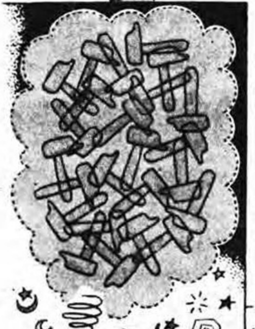
وجاء في الصورة رقم 2 مثال على لسان الفرنسي يقول : من الافضل أن يكون الانسان مطرقة (تلاعب بالالفاظ الفرنسية Martel marteau). لا سندانا ·

Martel en tête...





En 732, Charles Martel livre, à Poitiers, une bataille décisive qui arrêta l'invasion des Arabes...
En sachant que « Poitiers » s'écrit « 52464573 » en chiffres arabes, traduisez la phrase que prononce ce guerrier maure en déroute ?...





En lisant dans le sens de la flèche, une lettre sur deux, découvrez le genre de maxime que Charles Martel aurait pu peindre sur son bouclier... La difficulté est de trouver la première lettre du départ de la phrase.



Ce chef arabe, assez mal en point, au lieu de voir 36 chandelles est en train de compter les « marteaux »... Combien y en a-t-il ?



Cet autre guerrier musulman a préféré courir jusqu'à la mer, pour y trouver refuge... Hélas, une surprise l'y attend ; car, même au fond de l'eau, quelque chose se charge de lui rappeler Charles Martel...

SOLUTIONS

1. Pitié !... Toi... « Pote »... si stop !...
2. Il vaut mieux être marteau qu'enclume...
3. 24 marteaux.
4. Il s'agissait du « requin-marteau », dont la tête a effectivement l'allure d'un marteau. Cette espèce de squale visite fréquemment les côtes de France.

وأما الصورة رقم 3 فهى عبارة عن قائد عربى فى حالة سيئة للغاية وقد أصيب بدوران الرأس حتى رأى النجوم ظهرا فراح يعد المطرقات (تلاعب بين كلمتى Martel ومارتو أى المطرقة .

ودفعت الصورة الرابعة والاخيرة بالمجاهد المسلم الى البحر لشدة « خوفه » لعله يجد هناك ملجأ لكن ... وأسفاه حتى فى قعر البحر تهزه مفاجأة ما هى ؟ سمكة الكوسج رأسها على شكل المطرقة Martel و Marteau كذلك .

كان من المفيد جدا أن تسلى هذه المجلة الصغار الفرنسيين باحترام التاريخ والواقع المعروف عند الناس وتقدم لهم المعركة الشهيرة فى صور أجمل .

وحتى لا ينخدع أطفالنا ـ قراء هذه المجلة ـ رأينا من الواجب أن نلخص لهم وقعة بواتيى (Poitiers).

ـ لما انتهى العرب من فتح اسبانيا قاموا بعدة غارات فى فرنسا واستولوا ـ بدون مشقة ـ على عدد من مدن الجنوب مثل ناربون (Narbonne) ثم ليون (Lyon) وماكون (Macon) ثم انتشروا فى وادى الرون (Vallée du Rhône) حتى أصبح نصف البلاد الحالية تحت أقدام المسلمين وكانت فرنسا تتخبط فى فوضى اقطاعية لضعف الملوك « الكسالى » (les rois fainéants).

وفى سنة 732 خرج عبد الرحمن من اسبانيا عابرا جبال البيرينى ونهر لاقارون . رغم مقاومة أهالى الناحية (685 ـ 741) (Bordeaux) ثم استولى على مدينة بوردو يحكم باسم ملكين ضعيفين من ملوك الميروفنجيين فقاد الحرب ضد المسلمين .

ومن الاشياء التى سكتت عنها كتب التاريخ الفرنسية عمدا هى ان المناخ كان قاسيا على أبناء الصحراء فكانت شدة البرد أقوى عدو اصطدم به المسلمون .

ومن جهة أخرى هل كان العرب ينوون حقا احتلال فرنسا ؟ لا فاقتصرت حملتهم على غارة تعود بالغنائم لاثراء الجند . وكان سلاحهم خفيفا متواضعا ويعوزهم عتاد الحصار . بينما كان الفرنسيون يحملون الدروع ومن الاسلحة ما يجعل الحرب ضارية وفتاكة .

وتواصلت المعركة الى آخر النهار دون أن تميل الكفة لفائدة فريق · فلجأ العـــدو الى حيلة شتتت بها صفوف المسلمين الذين رجعوا نحو الجنوب · فلاحقهم شارل مارتيل وحاصر عبثا مدينـة ناربون ثم أخذ ينهـــب النواحى المجـــاورة حتى اضطر السادة الاقطاعيون النصارى الى التحالف مع المسلمين لطرد شارل مارتيل وهزمه ·

واحتفظ المسلمون ببعض النواحى فى الجنوب لمدة قرنين · وفى سنة 737 سلمهم حاكم مرسيليا مقاطعة بروفانس وفى 889 دخلوا مدينة سانت تروبيز (Saint Tropez) ومكثوا بتلك النواحى الى آخر القرن العاشر مما يدل على ان « انتصار » شارل مارتيل لم يكن له أهمية أو مفعول كما تصور ذلك بعض المؤرخين ·

وقد قيل ان مارتيل أنقذ أوروبا والمسيحية · وكيف ذلك وهو لم يزعزع العرب من أية مدينة احتلوها عسكريا · وراح بعضهم يدعى بأن مارتيل هو الذى « منع المعمورة من ان تقع فى يد محمد » « وأوقف أعداء التقدم والحضارة » ···

وهل تذكروا أن اسبانيا لم تزدهر وتتحضر الا فى أيام المسلمين وكان باقى أوروبا فى جهالة ووحشية وحبذا لو استنشقوا نسمات الاسلام ···

السيـــارة والتعـــريب

اصبحت السيارة جزءا من حيـاتنا اليو ميـة والمهنيـة والاجتمـاعية والاقتصاديـة كما اصبحت تغـطى قطـاعا هـامـا من النشـاط ، وهى اليوم الشغــل الشـاغـــل لصانعيـها وبائعيـها وسائقيـها والمتخصصـين فى اصـلاحاتـها ، واللغـــة حولـــها بالفـرنسية ، والتعـريب ما زال غريبـا عن هـذا «العـالم» والى مـتى ؟

جاء فى مجلة « أرابيكا » البارسية مقالة طويلة فى شكل قاموس مرتب على الابجد ، يعين على تعريب جميع ما يتعلق بالسيارة من أدوات وقطاع وخلل واصلاح ·

وقد اخترنا ـ على سبيل المثال ـ بعض المصطلحات تساهم فى تعريب هذا القطاع الحيوى ونتمنى أن ينشر هذا القاموس العملى فى فرصة أخرى .

A

Accélérer	دعس البنزين
Accélérateur	دواسة البنزين
Accumulateur	سراعة مركم حاشدة
Adhérer	التصق ب ...
Adhésif	لصوق
Admission	ادخال امتصاص
Aération	تهوية
Agir sur	أثر فى
Ailette de ventilation	جناح ريشة
Ailette (de refroidissement)	ضلع (ج. ضلوع ـ أضلاع أضلع)
Ajuster	سوى عدل ضبط
Ajustage	احكام ضبط
Ajusteur	مضبط
Alésage	تقوير (اسطوانة)

Aléser	قـــور جـــوف
Alimentation	تغـــذية
Allier	خلـط بين مـــزج
Alliage	اشعـــال
Allumage	اضـــرام
Amortisseur	مِخْمَـاد
Arbre	جـــذع محـــور عمود ـ جزع التوزيع
Arbre de transmission	ذراع التوصيل
Armature	وشيعـــة مِكـــبّ ملـــفّ
Aspirer	امتـــص مـــص
Atomiser	رشّ نهـــض
Avance	سبْـــق
Avance à l'allumage	تقديم الاشغال
Avertisseur	آلـة التنبيه منبـــه

Axe	مِحْــوَر مَـــدَار قطـــب

B

Baisse de compression	انخفاض الضغط انخفاض الكبْس
Balai	فحمة التماس فــرشة (مولّد)
Batterie	بطـارية
Bielle	ذراع التوصيل
Bloc cylindres	ملـــف مكـــب
Boîte de vitesse	صندوق التُروس علبــة السرعة
Boucher	ســـدّ
Bougie	شمعـــة
Branchement	وصـــل تـــوصيل
Brosse	فرشــة (ب فرش)
Bouton	زِرّ
Brut	خـــام
Bulle	فقـــاعة

C

Calibre (dimension)	عيـــار
Calibre (instrument)	معيـــار
Calibrer	عايـــر عـــيّر
Came	مرفعـــة
Canal	انبـــوب قنـــاة
Carburant	وقـــود
Carburateur	مُفحّـــم مُبخّـِــر
Cardan	محور عمومى الاتجاه مفصل متحول
Carter	حـــوْض
Catadioptre	عاكســـة عاكس نور
Centrer	رَكّـــز
Chambre à air	اطـار داخلى
Chambre de combustion	حجـيرة احتراق
Chambre de précombustion	حجيرة الاحتراق المتقدم
Chambre de préchauffage	حجيرة تسخين
Champ (magnétique)	حقـل مغنطيسى
Charbon	فحمـــة

(يتبـــع)

LE RESPECT D'AUTRUI

El Moudjahid 24.3.1976

Les locataires des « Asphodèles » - Ben Aknoun - Alger

Nous voudrions, par la présente, attirer l'attention des autorités compétentes sur un problème auquel nulle famille algérienne et musulmane ne pourrait rester insensible. Il s'agit des attroupements indécents qui se forment, chaque soir aux abords de la cité universitaire de jeunes filles qui fait face à notre cité.

Il est vrai qu'une cité universitaire de cette envergure (plusieurs centaines de locataires) est une concrétisation importante de la démocratisation de l'enseignement supérieur dans notre pays. Mais encore eut-il fallu veiller à un strict respect des mœurs Nous comprenons, bien sûr, un certain esprit libertaire à nos étudiants et étudiantes. Nous ne leur en voulons absolument pas pour cela. Mais qu'ils essaient un peu — ou plutôt elles, puisqu'il s'agit d'étudiantes — de se mettre à notre place. C'est simple, pour des raisons faciles à comprendre, il nous est impossible de nous mettre en famille au balcon tant certaines attitudes sont choquantes. C'est chaque soir un défilement ininterrompu de voitures de toutes marques et de toutes immatriculations, des comportements vraiment indécents et qui ne sont rien d'autre qu'une atteinte à la bonne moralité. Notre gène est encore plus grand quand nous recevons des invités. Nous sommes sûrs que c'est la le fait d'un petit groupe de résidentes et que la grande majorité de leurs

---

El Moudjahid 14.4.76

Cherche-t-on à ternir notre image ?

PAR LES RESIDENTES DE LA CITE UNIVERSITAIRE DE JEUNES FILLES DE BEN AKNOUN

A la suite de la publication d'une lettre parue dans « El Moudjahid » en date du 24 mars 1976 dont les signataires ont prétendu parler au nom des locataires des Asphodèles, les résidentes de la cité universitaire de jeunes filles de Ben Aknoun par le biais du comité de cité formulent leur point de vue comme suit :

La contenu de la lettre et la forme de l'attaque rejoignent curieusement les menées actuelles de la réaction contre les réalisations de notre pays. Nous connaissons très bien l'idée que la réaction veut entretenir des étudiants et des étudiantes auprès des masses « attitude indécente, sont coupés des réalités algériennes, ce sont des jeunes occidentalisés et on en passe ». Nous disons que l'objectif de ces attaques est de faire des étudiants une couche coupée du peuple et opposée au peuple. Si la réaction s'acharne sur l'étudiante en voulant provoquer une levée de bouclier de la part des familles notamment à travers le passage... « ... nulle famille algérienne et musulmane ne pourrait rester insensible... »

C'est uniquement parce que la jeune fille lie sans cesse son avenir aux orientations progressistes du pays et participe de plus en plus à la lutte anti-impérialiste que mène notre peuple — au sein de sa famille l'étudiante en communiquant son expérience, sa culture, son ouverture d'esprit sur le progrès universel en tenant compte de notre patrimoine culturel, contribue à faire reculer les préjugés rétrogrades au sein des familles et des jeunes filles encore soumises par leurs conditions sociales à l'idéologie rétrograde. Dans le cadre du volontariat en participant activement aux côtés des paysans et paysannes à l'application de la Révolution agraire, l'étudiante volontaire a donné une image réelle de l'étudiante en mettant son instruction et son savoir au profit de la lutte.

La réflexion d'un paysans est significante à ce sujet : « On avait une autre idée de l'étudiante mais maintenant je suis prêt à envoyer ma fille à l'école pour qu'un jour elle soit étudiante ». Les énormes progrès accomplis par notre pays dans le domaine de l'enseignement affaiblissent chaque jour la réaction qui tire sa force entre autre du manque d'instruction, de l'analphabétisme et de l'absence d'ouverture sur la civilisation universelle de la part des masses populaires (phénomènes objectifs liés au niveau du développement de notre pays).

C'est pour affaiblir notre peuple, l'exposer à l'impérialisme que la réaction veut ouvrir une brèche à l'université car le nombre plus important d'étudiants crée les conditions de développement plus rapide de notre économie au profit des masses populaires. En effet pourquoi cette lettre maintenant ? La réaction espère qu'avec l'aide de la monarchie marocaine et l'impérialisme américain il lui sera possible de remettre en cause les acquis révolutionnaires de notre peuple. C'est pourquoi au niveau du pays la réaction tente de créer un mécontentement populaire et une confusion politique ceci explique que l'offensive des mandataires et des maquignons dans la spéculation des produits de première nécessité, les tentatives de remettre en cause la 2ème phase de la Révolution agraire en voulant la vider de son contenu politique, les attaques contre le volontariat étudiant qui demeure un cadre efficace de la lutte contre la réaction et l'impérialisme. Toute ces tentatives montrent que la réaction est en mauvaise posture dans notre pays, elle essaie de regrouper autour d'elle toutes les couches de la population à partir des problèmes objectifs que connaît notre pays, pour affronter la charte nationale et tenter de la mettre au service des gros propriétaires fonciers, gros éleveurs et la bourgeoisie liée à l'impérialisme contre les intérêts de notre peuple.

Cette lettre contre les étudiants ne trompe personne, nous la considérons comme une manœuvre réactionnaire.

Le comité appelle toutes les étudiantes à resserrer leurs rangs et d'être vigilantes pour ne pas s'exposer aux coups de la réaction et d'exprimer leur soutien à notre peuple en lutte contre la réaction et l'impérialisme en participant à toute activité anti-réactionnaire et anti-impérialiste, et de se tenir prêtes à déjouer toute provocation et diversion dirigées contre la cité, l'université et contre le pays.

يلاحظ القارى، ان الطالبات لم ينكرن فى رسالتهن هذه ما نسب اليهن · وانما ذكرنا خمسة عشر مرة ـ كما يظهر من الترقيم ان استغاثة السكان ، ونقد هذه الاشياء ـ رجعية ونحن نقول الى الشاك فى هذا ان يتاكد بام راسه بان يعـــرج بذلك المنعرج ، أو « يضرب دورة » الى ذلك المكان لير ما نسب اليهن ·

ولله فى خلقه شؤون ·